سلسلة نصوص تراثية للباحثين

(١٤٨٦)

أسلوب الاستخدام

من مصنفات التفاسير واللغة

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٦هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

WWW.NSOOOS.COM

"أبو حيان: فالألف واللام للعهد، والثاني للتعيين وهو يشير إلى أنها للعهد في جنس أو شخص معين.

قوله تعالى: (وهو يرثها).

ابن عرفة: هو من باب: عندي درهم ونصفه، وفيه وجهان: أن الضمير عائد باعتبار لفظه دون معناه وهو المسمى **بالاستخدام**، أو أنه على حذف مضاف أي ونصف ونحوه.

قوله تعالى: (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب).

وكذلك هذه الآية إما أن يراد ومثله يرثها، يعود الضمير على لفظ الأخ دون معناه؛ لأن من مات كيف يرث؟

قلت: وحاصل جواب العقباني أنه قال: القضايا الشرطية لا يشترط في جوابها الإفادة، وإنما يشترط الإبداء بجوابها، والجواب: (فلهما الثلثان مما ترك)، فإن قلنا: ما فائدة قوله (اثنتين) بعد قوله (فإن كانتا)؟ فأجاب أبو حيان عن الفارسي: بأنه أفاد اثنين بالإطلاق أعم من كونهما صغيرتين أو كبيرتين.

ابن عرفة: وتقدم لنا الجواب عنه بالفرق بين ذكر المطلق لا يفيد جواب الفارسي بعبارة أخرى فتأمله حاسر وبين ذكره مقيدا بالإطلاق فذكره لا يقيد قابل بالتقييد بالصغير والكبير، والغني والفقير، ثم أخبر عن ذلك الضمير بلفظ التثنية المطلق لا تقيد بشيء فالمحكوم عليه أعني المخبر عنه مطلق قابل للتقييد، والمخبر به مطلق بعدم القبول للتقييد أي يقيد بالبقاء على الإطلاق، وفرق بين المطلق لا يقيد وبين المطلق يقيد،

قلت: ونحوه ذكره ابن التلمساني شارح المعالم الفقهية في المسألة الخامسة من الباب الأول.

قوله تعالى: (يبين الله لكم أن تضلوا).

قال أبو حيان: (أن تضلوا) إما مفعول من أجله أي كراهة أن تضلوا، قال ابن العربي: وفيها إشكال وهو أنه يلزم عليه الخلف في الخبر لاقتضائها أن بيان ذلك حسب وقوع الإضلال، وقد نقل المفسرون أن عمر بن الخطاب جمع الصحابة رضوان الله عليهم، ثم أرادوا أن يقضى في الكلالة، فخرجت حبة فتفرقوا على غير شيء فقد وقع الضلال.." (١)

"نقول سبحان [خالق الذر*] وخالق البعوض تكرمة له في نسبة خلق الأشياء المحتقرة إليه وإن كان اعتقادنا استناد كل شيء إليه، قيل له: قد قال تعالى: (ثم رددناه أسفل سافلين)، وقال تعالى: (ومن نعمره ننكسه في الخلق) فقال لأنه في الآية الأولى أسند إليه الأمرين لقوله في الاستثناء: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون)، ابن الخطيب: وهذه الآية رد على الطبائعيين لأن أفعال الطبيعة تختلف

---

(١) تفسير ابن عرفة ٧٨/٢

باختلاف الخلق [بالطول والقصر*] والتغير دليل على الفاعل المختار الموحد، كذلك قال: [وقد كنت أقرأ يوما من الأيام سورة المرسلات فلما وصلت إلى*] قوله تعالى: (ألم نخلقكم من ماء مهين (٢٠) فجعلناه في قرار مكين (٢١). إلى قوله تعالى: (ويل يومئذ للمكذبين (٢٤). [أيقنت*] أن المراد بالمكذبين في الآية الطبائعيون [لمخالفتهم القرآن*].

قوله تعالى: (لكيلا يعلم).

ابن عطية: قيل إن [اللام*] للصيرورة وليس بشيء.

ابن عرفة: لاقتضائها جهل الفاعل بعاقبة الأمر والله تعالى هو الفاعل هنا.

قوله تعالى: (إن الله عليم قدير).

وقدم العلم لعموم تعلقه بالمعدوم والموجود والمستحيل بخلاف القدرة.

قوله تعالى: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ... (٧١)﴾

دليل على صحة الخلاف لفظ البعض على المنصف وعلى أكثر منه لأن الفاضل أكثر رزقا من المفضول، وحكى الخلاف في البعض هل يطلق على المنصف لدلالة على شارح الجزولية في باب التنبيه.

قوله تعالى: (فما الذين فضلوا برادي رزقهم).

فيه سؤالان الأول أن التفاوت إنما هو في الرزق التكميلي الزائد على ما يسد الرمق ويستر البدن، وأما الحاجي فهم فيه مع المالك شئون فهلا قيل: (فما الذين فضلوا برادي) فضل رزقهم كما قيل: (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) وأجيب: بوجوه الأول ابن عرفة: لو قيل: (فما الذين فضلوا برادي) فضل رزقهم لكان فيه غثاثة لتكرار لفظ الفضل ثلاث مرات وهذا يقال له في علم البيان: **الاستخدام** وهو أن [تعبر*] باللفظ عن غيره خوف السآمة. الثاني: لأن فضل الرزاق أخص من الرزق فاستعمل الأخص في الثبوت والأعم في النفي؛ لأن النفي الأعم يستلزم في الأخص،." (١)

"٢٥١ - (ومما يشاء. .) المفعول محذوف أي (مما يشاء) أنه يعلمه له أو (مما يشاء) أن يعلمه لجميع الناس.

فإن كان فاعل (يشاء) هو الله تعالى، و " من " للتبعيض تعين الوجه الثاني؛ لأن مشيئته تعالى إذا تعلقت بشيء فلا بد من وقوع جميعه.

---

(١) تفسير ابن عرفة ٣/٣٤

- (ولولا دفع الله الناس بعضهم. .) بدل بعض من كل ولم يقل: ولولا دفع الله بعض الناس ببعض؛ ليفيد أن المدفوع أكثر قاله البيانيون في قولك: " أكلت الرغيف بعضه "، ويسمونه " **الاستخدام** "، ويؤخذ من الآية أن الأصل الفساد فيما احتمل الصحة، والفساد.." [1]

"وقيل: (الصدقات) المبتدأة: الفريضة. والمخفاة: التطوع، فالضمير عائد عليها لفظا لا معنى فهو نظير " عندي درهم ونصفه ".

انتهى. أراد أن الصدقات غير الثانية؛ لأن المعنى من الأولى: الإظهار، ومن الثانية: الإخفاء فلا يتجه أن يكون المعنى: وإن تخفوا الصدقات المظهرة.

ونظيره ذلك " عندي درهم، ونصفه " قد يفرق بينهما بأن الدرهم متشخص فلهذا استحال عود الضمير عليه لفظا، ومعنى بخلاف " الصدقات " فإنها عام لم يقصد بها صدقة معينة، وجعل بعضهم " عندي درهم ونصفه " من باب **الاستخدام**.

قال: وهو أن يؤتى باللفظ مجردا عن المعنى استخداما له قصدا؛ لعود الضمير على لفظه، ولا يقصد بذلك اللفظ إفادة معناه الأصلي بوجه.." [2]

"تفسير قوله تعالى: (ولقد مننا على موسى وهارون)

قال تعالى: ﴿ولقد مننا على موسى وهارون * ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم * ونصرناهم فكانوا هم الغالبين * وآتيناهما الكتاب المستبين * وهديناهما الصراط المستقيم﴾ [الصافات:١١٤ - ١١٨].

امتن جل جلاله وتكرم وتنعم على موسى وهارون، كانت هذه المنة بأن جعل موسى نبيا رسولا، وبأن جعل هارون نبيا رسولا، وكان هارون رسولا نبيا بطلب من أخيه، قال تعالى: ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري﴾ [طه:٢٩ - ٣٢]، ولذلك قالوا: لا يوجد أخ في الدنيا قدم لأخيه كما فعله موسى لهارون، طلب له النبوءة والرسالة فاستجاب الله له.

قال: (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) نجاهما الله كما نجى قومهما، وأنقذهم ونصرهم وأذل أعداءهم.

والكرب العظيم: ما عاشه بنو إسرائيل تحت فرعون وهامان من الذل ومن الاستعباد، ومن **الاستخدام** في أرذل الأعمال، مع الهوان والتحقير والإيذاء والبطش، ومع قتل شبابهم وسبي نسائهم، ولذلك سمى الله

---

(١) التقييد الكبير للبسيلي، البسيلي ص/٣٢٤

(٢) التقييد الكبير للبسيلي، البسيلي ص/٣٤٢

ذلك: الكرب العظيم، أي: البلاء والشدة والمصيبة العظيمة، وتنوع العذاب من الخدمة إلى الاستعباد إلى القتل إلى كل ما لا يرضى به إنسان، فهو قد امتن أولا بالرسالة والنبوة.

ثم قال: (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) نجاهم من فرعون، ونجاهم من هامان، ونجاهم من الأقباط حيث كانوا يظلمون بني إسرائيل، وأنجى قومهما من بني إسرائيل، فأخرج بني إسرائيل من مصر وأخرج معهم جميع أموالهم، ومع ذلك بعد أن أنجاهم الله وأنقذهم أبوا إلا الكفر، فذهبوا يعبدون عجلا صنعوه من ذهب، وخرجوا على هارون وكادوا يقتلونه، فبقوا في التيه أربعين عاما.

﴿ونصرناهم فكانوا هم الغالبين﴾ [الصافات:١١٦].

نصر الله موسى وهارون، ونصر قومهما فكانوا هم الغالبين، والمعركة كانت شديدة وكانت حامية بين بني إسرائيل والأقباط، فأذلو ا من أذلوا، وقتلوا من قتلوا، وتملكوا من تملكوا، وأخذوا مال من أخذوا، إلى أن أنقذهم الله بنبيين منهم: موسى وهارون، وأنقذ موسى وهارون كذلك من بلاء القبط وفرعون وهامان، إلى أن انتصروا عليهم، وخرجوا من بلادهم وأخذوا أموالهم، وغرق فرعون وجنده أذلاء مقهورين مغلوبين على أمرهم.

ولم يقدر ذلك بنو إسرائيل، بل بعد أشهر ارتد منهم من ارتد، وجاء السامري فجعل لهم عجلا جسدا له خوار، وقال لبني إسرائيل: هذا إلهكم وإله موسى، وجعل فيه حيلة، فقد ثقب من دبره إلى فيه، ثم وضعه في مجرى الريح والهواء، فصار الهواء كلما دخل من فمه أحدث صوتا، وحدث هذا لما ذهب موسى للقاء ربه في جبل الطور، وهكذا أصبحوا وثنيين مرة أخرى، فعوقبوا بأن تاهوا في الصحاري أربعين سنة.." (١)

"وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي " أتخذناهم سخريا " بألف الاستفهام ومعناها تقرير أنفسهم على هذا على جهة التوبيخ لها والأسف أي أتخذناهم سخريا ولم يكونوا كذلك واستبعد معنى هذه القراءة أبو علي وقرأ نافع وحمزة والكسائي سخريا بضم السين وهي قراءة الأعرج وشيبة وأبي جعفر وابن مسعود وأصحابه ومجاهد والضحاك ومعناها من السخرة **والاستخدام** وقرأ الباقون سخريا بكسر السين وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وعيسى وابن محيصن ومعناها المشهور من السخر الذي هو الهزء ومنه قول الشاعر عامر بن الحارث

(إني أتاني لسان لا أسر بها

من علو لا كذب فيها ولا سخر) " البسيط "

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٨/٢٦٢

وقالت فرقة يكون كسر السين من التسخير
و " أم " في قولهم " أم زاغت " معادلة ل " ما " في قولهم " ما لنا لا نرى " وذلك أنها قد تعادل " ما " وتعادل من وأنكر بعض النحويين هذا وقال إنها لا تعادل إلا الألف فقط والتقدير في هذه الآية أمفقودون هم أم زاغت ومعنى هذا الكلام أليسوا معنا أم هم معنا ولكن أبصارنا تميل عنهم فلا تراهم والزيغ الميل
ثم أخبر الله تعالى نبيه بقوله " إن ذلك لحق تخاصم أهل النار " و " تخاصم " بدل من قوله " لحق "
وقرأ ابن أبي عبلة تخاصم بفتح الميم وقرأ ابن محيصن تخاصم
بالتنوين أهل النار برفع اللام
ثم أمر نبيه أن يتجرد للكفار من جميع الأغراض إلا أنه منذر لهم وهذا توعد بليغ محرك للنفوس وباقي الآية بين
٥١٣
قوله عز وجل في سورة ص من ٦٧ - ٧٤
الإشارة بقوله تعالى " قل هو نبأ عظيم " إلى التوحيد والمعاد فهي إلى القرآن وجميع ما تضمن وعظمه أن التصديق به نجاة والتكذيب به هلكة وحكى الطبري أن شريحا اختصم إليه أعرابي فشهد عليه فأراد شريح أن ينفذ الحكم فقال له الأعرابي أتحكم بالنبأ فقال شريح نعم إن الله يقول " قل هو نبأ " وقرأ الآية وحكم عليه
قال القاضي أبو محمد وهذا الجواب من شريح إنما هو بحسب لفظ الأعرابي ولم يحرر معه الكلام وإنما قصد إلى ما يقطعه به لأن الأعرابي لم يفرق بين الشهادة والنبأ
والنبأ في كلام العرب بمعنى الخبر ووبخهم بقوله " أنتم عنه معرضون " ثم قال " ما كان لي من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون " وهذا احتجاج لصحة أمر محمد صلى الله عليه وسلم كأنه يقول هذا أمر خطر وأنتم تعرضون عنه مع صحته ودليل صحته أني أخبركم فيه بغيوب لم تأت إلا من عند الله فإني لم يكن لي علم بالملأ الأعلى أراد به الملائكة والضمير في " يختصمون " عند جمهور المفسرين هو للملائكة
." (١)

"ومعنى ﴿يسارعون في الخيرات﴾ يسارعون إليها أي يرغبون في الاستكثار منها. والمسارعة مستعارة للاستكثار من الفعل، والمبادرة إليه، تشبيها للاستكثار والاعتناء بالسير السريع لبلوغ المطلوب. وفي للظرفيه

(١) المحرر الوجيز ـ موافق للمطبوع، ٥٨٣/٤

المجازية، وهي تخييلية تؤذن بتشبيه الخيرات بطريق يسير فيه السائرون، ولهؤلاء مزية السرعة في قطعه. ولك أن تجعل مجموع المركب من قوله: ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ تمثيلا لحال مبادرتهم وحرصهم على فعل الخيرات بحال السائر الراغب في البلوغ إلى قصده يسرع في سيره. وسيأتي نظيره عند قوله تعالى: ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ في سورة العقود [١٧٦].

والإشارة بأولئك إلى الأمة القائمة الموصوفة بتلك الأوصاف. وموقع أسم الإشارة التنبيه على أنهم استحقوا الوصف المذكور بعد أسم الإشارة بسبب ما سبق أسم الإشارة من الأوصاف.

﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ [١١٥].

تذييل للجمل المفتتحة بقوله تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ [آل عمران: ١١٣] إلى قوله تعالى: ﴿من الصالحين﴾ [آل عمران: ١١٤]. وقرأ الجمهور: تفعلوا بالفوقيه فهو وعد للحاضرين، ويعلم منه ان الصالحين السابقين مثلهم، بقرينة مقام الامتنان، ووقوعه عقب ذكرهم، فكأنه قيل: وما تفعلوا من خير ويفعلوا. ويجوز أن يكون التفاتا لخطاب أهل الكتاب. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص، وخلف بياء الغيبه عائدا إلى أمة قائمة.

والكفر: ضد الشكر أي هو إنكار وصول النعمة الواصلة. قال عنترة:

نبئت عمرا غير شاكر نعمتي ... والكفر مخبثة لنفس المنعم

وقال تعالى: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ وأصل الشكر والكفر أن يتعديا إلى واحد، ويكون مفعولهما النعمة كما في البيت. وقد يجعل مفعولهما المنعم على التوسع في حذف حرف الجر، لأن الأصل شكرت له وكفرت له. قال النابغة:

شكرت لك النعمى

وقد جمع بين الاستعمالين قوله تعالى: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٥٢] وقد عدي ﴿تكفروه﴾ إلى مفعولين: أحدهما نائب الفاعل، لأن الفاعل ضمن معنى الحرمان. والضمير المنصوب عائد إلى خير بتأويل خير بجزاء فعل الخير على طريقة **الاستخدام**. وأطلق الكفر هنا على ترك جزاء فعل الخير، تشبيها لفعل الخير بالنعمة. كأن." [1]

"حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ... أرشدك الله من غاز وقد رشدا

وعلى هذا الاحتمال فالضمير راجع إلى الموت، بمعنى أسبابه، تنزيلا لرؤية أسبابه منزلة رؤيته، وهو

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩٦/٣

كالاستخدام، وعندي أنه أقرب من الاستخدام لأنه عاد إلى أسباب الموت باعتبار تنزيلها منزلة الموت.

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾ [١٤٤].

عطف الإنكار على الملام المتقدم في قوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾ [آل عمران: ١٤٣] وكل هاته الجمل ترجع إلى العتاب والتقريع على أحوال كثيرة، كانت سبب الهزيمة يوم أحد، فيأخذ كل من حضر الوقعة من هذا الملام بنصيبه المناسب لما يعلمه من حاله ظاهرا كان أم باطنا.

والآية تشير إلى ما كان من المسلمين من الاضطراب حين أرجف بموت الرسول صلى الله عليه وسلم فقال المنافقون: لو كان نبيا ما قتل، فارجعوا إلى دينكم القديم وإخوانكم من أهل مكة ونكلم عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان، فهموا بترك القتال والانضمام للمشركين، وثبت فريق من المسلمين، منهم: أنس بن النضر الأنصاري، فقال: إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده، فقاتلوا على ما قاتل عليه.

ومحمد اسم رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم سماه به جده عبد المطلب وقيل له: لم سميته محمدا وليس من أسماء آبائك؟ فقال: رجوت أن يحمده الناس. وقد قيل: لم يسم أحد من العرب محمدا قبل رسول الله. ذكر السهيلي في الروض أنه لسم يسم به من العرب قبل ولادة رسول الله إلا ثلاثة: محمد بن سفيان بن مجاشع، جد جد الفرزدق، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي. ومحمد بن حمران من ربيعة.

وهذا الاسم من اسم مفعول حمده تحميدا إذا أكثر من حمده، والرسول فعول بمعنى مفعول مثل قولهم: حلوب وركوب وجزور.

ومعنى ﴿خلت﴾ مضت وانقرضت كقوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ [آل عمران: ١٣٧]." [١]

"الوحي.

وقوله: ﴿عفا الله عنها﴾ يحتمل أنه تقرير لمضمون قوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن﴾، أي أن الله نهاكم عن المسألة وعفا عنكم أن تسألوا حين ينزل القرآن.وهذا أظهر لعوذ الضمير إلى أقرب مذكور باعتبار تقييده ﴿حين ينزل القرآن﴾. ويحتمل أن يكون إخبارا عن عفوه عما سلف من إكثار المسائل وإحفاء

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٧/٣

الرسول صلى الله عليه وسلم فيها لأن ذلك لا يناسب ما يناسب ما يجب من توقيره.

وقوله: ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ استئناف بياني جواب سؤال يثيره النهي عن السؤال ثم الإذن فيه في حين ينزل القرآن، أن يقول سائل:إن كان السؤال في وقت نزول القرآن وأن بعض الأسئلة يسوء جوابه قوما، فهل الأولى ترك السؤال أو إلقاؤه.فأجيب بتفصيل أمرها بأن أمثالها قد كانت سببا في كفر قوم قبل المسلمين.

وضمير ﴿سألها﴾ جوز أن يكون عائدا إلى مصدر مأخوذ من الكلام غير مذكور دل عليه فعل ﴿تسألوا﴾، أي سأل المسألة، فيكون الضمير منصوبا على المفعولية المطلقة.وجرى جمهور المفسرين على تقدير مضاف، أي سأل أمثالها.والمماثلة في ضآلة الجدوى.والأحسن عندي أن يكون ضمير ﴿سألها﴾ عائدا إلى ﴿أشياء﴾، أي إلى لفظه دون مدلوله.فالتقدير:قد سأل أشياء قوم من قبلكم، وعدي فعل ﴿سأل﴾ إلى الضمير على حذف حرف الجر، وعلى هذا المعنى يكون الكلام على طريقة قريبة من طريقة **الاستخدام** بل هي أحق من **الاستخدام**، فإن أصل الضمير أن يعود إلى لفظ باعتبار مدلوله وقد يعود إلى لفظ دون مدلوله، نحو قولك:لك درهم ونصفه، أي نصف درهم لا الدرهم الذي أعطيته **إياه.والاستخدام** أشد من ذلك لأنه عود الضمير على اللفظ مع مدلول آخر.

و﴿ثم﴾في قوله: ﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾ للترتيب الرتبي كشأنها في عطف الجمل فإنها لا تفيد فيه تراخي الزمان وإنما تفيد تراخي مضمون الجملة المعطوفة في تصور المتكلم عن تصور مضمون الجملة المعطوف عليه، فتدل على أن الجملة المعطوفة لم يكن يترقب حصول مضمونها حتى فاجأ المتكلم.وقد مرت الإشارة إلى ذلك عند قوله تعالى: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ في سورة البقرة[٨٥].

والباء في قوله: ﴿بها﴾ يجوز أن تكون للسببية، فتتعلق بـ ﴿أصبحوا﴾، أي كانت تلك المسائل سببا في كفرهم، أي باعتبار ما حصل من جوابها، ويحتمل أن تكون"للتعدية"." (١)

"وتقديم وصف الرسول لأنه الوصف الأخص الأهم، ولان في تقديمه زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب، حيث حذفوا هذا الوصف ليصير كلام التوراة صادقا بمن أتى بعد موسى من أنبياء بني إسرائيل، ولأن محمدا صلى الله عليه وسلم اشتهر بوصف النبي الأمي، فصار هذا المركب كاللقب له، فلذلك لا يغير عن شهرته، وكذلك هو حيثما ورد ذكره في القرآن.

والأمي: الذي لا يعرف الكتابة والقراءة، قيل هو منسوب إلى الأم أي هو أشبه بأمه منه بأبيه، لان النساء

---

(١) التحرير والتنوير، ٥/٢٣٤

في العرب ما كن يعرفن القراءة والكتابة، وما تعلمنها إلا في الإسلام، فصار تعلم القراءة والكتابة من شعار الحرائر دون الإماء كما قال عبيد الراعي، وهو إسلامي:

هن الحرائر لا ربات أخمرة ... سود المحاجر لا يقرأن بالسور

أما الرجال ففيهم من يقرأ ويكتب.

وقيل: منسوب إلى الأمة أي الذي حاله حال معظم الأمة، أي الأمة المعهودة عندهم وهي العربية، وكانوا في الجاهلية لا يعرف منهم القراءة والكتابة إلا النادر منهم، ولذلك يصفهم أهل الكتاب بالأميين، لما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ في آل عمران [٧٥].

والأمية وصف خص الله به من رسله محمدا صلى الله عليه وسلم، إتماما للإعجاز العلمي العقلي الذي أيده الله به، فجعل الأمية وصفا ذاتيا له ليتم بها وصفه الذاتي وهو الرسالة، ليظهر أن كماله النفساني كمال لدني الهي، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه، مع انها في غيره وصف نقصان، لأنه لما حصل له من المعرفة وسداد العقل ما لا يحتمل الخطأ في كل نواحي معرفة الكمالات الحق، وكان على يقين من علمه، وبينة من أمره، ما هو اعظم مما حصل للمتعلمين، صارت أميته آية على كون ما حصل له إنما هو من فيوضات إلهية.

ومعنى ﴿يجدونه مكتوبا﴾ وجدان صفاته ونعوته، التي لا يشبهه فيها غيره، فجعلت خاصته بمنزلة ذاته.وأطلق عليها ضمير الرسول النبي الأمي مجازا **بالاستخدام**، وإنما الموجود نعته ووصفه، والقرينة قوله: ﴿مكتوبا﴾ فان الذات لا تكتب، وعدل عن التعبير بالوصف للدلالة على انهم يجدون وصفا لا يقبل الالتباس، وهو: كونه أميا، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات، ويحرم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم،." (١)

"كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا﴾ [التوبة:١٢٠] الخ. ومعنى ﴿أن يتخلفوا﴾ هو أن لا ينفروا، فناسب أن يذكر بعده ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ .

والمراد بالنفير في قوله: ﴿لينفروا﴾ وقوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ الخروج إلى الغزو المأخوذ من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ [التوبة:٣٨] أي وما كان المؤمنون لينفروا ذلك النفر كلهم.

فضمير ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ يجوز أن يعود على قوله: ﴿المؤمنون﴾ ، أي ليتفقه المؤمنون. والمراد ليتفقه

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١٤/٨

منهم طائفة وهي الطائفة التي لم تنفر، كما اقتضاه قوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ ، فهو عام مراد به الخصوص.

ويجوز أن يعود الضمير إلى مفهوم من الكلام من قوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ لأن مفهومه وبقيت طائفة ليتفقهوا في الدين، فأعيد الضمير على (طائفة) بصيغة الجمع نظرا إلى معنى طائفة، كقوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ [الحجرات:٩] على تأويل اقتتل جمعهم.

ويجوز أن يكون المراد من النفر في قوله: ﴿لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ نفرا آخر غير النفر في سبيل الله، وهو النفر للتفقه في الدين، وتكون إعادة فعل (ينفروا) و(نفر) من **الاستخدام** بقرينة قوله: ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ فيكون الضمير في قوله: ﴿ليتفقهوا﴾ عائدا إلى ﴿طائفة﴾ ويكون قوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ تمهيدا لقوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ .

وقد نقل عن أيمة المفسرين وأسباب النزول أقوال تجري على الاحتمالين. والاعتماد في مراجع الضمائر على قرائن الكلام على عادة العرب في الإيجاز والاعتماد على فطنة السامع فإنهم أمة فطنة.

والإتيان بصيغة لام الجحود تأكيد للنفي، وهو خبر مستعمل في النهي فتأكيده يفيد تأكيد النهي، أي كونه نهيا جازما يقتضي التحريم. وذلك أنه كما كان النفر للغزو واجبا لأن في تركه إضاعة مصلحة الأمة كذلك كان تركه من طائفة من المسلمين واجبا لأن في تمحض جميع المسلمين للغزو إضاعة مصلحة للامة أيضا، فأفاد مجموع الكلامين أن النفر للغزو واجب على الكفاية أي على طائفة كافية لتحصيل المقصد الشرعي منه، وأن تركه متعين على طائفة كافية منهم لتحصيل المقصد الشرعي مما أمروا بالاشتغال به من العلم." (١)

"المسلمين.

والإخبار في قوله: ﴿إنه كان فريق من عبادي﴾ إلى قوله: ﴿سخريا﴾ مستعمل في كون المتكلم عالما بمضمون الخبر بقرينة أن المخاطب يعلم أحوال نفسه. وتأكيد الخبر ب ﴿إن﴾ وضمير الشأن للتعجيل بإرهابهم.

وجملة ﴿إني جزيتهم﴾ خبر إن الأولى لزيادة التأكيد. وتقدم نظيره في قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ في سورة الكهف.

والسخري بضم السين في قراءة نافع والكسائي وأبي جعفر وخلفن وبكسر السين في قراءة الباقين، وهما

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢٨/١٠

وجهان ومعناهما واحد عند المحقيقن من أئمة اللغة لا فرق بينهما، خلافا لأبي عبيدة والكسائي والفراء الذين جعلوا المكسور مأخوذا من سخر بمعنى هزأ، والمضموم مأخوذا من السخرة بضم السين وهي **الاستخدام** بلا أجر. فلما قصد منه المبالغة في حصول المصدر أدخلت ياء النسبة كما يقال لك الخصوصية لمصدر الخصوص.

وسلط الاتخاذ على المصدر للمبالغة كما يوصف بالمصدر. والمعنى: اتخذتموهم مسخورا بهم، فنصب ﴿سخريا﴾ على أنه مفعول ثان ل ﴿اتخذتموهم﴾ .

و ﴿حتى﴾ ابتدائية ومعنى ﴿حتى﴾ الابتدائية معنى فاء السببية فهي استعارة تبعية. شبه التسبب القوي بالغاية فاستعملت فيه ﴿حتى﴾ . والمعنى: أنكم لهوتم عن التأمل فيما جاء به القرآن من الذكر لأنهم سخروا منهم لأجل أنهم مسلمون فقد سخروا من الدين الذي كان اتباعهم إياه سبب السخرية بهم فكيف يرجى من هؤلاء التذكر بذلك الذكر وهو من دواعي السخرية بأهله. وتقدم الكلام على فعل سخر عند قوله: ﴿فحاق بالذين سخروا منهم﴾ في سورة الأنعام، وقوله: ﴿يسخرون منهم﴾ في سورة براءة.

فإسناد الإنساء إلى الفريق مجاز عقلي لأنهم سببهن أو هو مجاز بالحذف بتقدير: حتى أنساكم السخري بهم ذكري، والقرينة على الأول معنوية وعلى الثاني لفظية.

وقوله: ﴿أنهم هم الفائزون﴾ قرأه الجمهور بفتح همزة ﴿أن﴾ على معنى المصدرية والتأكيد أي جزيتهم بأنهم. وقرأه حمزة والكسائي بكسر همزة ﴿أن﴾ على التأكيد فقط فتكون استئنافا بيانيا للجزاء.

وضمير الفصل للاختصاص، أي هم الفائزون لا أنتم.." (١)

"فرعون وجنده. والجنات: جنات النخيل التي كانت على ضفاف النيل. والعيون: منابع تحفر على خلجان النيل. والكنوز: الأموال المدخرة.

والمقام: أصله محل القيام أو مصدر قام. والمعنى على الأول: مساكن كريمة، وعلى الثاني: قيامهم في مجتمعهم، والكريم: النفيس في نوعه. وذلك ما كانوا عليه من الأمن والثروة والرفاهية، كل ذلك تركه فرعون وجنوده الذين خرجوا منه لمطاردة بني إسرائيل لأنهم هلكوا فلم يرجعوا إلى الشيء مما تركوا.

﴿كذلك﴾ تقد الكلام على نظيره عند قوله تعالى ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا﴾ في [سورة الكهف: ٩١]، فهو بمنزلة الاعتراض.

وجملة ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾ معترضة أيضا والواو اعتراضية وليست عطفا لأجزاء القصة لما ستعمله.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠٥/١٨

والإيراث: جعل أحد وارثا. وأصله إعطاء مال الميت ويطلق على إعطاء ما كان ملكا لغير المعطى "بفتح الطاء" كما قال تعالى ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ [الأعراف: ١٣٧]، أي أورثنا بني إسرائيل أرض الشام، وقال ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ [فاطر: ٣٢].

والمعنى: أن الله أرزأ أعداء موسى ما كان لهم من نعيم إذ أهلكهم وأعطى بني إسرائيل خيرات مثلها لم تكن لهم، وليس المراد أنه أعطى بني إسرائيل ما كان بيد فرعون وقومه من الجنات والعيون والكنوز لأن بني إسرائيل فارقوا أرض مصر حينئذ وما رجعوا إليها كما يدل عليه قوله في سورة الدخان ﴿كذلك وأورثناها قوما آخرين﴾ [الدخان: ٢٨]. ولا صحة لما يقوله بعض أهل قصص القرآن من أن بني إسرائيل رجعوا فملكوا مصر بعد ذلك فإن بني إسرائيل لم يملكوا مصر بعد خروجهم منها سائر الدهر فلا محيص من صرف الآية عن ظاهرها إلى تأويل يدل عليه التاريخ ويدل عليه ما في سورة الدخان.

فضمير ﴿وأورثناها﴾ هنا عائد للأشياء المعدودة باعتبار أنها أسماء أجناس، أي أورثنا بني إسرائيل جنات وعيونا وكنوزا، فعود الضمير هنا إلى لفظ مستعمل في الجنس وهو قريب من **الاستخدام** وأقوى منه، أي أعطيناهم أشياء ما كانت لهم من قبل وكانت للكنعانيين فسلط الله عليهم بني إسرائيل فغلبوهم على أرض فلسطين والشام. وقد يعود الضمير على اللفظ دون المعنى كما في قولهم: عندي درهم ونصفه، وقوله تعالى ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ [النساء: ١٧٦]، إذ ليس المراد أن المرء الذي هلك يرث أخته التي لها نصف ما ترك بل." (١)

"هذا هو الوجه في تفسير الآية الخلي عن التكلفات وعن ارتكاب شبه **الاستخدام** في قوله: ﴿التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾ وعن التقدير.

وجملة ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ مستأنفة كما تذكر النتيجة عقب الدليل،أي أن في حالة الإماتة والإنامة دلائل على انفراد الله تعالى بالتصرف وأنه المستحق للعبادة دون غيره وان ليس المقصود من هذا الخبر الإخبار باختلاف حالتي الموت والنوم بل المقصود التفكر والنظر في مضرب المثل،وفي دقائق صنع الله والتذكير بما تنطوي عليه من دقائق الحكمة التي تمر على كل إنسان كل يوم في نفسه،وتمر على كثير من الناس في آلهم وفي عشائرهم وهم معرضون عما في ذلك من الحكم وبديع الصنع.

وجعل ما تدل عليه آيات كثيرة لأنهما حلتان عجيبتان ثم في كل حالة تصرف يغير التصرف الذي في

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/١٤٥

الأخرى،ففي حالة الموت سلب بعض الحياة عن الجسم حتى يكون كالميت وما هو بميت ثم منح الحياة أن تعود إليه دواليك إلى أن يأتي إبان سلبها عنه سلبا مستمرا.

و"الآيات لقوم يتفكرون" حاصلة على كل من إرادة التمثيل وإرادة الاستدلال على الانفراد بالتصرف.وتأكيد الخبر بـ ﴿إن﴾ لتنزيل معظم الناس منزلة المنكر لتلك الآيات لعدم جريهم في أحوالهم على مقتضى ما تدل عليه.

والتفكير:تكلف الفكرة،وهو معالجة الفكر ومعاودة التدبر في دلالة الأدلة على الحقائق.

وقرأ الجمهور ﴿قضى عليها الموت﴾ ببناء الفعل للفاعل ونصب الموت.وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ قضى عليها الموت﴾ ببناء الفعل للنائب وبرفع الموت وهو على مراعاة نزع الخافض.والتقدير:قضى عليها بالموت،فلما حذف الخافض صار الاسم الذي كان مجرورا بمنزلة المفعول به فجعل نائبا عن الفاعل،أو على تضمين ﴿قضى﴾ معنى كتب وقدر.

[٤٤.٤٣] ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون﴾." (١)

"وجوز الزجاج أن يكون الضمير راجعا إلى نار الدنيا، أي أنها تذكر الناس بنار الآخرة، يريد أنه من قبيل قوله تعالى: ﴿أفرأيتم النار التي تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة﴾ [الواقعة: ٧١-٧٣]. وفيه محسن **الاستخدام**.

وقيل المعنى: وما عدتهم إلا ذكرى للناس ليعلموا غنى الله عن الأعوان والجند فلا يظلوا في استقلال تسعة عشر تجاه كثرة أهل النار.

وإنما حملت الآية هذه المعاني بحسن موقعها في هذا الموضع وهذا من بلاغة نظم القرآن. ولو وقعت أثر قوله: ﴿لواحة للبشر﴾ [المدثر:٢٩] لتمحض ضمير ﴿وما هي إلا ذكرى﴾ للعود إلى سقر، وهذا من الإعجاز بمواقع جمل القرآن كما في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير.

وبين لفظ البشر المذكور هنا ولفظ البشر المتقدم في قوله: ﴿لواحة للبشر﴾ لتجنيس التام.

[٣٢-٣٧] ﴿كلا والقمر، والليل إذ أدبر، والصبح إذا أسفر، إنها لإحدى الكبر، نذيرا للبشر، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ .

﴿كلا﴾

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠١/٢٤

﴿كلا﴾ حرف ردع وإبطال. والغالب أن يقع بعد كلام من متكلم واحد أو من متكلم وسامع مثل قوله تعالى: ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون، قال كلا إن معي ربي سيهدين﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢] فيفيد الردع عما تضمنه الكلام المحكي قبله. ومنه قوله تعالى: ﴿كلا سنكتب ما يقول﴾ في سورة مريم [٧٩]، ويجوز تقديمه على الكلام إذا أريد التعجيل بالردع والتشويق إلى سماع ما بعده، وهو هنا محتمل لأن يكون إبطالا لما قبله من قولهم: فإذا أراد الله بهذا مثلا، فيكون ما بينهما اعتراضا ويكون قوله: ﴿والقمر﴾ ابتداء كلام فيحسن الوقوف على ﴿كلا﴾ . ويحتمل أن يكون حرف إبطال مقدما على الكلام الذي بعده من قوله: ﴿إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر﴾ وتقديم اهتمام لإبطال ما يجيء بعده من مضمون قوله: ﴿نذيرا للبشر﴾ ، أي من حقهم أن ينتذروا بها فلم ينتذر أكثرهم على نحو معنى قوله: ﴿وأنى له الذكرى﴾ [الفجر:٢٣] فيحسن أن توصل في القراءة بما بعدها.

﴿والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن." (١)

"أهل العرف.

ومعنى الأبتر في الآية الذي لا خير فيه وهو رد لقول العاصي بن وائل أو غيره في حق النبي صلى الله عليه وسلم فبهذا المعنى استقام وصف العاصي أو غيره بالأبتر دون المعنى الذي عناه هو حيث لمز النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أبتر، أي لا عقب له لأن العاصي بن وائل له عقب فابنه عمرو الصحابي الجليل، وابن ابنه عبد الله بن عمرو ابن العاص الصحابي الجليل ولعبد الله عقب كثير. قال ابن حزم في الجمهرة عقبه بمكة وبالرهط١.

فقوله تعالى: ﴿هو الأبتر﴾ اقتضت صيغة القصر إثبات صفة الأبتر لشانئ النبي صلى الله عليه وسلم ونفيها عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الأبتر بمعنى الذي لا خير فيه.

ولكن لما كان وصف الأبتر في الآية جيء به لمحاكاة قول القائل محمد أبتر إبطال لقوله ذلك، وكان عرفهم في وصف الأبتر أنه الذي لاعقب له تعين أن يكون هذا الإبطال ضربا من الأسلوب الحكيم وهو تلقي السامع بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أن الأحق غير ما عناه من كلامه كقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ [البقرة: ١٨٩]. وذلك بصرف مراد القائل عن الأبتر الذي هو عديم الابن الذكر إلى ما هو أجدر بالاعتبار وهو ناقص حظ الخير، أي ليس ينقص للمرء أنه لا ولد له لأن ذلك لا يعود على المرء بنقص في صفاته وخلائقه وعقله. وهب أنه لم يولد

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩/٢٩٨

له البتة، وإنما أصطلح الناس على اعتباره نقصا لرغبتهم في الولد بناء على ما كانت عليه أحوالهم الاجتماعية من الاعتماد على الجهود البدنية فهم يبتغون الولد الذكور رجاء الاستعانة بهم عند الكبر وذلك أمر قد يعرض وقد لا يعرض أو لمحبة ذكر المرء بعد موته وذلك أمر وهمي، والنبي صلى الله عليه وسلم قد أغناه الله بالقناعة، وأعزه بالتأييد، وقد جعل الله له لسان صدق لم يجعل مثله لأحد من خلقه، فتمحض أن كماله الذاتي بما علمه اللہ فيه إذ جعل فيه رسالته، وأن كماله العرضي بأصحابه وأمته إذ جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وفي الآية محسن **الاستخدام** التقديري لأن سوق الإبطال بطريق القصر بقوله: ﴿هو الأبتر﴾ نفي وصل الأبتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ولكن بمعنى غير المعنى الذي عناه شانئه

_

١ كذا في طبعة "جمهرة ابن حزم". وقال ياقوت: الرهط موبضع في شعر هذيل.

وأقول : لعله تحريف راهط وراهط موضع بغوطة دمشق.." (١)

"فهو استخدام ينشأ من صيغة القصر بناء على أن ليس **الاستخدام** منحصر في استعمال الضمير في غير معنى معاده، على ما حققه أستاذنا العلامة سال أبو حاجب وجعله وجها في واو العطف من قوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك﴾ [الفجر: ٢٢] لأن العطف بمعنى إعادة العامل فكأنه قال: وجاء الملك، وهو مجيء مغاير لمعنى مجيء الله تعالى، قال وقد سبقنا الخفاجي إلى ذلك إذ أجراه في حرف الاستثناء في "طراز المجالس" في قول محمد الصالحي من شعراء الشام:

وحديث حبي ليس بال ... منسوخ إلا في الدفاتر

والشانئ: المبغض وهو فاعل من الشناءة وهي البغض ويقال فيه: الشنآن، وهو يشمل كل مبغض له من أهل الكفر فكلهم بتر من الخير ما دام فيه شنآن للنبي صلى الله عليه وسلم فأما من أسلموا منهم فقد أنقلب بعضهم محبة له واعتزازا به.." (٢)

" صفحة رقم ٢٥٥

(الأعراف : (١٣٨ - ١٣٩) وجاوزنا ببني إسرائيل . . . . .

" وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٠٦/٣٠

(٢) التحرير والتنوير، ٥٠٧/٣٠

آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون " (قوله عز وجل :) إن هؤلاء متبر ما هم فيه (في) متبر (ثلاثة أوجه :

أحدها : باطل ، قاله الكلبي .

والثاني : ضلال ، حكاه أبو اليسع .

والثالث : مهلك ، ومنه التبر ، الذهب . وفي تسميته بذلك قولان :

أحدهما : لأن موسى يهلكه .

والثاني : لكسره ، وكل إناء مكسور متبر قاله الزجاج . وقال الضحاك هي كلمة نبطية لما ذكرنا .

(الأعراف : (١٤٠ - ١٤١) قال أغير الله . . . . .

" قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم " (قوله عز وجل :) وإذ أنجيناكم من ءآل فرعون (قال هذا يذكر بالنعمة .

) يسومونكم سوء العذاب (أي أشد العذاب .

) يقتلون أبناءكم ويستحيون نسآءكم (أي يقتلون أبناءكم صغارا ويستحيون نساءكم للاسترقاق والاستخدام كبارا .

) وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم (فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن ما فعله فرعون بكم من قتل الأبناء واسترقاق النساء بلاء عليكم عظيم ، قاله الكلبي .

والثاني : أنه ابتلاء لكم واختبار عظيم ، قاله الأخفش .

والثالث : أن في خلاصكم من ذلك بلاء عظيم ، أي نعمة عظيمة ، قاله ابن قتيبة .." (١)

"قلت : الاستمتاع بالشيء : هو أن يتمتع به، فينال به ما يطلبه ويريده ويهواه، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم ببعض كما قال : ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ [النساء : ٢٤] . ومن ذلك الفواحش، كاستمتاع الذكور بالذكور والإناث بالإناث .

ويدخل في هذا : الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم، ويدخل في ذلك : الاستمتاع بالأموال كاللباس، ومنه قوله : ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ [البقرة : ٢٣٦] وكان من السلف من يمتع المرأة بخادم فهي تستمتع بخدمته، ومنهم من يمتع

(١) النكت والعيون - موافق للمطبوع، ٢/٢٥٥

بكسوة أو نفقة؛ ولهذا قال الفقهاء : أعلى المتعة خادم، وأدناها كسوة تجزي فيها الصلاة .
وفي الجملة، استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس، قال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ [البقرة : ١٦٦] ، وقال مجاهد : هي المودات التي كانت لغير الله، وقال الخليل : ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ﴾ [العنكبوت : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ [الجاثية : ٢٣] فالمشرك يعبد ما يهواه . واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه . وقد وقع في الإنس والجن هذا كله .
". [١]

" صفحة رقم ٢٧٣
رخصة فيه إلا ما استثنى في النفل أدخل معه أمته ليعمهم الحكم وربأ بمنصبه المنيف وقدره الشريف عن أن يكون لأحد عليه ما يسمى حجة بحق أو باطل فقال : (وحيث ما كنتم) أي أيتها الأمة من جميع جهات الكعبة في جميع أقطار الأرض الدانية والقاصية .
قال الحرالي : وذكر في أمته بالكون لا بالخروج إشعارا يتقاصر الأمة عن علو أحوال الأئمة وأن حال الأمة في خلوتهم كحالهم في جولتهم – انتهى .
) فولوا وجوهكم) أي اجعلوها والية) شطره (للصلاة .
قال الحرالي : وفيه إشعار يلحظ صحة صلواتكم فرادى وفي بيوتكم ، كما قال : إذا جئت فصل مع الناس وإن كنت قد صليت في أهلك ، فخلافه هو (صلى الله عليه وسلم) فإن صلاته لا تقع إلا جمعا من حيث إنه يصلي لهم وأنه إمام لا تقع صلاته فذا – انتهى .
ولما كان ربما ظن أن الرجوع إلى القبلة الأولى يزيل الكلام بين سبحانه وتعالى أن الأمر بخلاف ذلك فقال : (لئلا يكون للناس) أي لأحد منهم) عليكم حجة (بأن يقولوا : النبي المبشر به يستقبل بيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم لا يتحول عنه وهذا لم يفعل ، أو يقولوا : ما جاء بشيء جديد وإنما هو تبع لنا في قبلتنا .
ولما كانت الحجة كلاما ينشأ عن مقدمات يقينية مركبة تركيبا صحيحا وقع الاستثناء باعتبار تلبس المستثنى بجزء المعنى الذي نفى عن المستثنى منه بدلالة التضمن فهو قريب من **الاستخدام** فقال : (إلا الذين)

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٢/٧٠

أي الناس الذين) ظلموا منهم (فإنهم لعنادهم ولددهم لا يرجعون إلى الحق الذي يعرفونه بل يكون لهم عليكم مجرد كلام هو مادة الحجة لا حجة بما دل عليه وصفهم بالظلم الذي هو وضع الشيء في غير محله كما هو شأن كل ماش في مأخذ الاشتقاق الذي هو الظلام ، ويكون الاستثناء على هذا منقطعا بمعنى : لئلا يحتج أحد عليكم لكن الذين ظلموا يقولون أو يظهرون فجورا ولددا في ذلك كلاما يسمونه حجة ، ولعل السر في تصويره على تقدير الانقطاع بصورة الاستثناء الحث على الثبات على أمر الله سبحانه وتعالى والإعراض عمن خالفه نظرا إلى ما تأصل من إبطاله واستحضارا لما ظهر من فاسد أحواله وإن أبدى من الشبه ما يخفى أمره ويصعب على بعض المحققين حله حتى يظن حجة ؛ ويجوز أن يراد بالحجة أعم من القطعي والظني فيكون الاستثناء متصلا ، قال السفاقسي : ومثار الخلاف هل الحجة." (١)

" صفحة رقم ٣٣٤

الهيبة فقال : (أو) أي أو كان ذلك القسط على) الوالدين (وأتبعه ما يعمهما وغيرها فقال : (والأقربين) أي من الأولاد وغيرهم ، ثم على ذلك بقوله : (إن يكن) أي المشهود له أو عليه) غنيا) أي ترون الشهادة له بشيء باطل دافعة ضرا منه للغير من المشهود عليه أو غيره ، أو مانعة فسادا أكبر منها ، أو عليه بما لم يكن صلاحا طمعا في نفع الفقير بما لا يضره ونحو ذلك) أو فقيرا (فيخيل إليكم أن الشهادة له بما ليس له نفعه رحمة له أو بما ليس عليه لمن هو أقوى منه تسكن فتنة) فالله) أي ذو الجلال والإكرام) أولى بهما) أي بنوعي الغني والفقير المندرج فيهما هذان المشهود بسببهما منكم ، فهو المرجو لجلب النفع ودفع الضر بغير ما ظننتموه ، فالضمير من **الاستخدام** ، ولو عاد للمذكور لوحد الضمير لأن المدث عنه واحد مبهم .

ولما كان هذا ، تسبب عنه قوله : (فلا تتبعوا) أي تتكلفوا تبع) الهوى (وتنهمكوا فيه انهماك المجتهد في المحب له) أن) أي إرادة أن) تعدلوا (فقد بان لكم أنه لا عدل في ذلك ولما كان التقدير : فإن تتبعوه لذلك أو لغيره فإن الله كان عليكم قديرا ، عطف عليه قوله : (وإن تلوا) أي ألسنتكم لتحرفوا الشهادة نوعا من التحريف أو تديروا ألسنتكم أي تنطقوا بالشهادة باطلا ، وقرأ ابنعامر وحمزة بضم اللام - من الولاية أي تؤدوا الشهادة على وجه من العدل ، أو اللي) أو تعرضوا) أي عنها وهي حق فلا تؤدوها لأمر ما) فإن الله) أي المحيط علما وقدرة)كان) أي لم يزل ولا يزال) بما تعملون خبيرا) أي بالغ العلم باطنا وظاهرا ، فهو يجازيكم على ذلك بما تستحقونه ، فاحذروه إن خنتم ، وارجوه إن وفيتم ، وذلك

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٢٧٣

بعد ما مضى من تأديبنهم على وجه الإشارة والإيماء من غير أمر ، وما أنسبها لختام التي قبلها وأشد التئام الختامين : ختام هذه بصفة الخبرن وتلك بصفتي السمع والبصر .

ولما أمر بالعدل على هذا الوجه أمر بالحامل على ذلك ، وهو الإيمان بالشارع والمبلغ والكتاب الناهج لشرائعه المبين لسرائره الذي افتتح القصة بحقيته وبيان فائدته فقال : (يأيها الذين ءامنوا) أي أقروا بالإيمان ؛ ولما ناداهم بوصف الإيمان أمرهم بما لا يحصل إلا به فقال مفصلا له : (ءامنوا بالله) أي لأنه أهل لذلك لذاته المستجمع لجميع صفات الكمال كلها .

ولما كان الإيمان بالله لا يصح إلا بالإيمان بالوسائط ، وكان أقرب الوسائط إلى الإنسان الرسول قال : (ورسوله) أي لأنه المبلغ عنه سواء كان من الملك أو البشر) والكتاب الذي نزل) أي مفرقا بحسب المصالح تدريجا تثبيتا وتفهيما) على رسوله (."[1]

" صفحة رقم ٣١٩

ومتوقف نصره عليهم كما لم يحتج إليهم - بحياطة القادر له - فيما مضى من الهجر التي ذكرها ، وأن نفع ذلك إنما هو لهم باستجلاب ما عدوه واستدفاع ما اوعدوه في الدارين المشار إلى ذلك كله بقوله) فما متاع الحياة الدنيا (الاية وقوله) إلا تنفروا (- الآية ، فقال : (إلا تنصروه) أي أنتم طاعة لأمر الله ، والضمير للنبي (صلى الله عليه وسلم) إما على طريق **الاستخدام** من سبيل الله لأنه الموضح له الداعي إليه ، أو لتقدم اسمه الشريف إضمارا في قوله) إذا قيل لكم) أي من رسول الله صلى عليه وسلم استنصارا منه لكم ، وإظهارا في قوله تعالى

٧٧ ( ) هو الذي أرسل رسوله ( ) ٧

[التوبة : ٣٤] الاية وقوة ما في كل جملة من المناسبة المقتضية لأن تعانق التي بعدها ولا تنفك عنها قصر الفصل بين الظاهر وضميره ، وذكر الغاز والصاحب اوضح الأمر. وذلك أنه سبحانه لما عابهم باتخاذالرؤساء أربابا اشتدت الحاجة إلى بيان أنهم في البعد عن ذلك على غاية لا تخفى على متأمل ، فوصفهم بالأكل المستلزم للجسمية المستلزمة للحاجة ، وبأن مأكولهم أموال غيرهم باطلا ، بأنهم يغشونهم لصدهم إياهم عن السبي التي لا يخفى حسنها على من له أدنى نظر ؛ ولما كان ذلك شديد الإثارة لتشوف النفوس إلى السؤال عن العرب : هل فعلوا فعلهم واتبعوا سنتهم ؟ أجاب بأن عملهم في تحليل النسأة لهم بعض الأشهر الحرم وتحريم بعض أشهر الحل والزيادة في عدة أشهر السنة كعملهم سواء ولما أمر بقتال

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٣٣٤

المشركين كافة وحثم على التقوى ، وكان بعضهم قد توانى في ذلك ، اشتد اقتضاء الحال لمعاتبة على التثاقل عن النفر ، فلما تم ذلك في هذا الأسلوب البديع والطراز الرفيع حث على نصر الرسول الذي ارسله ليظهره على الدين كله فقال جوابا للشرط : (فقد) أي غن لم يتجدد منكم له نصر فإن الله قادر على نصره وسينصره ويغنيه عنكم ولا تضرون إلا أنفسكم فقد) نصره الله) أي الملك الأعظم وحده والأمر في غاية الشدة ، ولا شك عند عاقل ان المستقبل عنده كالماضي) إذ) أي حين) أخرجه الذين (وعبر بالماضي لأن فيهم من أسلم بعد ذلك فقال : (كفروا) أي من مكة وهم في غاية التمالؤ عليه حين شاوروا في قتله أو إخراجه أو إثباته ، فكان ذلك سببا لإذن الله له في الخروج من بينهم حال كونه) ثاني اثنين) أي احدهما أبو بكر رضي الله عنه ولا ثالث لهما ينصرهما إلا الله) إذ هما في الغار (اي غار ثور الذي في أعلى الجبل المواجه للركن اليماني بأسفل مكة على مسيرة ساعة منها لما كمنا به ثلاث ليال لفتر عنهما الطلب ، وذلك قبل ان يصلا إليكم أو يعولا في النصر عليكم) إذ يقول) أي رسول اله (صلى الله عليه وسلم)) لصاحبه (اي أبي بكر الصديق رضي الله عنه وثوقا بربه غير منزعج من شيء) لا تحزن (والحزن : هم غليظ بتوجع يرق له القلب ، حزنه واحزنه." (١)

" صفحة رقم ٤١٦

الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ، يقول أبي هريرة : اقرؤوا إن شئتم) إن قرءان الفجر (– الآيةز قالوا : وهذا دليل على وجوب الصلاة بأول الوقت ، وأن التغليس بصلاة الفجر أفضل ؛ ثم حث بعدها على التهجد لأفضليته وأشديته فقال تعالى : (ومن) أي وعليك بعض ، أو قم بعض) اليل فتهجد) أي اترك الهجود – وهو النوم – بالصلاة) به) أي بمطلق القرآن ، فهو من **الاستخدام** الحسن) نافلة لك) أي زيادة مختصة بك ؛ قال عبد الغافر الفارسي في مجمع الغرائب : وأصل النفل الزيادة ، ومنه الأنفال الزائدة على الغنائم التي أحلها الله لهذه الأمة ، وقال أبو عبد الله القزاز : النوافل : الفواضل ، ومن هذا يقولون : فلان ممن ترجى نوافله – انتهى .

فهو زيادة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الفرض وللأمة في التطوع ، وخص به ترغيبا للأمة لأنهم يعلمون أنه لا يخص إلا بخير الخير ، لأنه الوقت الذي كني فيه عن استجابة الدعاء بالنزول إلى السماء الدنيا اللازم منه القرب الوارد في الأحاديث الصحيحة أنه يكون في حوف الليل ، لأن من عادة الملوكفي الدنيا أن يجعلوا فتح الباب والقرب منه ورفع الستر والنزول عن محل الكبرياء أمارة على قضاء الحوائج ،

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣١٩/٣

وكل ما يعبر به عن الله تعالى مما ينزه سبحانه عن ظاهره يكون كناية عن لازمه ، وبين ذلك حديث رويناه في جزء العبسي عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : (إن في الليل ساهة يفتح فيها أبواب السماء فينادي مناد : هل من داع فيستجاب له ؟) إلى آخرهن فهذا شاهد عظيم لهذا التأويل .

ولما أمره سبحانه بالتهجد والتذلل ، وكان السياق للعظمة رجاء في النوال بما يليق." (١)

" صفحة رقم ٢١

وطمعكما ومبلغكما من العلم ، وليس لهما أكثر من ذا ما لم يعلما ، وأما علمه تعالى فقد أتى من وراء ما يكون – قاله سيبويه في باب من النكرة يجري مجرى ما فيه الألف واللام من المصادر والأسماء .

طه : (٤٥ – ٥٤) قالا ربنا إننا. .. . .

) قالا ربنآ إننا نخاف أن يفرط علينآ أو أن يطغى قال لا تخافآ إنني معكمآ أسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحي إلينآ أن العذاب على من كذب وتولى قال فمن ربكما يموسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السمآء مآء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (( )

ولما كان فرعون في غاية الجبروت ، وكان حلاه حال من يهلكهما إلا أن يمنعهما الله ، وأراد علم ما يكون من ذلك) قالا ربنا) أي ايها المحسن إلينا .

ولما كان مضمون إخبارهما بالخوف مع كونهما من جهة الله – من شأنه أن لا يكون وأن ينكر ، أكد فقالا مبالغين فيه بإظهار النونالثالثة إبلاغا في إظهار الشكوى ليأتي الجبر على قدر ما يظهر من الكسر : (إننا نخاف (لما هو فيه من المكنة) أن يفرط) أي يجعل) علينا (بالعقوبة قبل إتمام البلاغ عجلة من يطفر ويثب إلى الشيء) ون يطغى (فيتجاوز إلى أعظم مما هو فيه من الاستكبار) قال لا تخافا (ثم علل ذلك بما هو مناط النصرة والحيطة للولي والإهلاك للعدو ، فقال مؤكدا إشارة إلى عظم الخبر ، وتنبيها لمضمونه لأنه خارج عن العوائد ، وأثبت النون الثالثة على وزان تأكيدهما : (إنني معكما (لا أغيب كما تغيب الملوك إذا أرسلو رسلهم) سمع و أرى) أي لي هاتان الصفتان ، لا يخفى علي شيء من حال

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤١٦/٤

رسولي ولا حال عدوه ، وأنتما تعلمان ما لا يعلمه غيركما .

ولما تمهد ذلك ، تسبب عنه تعليمهما ما يقولان ، فقا لمؤكدا للذهاب أيضا لما مضى : (فأتياه فقولا) أي له ؛ ولما : ان فرعون ينكر ما تضمنه قولهما ، أكد سبحانه فقال : (إنا (ولما كان التنبيه على معنى المؤازرة هنا – كما تقدم مطلوبا ، ثنى فقال : (رسولا ربك (الذي رباك فأحسن تربيتك بعدج أن أوجدك من العدم ، إشارة إلى تحقيره بأنه من جملة عبيد مرسلها تكذيبا له في ادعائه الربوبية ، ثم سبب عن إرسالكما إليه قولكما : (فأرسل معنا (عبيده) بني إسرائيل (ليعبدوه ، فإنه لا يستحق العبادة غيره) ولا تعذبهم (بما تعذبهم به من **الاستخدام** والتذبيح ؛ ثم علل دعوى الرسالة بما." [(١)]

" صفحة رقم ١٤٢

الجري مع المراد ، وعلى القول بأن هذا في تقدير عامل من لفظ الأول بغير معناه هو قريب من **الاستخدام** الذي يعلو فيه ضمير على لفظ مراد منه معنى آخر ، والآية من الاحتباك : إثبات السجود في الأول دليل على انتفائه في الثاني ، وذكر العذاب في الثاني دليل على حذف الثواب في الأول .

ولما علم بهذا أن الكل جارون مع الإدراة منقادون أتم انقياد تحت طوع المشيئة ، وأنه إنما جعل المر والنهي للمكلفين سببا لإسعاد السعيد منهم وإشقاء الشقي ، لإقامة الحجة عليهم على ما يتعارفونه من أحوالهم فيما بينهم ، كان المعنى : فمن يكرم الله بتوفيقه لا متثال أمره فما له من مهين ، فعطف عليه : (ومن يهن الله) أي الذي له الأمر كله بمنابذة أمره) فما له من مكرم (لأنه لا قدرة لغيره اصلا ، ولعله إنما ذكره وطوى الأول لأن السياق لإظهار القدرة ، وإظهارها في الإهانة أتم ، مع أن أصل السياق للتهديد ؛ ثم علل أن الفعل له لا لغيره بقوله : (إن الله) أي الملك الأعظم) يفعل ما يشاء) أي كله ، فلو جاز أن يمانعه غيره ولو في لحظة لم يكن فاعلا لما يشاء ، فصح أنه لا فعل لغيره ، قال ابن كثير : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن شيبان الرملي نا القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله عنه أنه قيل له : إن ههنا رجلا يتكلم في المشيئة فقال له علي : يا عبد الله خلقك الله كما تشاء أو كما شئت ؟ قالك بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قالك بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف ، وقد مر في سورة يوسف عند

٧٧ ( ) إن الحكم إلا لله عليه توكلت ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢١/٥

[يوسف : ٦٧] ما ينفع هنا .
ولما قسم الناس إلى مخالف ومؤالف ، أتبعه جزاءهم بما يرغب المؤالف ويرهب المخالف على وجه موجب للأمر بالمعروف الذي من جملته الجهاد لوجهه خالصا فقالكك) هذان (اي الساجد والجاحد من جميع الفرق) خصمان (لا يمكن منهما المسالمة الكاملة إذ كل منهما في طرف .
ولما أشار بالتثنية إلى كل فرقة منهم صارت - مع كثرتها وانتشارها باتحاد الكلمة في العقيدة - كالجسد الواحدن صرح بكثرتهم بالتعبير بالجمع فقال : (اختصموا) أي أوقعوا الخصومة بغاية الجهد ، ولما كانت الفرق المذكورة كلها مثبتة وقد جحد أكثرهم النعمة ، قال : (في ربهم) أي الذي هم بإحسانه إليهم معترفون ، لم يختصموا بسبب غيره أصلا ، وحمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب - الذين هم أول من برز للمخاصمة بحضرة رسول الله - صلى الله." [1]
" صفحة رقم ١٥١
ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على مآ أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ٧٣
( ) ٧١
) ذلك) أي الأمر العظيم الكبير ذلك ، فمن راعاه فاز ، ومن حاد عنه خاب ؛ ثم عطف عليه ما هو أعم من هذا المقدر فقال : (ومن (ويجوز أن يكون حالا ، أي أشير إلى الأمر العظيم والحال أنه من) يعظم شعائر الله) أي معالم دين الملك الأعظم التي ندب إليها وأمر بالقيام بها في الحج ، جمع سعيرة وهي المنسك والعلامة في الحج ، والشعيرة أيضا : البدنة المهداة إلى البيت الحرام ، قال البغوي : وأصلها من الإشعار وهو إعلامها ليعرف أنها هدي - انتهى .
ولعله مأخوذ من الشعر لأنها إذا جرحت قطع شيء من شعرها أو ازيل عن محل الجرح ، فيكون من الإزالة ، وتعظيمها استحسانها ، فتعظيمها خير له لدلالته على تقوى قلبه) فإنها) أي تعظيمها) من) أي مبتدىء من) تقوى القلوب (التي من شأنها الشعور بما هو أهل لأن يعظم ، فمعظمها متق ، وقد علم بما ذكرته أنه حذف من هذه جملة الخير ومن قوله) ومن يعظم حرمات الله (سبب كونه خيرا له ، وهو التقوى ، ودل على إرادته هناك بذكره هنا ، وحذف هنا كون التعظيم خيرا ، ودل عليه بذكره هناك ، فقد ذكر في كل جملة ما دل على ما حذف من الأخرى كما تقدم في

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١٤٢/٥

٧٧ ( ) قد كان لكم آية فئتين ( ) ٧

[آل عمران : ٣] في آل عمران ، وأنه يسمى الاحتباك ، وتفسيري للشعائر بما بما ذكرته من الأمر العام جائزا الإرادة ، ويكون إعادة الضمير على نوع منه نوعا من **الاستخدام** ، فقوله : (لكم فيها (مهناه : البدن أو النعم المهداة أو مطلقا) منافع (بالدر والنسل والظهر ونحوه فكلما كانت سمينة حسنة كانت منافعها أكثر دينا ودنيا) إلى أجل مسمى (وهو الموت الذي قدرناه على كل نفس ، أو النحر إن كانت مهداة ، أو غير ذلك ، وهذا تعليل للجملة التي قبله ، فإن المنافع حاملة لذوي البصائر على التفكر فيها لا سيمت مع تفاوتها ، والتفكر فيها موصل إلى التقوى بمعرفة أنها من الله ، وأنه قادر على ما يريد .

وأنه لا شريك له .

ولما كانت هذه المنافع دنيوية ، وكانت منفعة نحرها إذا أهديت دينية ، أشار إلى تعظيم الثاني بأداة التراخي فقال : (ثم محلها) أي وقت حلول نحرها بانتهائكم بها) إلى البيت العتيق) أي إلى فنائه وهو الحرم كما قال تعالى

٧٧ ( ) هديا بالغ الكعبة ( ) ٧

[المائدة : ٩٥] .

ولما كان التقدير : جعل لكم سبحانه هذه الأشياء مناسك ، عطف عليه قوله : (ولكل أمة (اي من الأمم السالفة وغيرها) جعلنا (بعظمتنا الت يلا يصح أن تخالف." (١)

" صفحة رقم ٢٢٤

قولهم : (ربنا (يا من عودنا بالإحسان) أخرجنا منها (اي النار تفضلا منك على عادة فضلك ، وردنا إلى دار الدنيا لنعمل ما يرضيك) فإن عدنا (غلمثل تلك الضلالات) فإنا ظالمون (فاستوئنف جوابهم بأن) قال (لهم كما يقال للكلبك) اخسئووا) أي انزجروا زجر الكلب وانطردوا عن مخاطبيت ساكتين سكوت هوان) فيها) أي النار) ولا تكلمون (اصلا ، فإنكم لستم أهلا لمخاطبتي ، لأنكم لم تزالوا متصفين بالظلم ، ومنه سؤالكم هذا المفهم لأن اتصافكم به لا يكون إلا على تقدير عودكم بعد إخراجكم .

ولما كانت الشماتة أسر السرور للشامت وأخزى الخزي للمشموت به ، علل ذلك بقوله : (إنه كان) أي كنا ثابتا) فريق) أي ناس استضعفتموهم فهان عليكم فراقهم لكم وفراكم لهم وظننتم أنكم تفرقون شملهم

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/١٥١

) من عبادي) أي الذين هم أهل للإضافة إلى جنابي لخلوصهم عن الأهواء) يقولون (مع الاستمرار :) ربنا (أيها المحسن إلينا بالخلق والرزق) آمنا) أي أوقعنا الإيمان بجميع ما جاءتنا به الرسل لوجوب ذلك علينا لأمرك لنا به .

ولما كان عظم المقام موجبا لتقصير العابد ، وكان الاعتراف بالتقصير جابرا له قالوا : (فاغفر لنا (اي استر إيماننا عيوبنا التي كان تقصيرنا بها) وارحمنا (اي افعل بنا فعل الراحم من الخير الذي هو على صورة الحنو والشفقة والعطف .

ولما كان التقدير : فأنت خير الغافرين ، فإنك إذا سترت ذنبا أنسيته لكل أحد حتى للحفظة ، عطف عليه قوله : (وأنت خير الراحمين (لأنك تخلص من رحمته من كل شقاء وهوان ، بإخلاص الإيمان ، والخلاص من كل كفران .

ولما تسبب عن إيمان هؤلاء زيادة كفران أولئك قال : (فاتخذتموهم سخريا) أي موضعا للهزء والتلهي والخدمة لكم ، قال الشهاب السمين في إعرابه : والسخرة – بالضم : **الاستخدام** ، وسخريا – بالضم منها والسخر بدون هاء – الهزء والمكسور منه يعني على القراءتين وفي النسبة دلالة على زيادة قوة في الفعل كالخصوصية والعبودية) حتى أنسوكم) أي لأنهم كانوا السبب في ذلك بتشاغلكم بالاستهزاء بهم واستبعادهم) ذكري) أي أن تذكروني فتخافوني بإقبالكم بكليتكم على ذلك منهم .

ولما كان التقدير : فتركتموه فلم تراقبوني في أوليائي ، عطف عليه قوله : (وكنتم) أي بأخلاق هي كالجبلة) منهم (اي خاصة) تضحكون (كأنهم لما صرفوا قواهم إلى الاستهزاء بهم عد ضحككم من غيرهم عدما ..". (١)

" صفحة رقم ٢٨٢

وتحقيقا لما ألزم به من الطاعة ، ولزوم السنة والجماعة ، فقال واصلا بما ختم به الأحكام الأولى ، من الأمر بإنكام الأيامى ، والكف عن إكراه البغايا ، إثر الذين لم يظهروا على عورات النساء : (يا أيها الذين آمنوا) أي من ا لرجال والنساء ، إما للتغليب ، وإما لأن النساء أولى بحفظ العورة) ليستأذنكم (تصديقا لدعوى الإيمان) الذين ملكت أيمانكم (من العبيد والإماء البالغين ، ومن قاربهم ، للدخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والتطرق بذلك إلى مساءتكم) والذين (ظهروا على عورات ا لنساء ، ولكنهم) لم يبلغوا الحلم (وقيده بقوله : (منكم (ليخرج الأرقاء والكفار) ثلاث مرات (في كل دور ، ويمكن أن

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٢٢٤

يرادك ثلاث استئذانات في كل مرة ، فإن لم يحصل الإذن رجع المستأذن كما تقدم : المرة الأولى من الأوقات الثلاث) من قبل صلاة الفجر (لأنه وقت اقيام من امضاجع وطرح ثياب النوم) و (الثانية) حين تضعون ثيابكم) أي التي للخروج بين الناس) من الظهيرة (للقائلة) و (الثالثة) من بعد صلاة العشاء (لأنه وقت الانفصال من ثياب اليقظة ، والاتصال بثياب النوم ، وخص هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة ، ووضع الثياب ، وأثبت من في الموضعين دلالة على قرب الزمن من الوقت المذكور لضبطه ، وأسقطها في الأوسط دلالة على استغراقه لأنه غير منضبط ، ثم علل ذلك بقوله : (ثلاث عورات) أي اختلالات في التستر والتحفظ ، وأصل العورة – كما قال البيضاوي : الخلل .

لأنه لما كانت العورة تبدو فيها سميت بها) لكم (لأنها ساعات وضع الثياب والخلوة بالأهل ، وبين حكم ما عدا ذلك بقوله مستأنفا : (ليس عليكم) أي في ترك الأمر) ولا عليهم (يعني العبيد والخدم والصبيان ، في ترك الاستئذان في كل وقت كما مضى بقوله : (طوافون عليكم) أي لعمل ما تحتاجونه في الخدمة كما أنتم طوافون عليهم لعمل ما يصلحهم ويصلحكم في **الاستخدام**) بعضكم (طواف) على بعض (لعمل ما يعجز عنه الآخر أو يشق عليه فلو عم الأمر بالاستئذان لأدى إلى الحرج .

ولما أعلى سبحانه البيان في هذه الآيات إلى حد يعجز الإنسان لا سيما وهي في الأحكام ، والكالم فيها يعيي أهل البيان ، وكان السامع لما جبل عليه منالنسيان ، يذهل عن أن هذا هو الشأن ، في جميع القرآن ، قال مشيرا إلى عظم شأنها ، في تفريقها وبيانها : (كذلك (اي مثل هذا البيان) يبين الله (بما له من إحاطة العم والقدرة) لكم (أيتها الأمة الخاصة) الآيات (في الأحكام وغيرها وبعلمه وحكمته) والله (الذي." (١)

" صفحة رقم ٤٧

بالاستواء : (يدبر الأمر) أي كل أمر هذا العالم بأن يفعل في ذلك فعل الناظر في أدباره لإتقان خواتمه ولوازمه ، كما نظر في إقباله لإحكام فواتحه وعوازمه ، لا يكل شيئا منه إلى شيء من خلقه ، قال الرازي في اللوامع : وهذا دليل على أن استواؤه على العرش بمعنى إظهار القدرة ، والعرش مظهر التدبير لا قعر المدبر .

ولما كان المقصود للعرب إنما هو تدبير ما تمكن مشاهدتهم له من العالم قال مفردا : (من السماء) أي فينزل ذلك الأمر الذي أتقنه كما يتقن من ينظر في أدبار ما يعلمه) إلى الأرض (غير متعرض إلى ما فوق

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٨٢/٥

ذلك ، على السماء تشمل كل عال فيدخل جميع العالم .
ولما كان المقصود أشق من النزول على ما جرت به العوائد ، فكان بذلك مستبعدا ، أشار إلى ذلك بقوله : (ثم يعرج) أي يصعد الأمر الواحد – وهو من **الاستخدام** الحسن – إليه ، أي بصعود الملك إلى الله ، أي إلى المواضع الذي شرفه أو أمره بالكون فيه كقوله تعالى :
٧٧ ( ) إني ذاهب إلى ربي ( ) ٧
[الصافات : ٩٩]
٧٧ ( ) ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ( ) ٧
[النساء : ١٠٠] ونحو ذلك ، أو إلى الموضع الذي ابتدأ منه نزول التدبير وهو السماء وكأنه صاعد في معارج ، وهي الدرج على ما تتعارفون بينكم ، في أسرع من لمح البصر) في يوم (من أيام الدنيا) كان مقداره (لو كان الصاعدين واحدا منكم واحدا ما تعهدون) ألف سنة مما تعدون (من سنيكم التي تعهدون ، والذي دل على هذا التقدير شيء من العرف وشيء من اللفظ ، أما اللفظ فالتعبير ب (كان) مع انتظام الكلام بدونها لو أريد غير ذلك ، وأما العرف فهو أن الإنسان المتمكن يبني البيت العظيم العالي في سنة مثلا ، فإذا فرغه صعد إليه خادمه إلى أعلاه في أقل من درجتين من درج الرمل ، فلا تكون نسبة ذلك من زمن بنائه إلا جزءا لا يعد ، هذا وهو خلق محتاج فما ظنك بمن خلق الخلق في ستة أيام وهو غني عن كل شيء قادر على كل شيء وظاهر العبارة أن هذا التقدير بالألف لما بين السماء والأرض بناء على أن البداية والغاية لا يدخلان ، فإذا أردنا تنزيل هذه الآية على أية سأل أخذنا هذا بالنسبة إلى صعود أحدنا مستويا لو أمكن ، وجعلت الأرض واحدة في العدد ، وأول تعددها كما قيل باعتبار الأقاليم ، وزيد عليه مقدار ثخن السماوات وما بينهما ، وزيد على المجموع مثل نصفه لمسافة الانحناء في بناء الدرج والتعريج الذي هو مثل محيط الدائرة بالوتر الذي قسمها بنصفين ليمكن الصعود منا ، وهو مقدار نصف مسافة الاستواء وشيء يسير ، لأنك إذا قسمت دائرة بوتر كان ما بين رأسي الوتر من محيط نصف الدائرة بمقدار ذلك الوتر مرة ونصفا سواء يزاد عليه يسير لأجل تعاريج الدرج ، فإذا فعلنا ذلك كان ما بين أحد سطحي الكرسي." (١)

" صفحة رقم ٢١٠
المختار زيادة لولاها لكان عمره أقصر مما وصل إليه) ولا بنقص من عمره) أي المعمر بالقوة وهو الذي

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٧/٦

كان قابلا في العادة لطول العمر فلم يعمر بنقص الفاعل المختار نقصا لولاه لطال عمره ، فالمعمر المذكور المراد به الفعل ، والذي عاد إليه الضمير المعمر بالقوة فهو من بديع **الاستخدام** ، ولو كان التعبير بأحد لما صح هذا المعنى ، وقراءة يعقوب بخلاف عن رويس بفتح الياء وضم القاف بالبناء للفاعل تشير إلى أن قصر العمر أكثر .

ولما كان في سياق العلم وكان أضبطه في مجاري عاداتنا ما كتب قال : (إلا في كتاب (مكتوب فيه (عمر فلان كذا وعمر فلان كذا وكذا ، عمر فلان كذا إن عمل كذا وعمره كذا أزيد أو أنقص إن لم يعلمه) .

ولما كان ذلك أمرا لا يحيط به العد ، ولا يحصره الحد ، فكان في عداد ما ينكره الجهلة ، قال مؤكدا لسهولته : (إن ذلك) أي الأمر العظيم من كتب الآجال كلها وتقديرها والإحاطة بها على التفصيل) على الله) أي الذي له جميع العزة فهو يغلب كل ما يريده ، خاصة) يسير (ولما ذكر سبحانه أحد أصليهم : التراب المختلف الأصناف ، ذكر الأصل الآخر : الماء الذي هو أشد امتزاجا من التراب ، ذاكرا اختلاف صنفية اللذين يتفرعان إلى أصناف كثيرة ، منبها على فعله بالاختيار ومنكرا على من سوى بينه سبحانه وبين شيء حتى أشركه به مع المباعدة التي لا شيء بعدها والحال أنه يفرق بين هذه الأشياء المحسوسة لمباعدة ما فقال : (وما يستوي البحران (ولما كانت الألف واللام للعهد ، بينه بقوله مشيرا إلى الحلو : (هذا عذاب) أي طيب حلو لذيذ ملائم للطبع) فرات) أي بالغ العذوبة) سائغ شرابه) أي هنيء مريء بحيث إذا شرب جاز في الحلق ولم يتوقف بل يسهل إدخاله فيه وابتلاعه لما له من اللذة والملاءمة للطبع) وهذا ملح أجاج) أي جمع إلى الملوحة المرارة ، فلا يسوغ شرابه ، بل لو شرب لآلم الحلق وأجج في البطن ما هو كالنار ، والمراد أمه ميزهما سبحانه بعد جمعهما في ظاهر الأرض وباطنها ، ولم يدع أحدهما يبغي على الآخر ، بل إذا حفر عل جانب البحر الملح ظهر الماء عذبا فراتا على مقدار صلاح الأرض وفسادها .

ولما كان الملح متعذرا على الآدمي شربه ، ذكر أنه خلق فيه ما حياته به مساويا في ذلك للعذب فقال : (ومن كل) أي من الملح والعذب) تأكلون (من السمك المنوع إلى أنواع تفوت الحصر وغير السمك) لحما طريا) أي شهي المطعم ، ولم يضر ما بالملح ما تعرفون من أصله ولا زلد في لذة ما بالحلو ملاءمته لكم .

ولما ذكر من متاعه ما هو غاية في اللين ، أتبعه من ذلك ما هو غاية في الصلابة فقال : (وستتخرجون (أي." (١)

" صفحة رقم ٢٥

إلى أنها تأبى المشاركة في شيء وتقتضي التفرد : (نحن قسمنا) أي بما من العظمة) بينهم) أي في الأمر الذي يعمهم ويوجب تخصيص كل منهم بما لديهم) معيشتهم (التي يعدونه رحمة ويقصرون عليها النعمة) في الحياة الدنيا (التي هي أدنى الأشياء عندنا ، وإشار إلى أنها حياة ناقصة لا يرضاها عاقل ، وأما الآخرة فعبر عنها بالحيوان لأنا لو تركنا قسمها إليهم لتعاونوا على ذلك فلم يبق منهم أحد فكيف يدخل في الوهم أن يجعل إليهم شيئا من الكلام في أمر النبوة التي هي روح الوجود ، وبها سعادة الدارين : (ورفعنا (بما لنا من نفوذ الأمر) بعضهم (وإن كان ضعيف البدن قليل العقل) فوق بعض (وإن كان قويا عزيز العقل) درجات (في الجاه والمال ونفوذ الأمر وعظم القدر لينتظر حال الوجود ، فإنه لا بد في انتظامه من تشارك الموجودين وتعاونهم ، تفاوتنا بينهم في الجثث والقوى والهمم ليقتسموا الصنائع ، والمعارف والبضائع ، ويكون كل ميسر لما خلق له ، وجانحا إلى ما هي له لتعاطيه ، فلم يقدر أحد من دنيء أو غني أن يعدو قدره وترتقي فوق منزلته .

ولما ذكر ذلك ، علله بما ثمرته عمارة الأرض فقال : (ليتخذ) أي بغاية جهده) بعضهم بعضا (ولما كان المراد هنا **الاستخدام** دون الهزء لأنه لا يليق التعليل به ، أجمع القراء على ضم هذا الحرف هنا فقال : (سخريا) أي أن يستعمله فيما ينوبه أو يتعسر أو يتعذر عليه مباشرته ويأخذ للآخر منه من المال ما هو مفتقر إليه ، فهذا بماله ، وهذا بأعماله ، وقد يكون الفقير أكمل من الغني ليكمل بذلك نظام العالم لأنه لو تساوت المقادير لتعطلت المعايش ، فلم يقدر أحد أن ينفك عما جعلناه إليه من هذا الأمر الدنيء فكيف يطمعون في الاعتراض في أمر النبوة ، أيتصور عاقل أن يتولى قسم الناقص ونكل العالي إلى غيرنا ، قال ابن الجوزي : فإذا كانت الأرزاق بقدر الله لا بحول المحتال وهي دون النبوة فكيف تكون النبوة - انتهى .

وهذا هو المراد بقوله تعالى صارفا القول عن مظهر العظمة والسلطان إلى الوصف بالإحسان إظهارا لشرف النبي (صلى الله عليه وسلم)) ورحمة ربك) أي المربي لك ولمدبر لأمرك بإرسالك وإنارة الوجود برسالتك التي هي لعظمتها جديرة بأن تضاف إليه ولا يسمى غيرك رحمة) خير مما يجمعون (من الحطام الفاني

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٢١٠

فإنه وإن تأتي فيه خير باستعماله في وجوه البر بشرطه ، فهذا بالنسبة إلى النبوة ، وما قارنا مما دعا إلى الإعراض عن الدنيا متلاش .

الزخرف : (٣٣ - ٣٩) ولولا أن يكون. .. . .

) ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ومن يعش عن ذكر." (١)

" صفحة رقم ٤١٠

البغوي من طريق النسائي عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام) .

الواقعة : (٣٥ - ٤٦) إنا أنشأناهن إنشاء

) إنآ أنشأناهن إنشآء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين وأصحاب الشمال مآ أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم (( )

ولما كانت النساء يسمين فرشا ، قال تعالى معيدا للضمير على غير ما يتبادر إليه الذهن من الظاهر على طريق **الاستخدام** مؤكدا لأجل إنكار من ينكر البعث : (إنا) أي بما لنا من القدرة والعظمة التي لا يتعاظمها شيء) أنشأناهن) أي الفرش التي معناها النساء من أهل الدنيا بعد الموت ولو عن الهرم والعجز بالبعث ، وزاد في التأكيد فقال : (إنشاء) أي من غير ولادة ، بل جمعناهن من التراب كما فعلنا في سائر المكلفين ليكونوا كأبيهم آدم عليه الصلاة والسلام في خلقه من تراب ، فتكون الإعادة كالبداءة ، ولذلك يكون الكل عند دخول الجنة على شكله عليه الصلاة والسلام ، ويجوز أن يكون المراد بهن الحور العين فيكون إنشاء مبتدعا لم يسبق له وجود .

ولما كان للنفس أتم التفات إلى الاختصاص ، وكان الأصل في الأنثى المنشأة أن تكون بكرا ، نبه على أن المراد بكارة لا تزول إلا حال الوطيء ثم تعود ، فكلما عاد إليها وجدها بكرا ، فقال : (فجعلناهن) أي الفرش الثيبات وغيرهن بعظمتنا المحيطة بكل شيء) أبكارا) أي بكارة دائمة لأنه لا تغيير في الجنة ولا نقص .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٥/٧

ولما كان مما جرت به العادة أن البكر تتضرر من الزوج لما يلحقها من الوجع بإزالة البكارة ، دل على أنه لا نكد هناك أصلا بوجع ولا غيره بقوله : (عربا (جمع عروب ، وهي الغنجة المتحببة إلى زوجها ، قال الرازي في اللوامع : الفطنة بمراد الزوج كفطنة العرب .
ولما كان الاتفاق في السن أدعى إلى المحبة ومزيد الألفة قال : (أترابا) أي على سن واحدة وقد واحد ، بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن .
قال الرازي في اللوامع : أخذ من لعب الصبيان بالتراب – انتهى ، وروى البغوي من طريق عبد بن حميد عن الحسن : قال أتت عجوز النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : (يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز) ، فولت تبكي ، (قال : أخبرها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : إنا أنشأناهن ، الآية) رواه الترمذي عنه في الشمائل هكذا مرسلا ، ورواه البيهقي في كتاب البعث عن عائشة رضي." (١)
" صفحة رقم ٣١١
ولما ذكر الصيحة الأولى ، أتبعها الثانية حالا منها دلالة على قربها قربا معنويا لتحقق الوقوع ، ولأن ذلك كله في حكم يوم واحد ، فصح مجيء الحال وإن بعد زمنه من زمن صاحبه فقال : (تتبعها الرادفة) أي الصيحة التابعة لها التي يقوم بها جميع الأموات وتجتمع الرفات ، وتضطرب من هولها الأرض والسماوات ، وتدك الجبال ويعظم الزلزال ، ويكون عنها التسيير بعد المصير إلى الكثيب المهيل ، ونحو ذلك من الأمر الشديد الطويل ، قال حمزة الكرماني : روى السدي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحياة فينبتون منه كما ينبت الزرع من الماء ، حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيها الروح ثم يلقى عليهم نومة فبينما هم في قبورهم نفخ في الصور ثانية فجلسوا وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم .
ولما ذكر البعث ، ذكر حال المكذب به لأن السياق له ، فقال مبتدئا بنكرة موصوفة : (قلوب يومئذ) أي إذ قام الخلائق بالصيحة التابعة للأولى) واجفة) أي شديدة الاضطراب ، وكان قد يخفى سببه لكونه قد يكون عند السرور العظيم كما قد يكون عند الوجل الشديد ، أخبر عنه بما يحقق معناه فقال : (أبصارها) أي أبصار أصحابها فهو من **الاستخدام**) خاشعة) أي ذليلة ظاهر عليها الذل واضطراب القلوب من سوء الحال ولذلك أضافها إليها .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٤١٠

ولما وصفها بالاضطراب الذل ، علله ليعرف منه أن من يقول ضد قولهم يكون له ضد وصفهم من الثبات والسكون والعز الظاهر فقال : (يقولون) أي في الدنيا قولا يجددونه كل وقت من غير خوف ولا استحياء استهزاء وإنكارا .

) إنا لمردودون) أي بعد الموت ممن يتصف بردنا كائنا من كان) في الحافرة) أي في الحياة التي كنا فيها قبل الموت هي حالتنا الأولى ، من قولهم : رجع فلان في حافرته ، أي طريقته التي جاء بها فحفرها أي أثر فيها بمشيه كما تؤثر الأقدام ، والحوافر في الطرق ، أطلق على المفعولة فاعلة مبالغة وذلك حقيقته ، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم رجع إليه : رجع إلى حافرته ، وقيل : الحافرة الأرض التي هي محل الحوافر .

ولما وصف قلوبهم بهذا الإنكار الذي ينبغي لصاحبه أن يذوب منه خجلا إذا فرط منه مرة واحدة ، وأشار إلى شدة وقاحتهم بتكريره ، أتبعه التصريح بتكريرهم له على وجه مشير إلى العلة الحاملة لهم على قوله وهو قولهم : (أإذا كنا) أي كونا صار جبلة لنا) عظاما نخرة) أي هي في غاية الانتخار حتى تفتتت ، فكان الانتخار وهو البلى." [١]

"أو أكمل حالا ؛ لأن الله جعل لهم ملكا ما ، قال : ﴿أما السفينة فكانت لمساكين﴾ [الكهف : ٧٩] وهو قول الشافعي وغيره.

فصل إنما تأخرت درجتهم عن اليتامى ؛ لأن المسكين قد ينتفع به في **الاستخدامن** فكان الميل إلى مخالطته أكثر من الميل إلى مخالطة اليتامى ، وأيضا المسكين يمكنه الاشتغال بتعهد نفسه ، ومصالح معيشته ، واليتيم ليس كذلك ، فلا جرم قدم الله ذكر اليتيم على المسكين.

قال : عليه الصلاة والسلام : " الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله . وأحسبه قال . وكالقائم لا يفتر من صلاة وكالصائم لا يفطر ".

قال ابن المنذر : كان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله.

قوله : " وقولوا للناس حسنا " هذه الجملة عطف على قوله : " لا تعبدون " في المعنى , كأنه قال : لا تعبدوا إلا الله ، وأحسنوا بالوالدين وقولوا ، أو على " أحسنوا " المقدر ، كما تقدم تقريره في قوله تعالى : " وبالوالدين إحسانا ".

وأجاز أبو البقاء أن يكون معمولا لقول محذوف تقديره : وقلنا لهم : قولوا.

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣١١/٨

وقرأ حمزة والكسائي : " حسنا " بفتحتين ، و " حسنا " بضمتين ، و " حسنى " من غير تنوين ك " حبلى " و " إحسانا " من الرباعي.

فأما من قرأ : " حسنا " بالضم والإسكان ، فيحتمل أوجها : أحدها - وهو الظاهر - أنه مصدر وقع صفة لمحذوف تقديره : وقولوا للناس حسنا أي : ذا حسن.

الثاني : أن يكون وصف به مبالغة كأنه جعل القول نفسه حسنا.

الثالث : أنه صفة على وزن " فعل " ، وليس أصله المصدر ، بل هو كالحلو والمر ، فيكون بمعنى " حسن " بفتحتين ، فيكون فيه لغتان : حسن وحسن ك " البخل والبخل ، والحزن والحزن ، والعرب والعرب ".

الرابع : أنه منصوب على المصدر من المعنى ، فإن المعنى : وليحسن قولكم حسنا.

وأما قراءة : " حسنا " بفتحتين فصفة لمصدر محذوف تقديره : قولا حسنا ، كما تقدم في أحد أوجه " حسنا ".

وأما " حسنا " بضمتين ، فضمة السين لإتباع الحاء ، فهو بمعنى " حسنا " بالسكون ، وفيه الأوجه المتقدمة.

وأما " حسنى " بغير تنوين فمصدر ك " البشرى والرجعى ".

وقال النحاس في هذه القراءة : ولا يجوز هذا في العربية ، لا يقال من هذا شيء إلا بالألف واللام ، نحو : الكبرى والفضلى.

هذا قول سيبويه ، وتابعه ابن عطية على هذا ، فإنه قال : ورده سيبويه ؛ لأن " أفعل " و " فعلى " لا يجيء إلا معرفة إلا أن يزال عنها معنى التفضيل ، ويبقى مصدرا ك " العقبى " ، فذلك جائز ، وهو وجه القراءة بها.

انتهى وناقشه أبو حيان وقال : في كلامه ارتباك ؛ لأنه قال : لأن " أفعل " و " فعلى " لا يجيء إلا معرفة ، وهذا ليس بصحيح.

أما " أفعل " فله ثلاثة استعمالات.

أحدها : أن يكون معها " من " ظاهرة أو مقدرة ، أو مضافا إلى نكرة ، ولا يتعرف في هذين بحال.

الثاني : أن تدخل عليه " أل " فيتعرف بها.

الثالث : أن يضاف إلى معرفة فيتعرف على الصحيح.

وأما " فعلى " فلها استعمالان : أحدهما : بالألف واللام.

والثاني : الإضافة لمعرفة ، وفيها الخلاف السابق.

وقوله : " إلا أن يزال عنها معنى التفضيل ، وتبقى مصدرا " ظاهر هذا أن " فعلى " أنثى " أفعل " إذا زال عنها معنى التفضيل تبقى مصدرا وليس كذلك ، بل إذا زال عن " فعلى " أنثى " أفعل " معنى التفضيل صارت بمنزلة الصفة التي لا تفضيل فيها ؛ ألا ترى إلى تأويلهم "كبرى " بمعنى كبيرة ، " وصغرى " بمعنى صغيرة ، وأيضا فإن " فعلى " مصدر لا ينقاس ، إنما جاءت منها الألفاظ ك " العقبى والبشرى " ثم أجاب الشيخ عن هذا الثاني بما معناه أن الضمير في قوله : " عنها " عائد إلى " حسنى " لا إلى " فعلى " أنثى " أفعل " ، ويكون استثناء منقطعا كأنه قال : إلا أن يزال عن " حسنى " التي قرأ بها أبي معنى التفضيل ، ويصير المعنى : إلا أن يعتقد أن " حسنى " مصدر لا أنثى " أفعل ".

وقوله : " وهو وجه القراءة بها " أي والمصدر وجه القراءة بها.

وتخريج هذه القراءة على وجهين : أحدهما : المصدر ك " البشرى " وفيه الأوجه المتقدمة في " حسنا " مصدرا ، إلا أنه يحتاج إلى إثبات " حسنى " مصدرا من قول العرب : حسن حسنى ، كقولهم : رجع رجعى ، إذا مجيء " فعلى " مصدرا لا ينقاس.

والوجه الثاني : أن تكون صفة لموصوف محذوف ، أي : وقولوا للناس كلمة حسنى ، أو مقالة حسنى ، وفي الوصف بها حينئذ وجهان : أحدهما : أن تكون للتفضيل ، ويكون قد شذ استعمالها غير معرفة ب " أل " ، ولا مضافة إلى معرفة ، كما شذ قوله : [البسيط] ٦٢١. وإن دعوت إلى جلى ومكرمة

يوما سراة كرام الناس فادعينا

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

وقوله : [الرجز]

٦٢٢. في سعي دنيا طالما قد مدت

." (١)

"وهذا الضلال الذي جعلوه كالعلة في إقدامهم على التكذيب إن كان هو نفس التكذيب لزم تعليل الشيء بنفسه ، وهو باطل ، فلم يبق إلا أن يكون ذلك الضلال (عبارة عن شيء آخر ترتب عليه فعلهم ، وما ذلك إلا خلق الداعي إلى الضلال).

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٢٧٢

ثم إن القوم لما اعتذروا بهذين العذرين ، قالوا : ﴿ربنآ أخرجنا منها﴾ أي : من النار " فإن عدنا " لما أنكرنا " فإنا ظالمون " فعند ذلك أجابهم الله تعالى فقال : ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾.

فإن قيل : كيف يجوز أن يطلبوا الخروج وقد علموا أن عقابهم دائم ؟ قلنا : يجوز أن يلحقهم السهو عن ذلك في أحوال شدة العذاب فيسألون الرجعة.

ويحتمل أن يكون مع علمهم بذلك يسألون على وجه الغوث والاسترواح.

قوله : " اخسئوا فيها " أقيموا فيها ، كما يقال للكلب إذا طرد اخسأ ؛ أي : انزجر كما تنزجر الكلاب إذا زجرت ، يقال : خسأ الكلب وخسأ بنفسه.

" ولا تكلمون " في رفع العذاب فإني لا أرفعه عنكم ، وليس هذا نهيا ، لأنه لا تكليف في الآخرة.

قال الحسن : هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ، ثم لا يتكلمون بعده إلا الشهيق والزفير.

ويصير لهم عواء كعواء الكلب لا يفهمون ولا يفهمون.

قوله تعالى : ﴿إنه كان فريق من عبادي﴾ الآية.

العامة على كسر همزة (إنه) استئنافا.

وأبي والعتكي : بفتحها أي : لأنه والهاء ضمير الشأن.

قال البغوي : الهاء في إنه عماد ، وتسمى المجهولة أيضا.

قوله : " فاتخذتموهم سخريا " قرأ الأخوان ونافع هنا وفي ص بكسر السين.

والباقون : بضمها في الموضعين.

و(سخريا) مفعول ثان للاتخاذ.

واختلف في معناها فقال الخليل

٢٦٤

وسيبويه والكسائي وأبو زيد : هما بمعنى واحد نحو دري ودري ، وبحر لجي ولجي بضم اللام وكسرها.

وقال يونس : إن أريد الخدمة والسخرة فالضم لا غير ، وإن أريد الهزء فالضم والكسر ورجح أبو علي وتبعه مكي قراءة الكسر ، قالا : لأن ما بعدها أليق لها لقوله : ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾.

ولا حجة فيه ، لأنهم جمعوا بين الأمرين سخروهم في العمل ، وسخروا منهم استهزاء.

والسخرة بالتاء **الاستخدام** وسخريا بالضم منها ، والسخر بدونها الهزء والمكسور منه ، قال الأعشى :

٣٨١٣ - إني أتاني حديث لا أسر به

من علو لا كذب فيه ولا سخر

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٢٦٢

ولم يختلف السبعة في ضم ما في الزخرف ، لأن المراد **الاستخدام** ، وهو يقوي قول من فرق بينهما ، إلا أن ابن محيصن وابن مسلم وأصحاب عبد الله كسروه أيضا ، وهي مقوية لقول من جعلهما بمعنى والياء في سخريا وسخريا للنسب زيدت

٢٦٥

للدلالة على قوة الفعل ، فالسخري أقوى من السخر ، كما قيل في الخصوص خصوصية دلالة على قوة ذلك.

قال معناه الزمخشري.

فصل اعلم أنه تعالى قرعهم بأمر يتصل بالمؤمنين قال مقاتل : إن رؤوس قريش مثل أبي جهل ، وعقبة وأبي بن خلف ، كانوا يستهزؤون بأصحاب محمد ، ويضحكون بالفقراء منهم ، كبلال ، وخباب ، وعمار ، وصهيب ، والمعنى : اتخذتموهم هزوا " حتى أنسوكم " بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ﴿ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾ ونظيره : ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ [المطففين : ٢٩] ثم إنه تعالى ذكر ما يوجب أسفهم وخسرانهم بأن وصف ما جازى به أولئك فقال : ﴿جزيتهم اليوم بما صبروا ا﴾ أي : جزيتهم اليوم الجزاء الوافر.

قوله : ﴿أنهم هم الفآئزون﴾ قرأ الأخوان بكسر الهمزة ، استئنافا.

والباقون بالفتح ، وفيه وجهان : أظهر ه ما : أنه تعليل فيكون نصبا بإضمار الخافض أي : لأنهم هم الفائزون ، وهي موافقة للأولى فإن الاستئناف يعلل به أيضا.

والثاني : قاله الزمخشري ، ولم يذكر غيره ، أنه مفعول ثان لـ " جزيتهم " أي : بأنهم أي : فوزهم وعلى الأول يكون المفعول الثاني محذوفا.

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٢٦٢

". (١)

"قوله : ﴿ولما جآءهم الحق﴾ وهو القرآن ﴿قالوا هذا سحر وإنا به كافرون وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ هذا نوع آخر من كفر آبائهم ، وهو أنهم قالوا : منصب الرسالة منصب

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٣٧٨٨

شريف فلا يليق إلا برجل شريف ، وصدقوا في ذلك ، إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة ، وهو أن الرجل الشريف عندهم هو الذي يكون كثير المال والجاه ، ومحمد ليس كذلك ، فلا تليق رسالة الله به ، وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه ، كثير المال ، يعنون الوليد بن المغيرة بمكة ، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف.

قاله قتادة.

وقال مجاهد : عتبة بن ربيعة من مكة وعبد ياليل الثقفي من الطائف.

وعن ابن عباس . (رضي الله عنهما) . هو الوليد بن المغيرة من مكة ، ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي وقيل : من إحدى القريتين.

وقيل : المراد عروة بن مسعود الثقفي كان بالطائف وكان يتردد بين القريتين فنسب إلى كليهما.

وقرىء : رجل بسكون العين ، وهي تميمية.

قوله : ﴿يقسمون رحمة ربك﴾ يعنى النبوة.

والهمزة للإنكار.

وهذا إبطال لشبهتهم وتقريره من وجوه : الأول : أنا إذا أوقعنا التفاوت في مناصب الدنيا ، ولم يقدر أحد من الخلق على التفسير ، فالتفاوت الذي أوقعناه في مناصب الدين والنبوة بأن لا يقدروا على التصرف أولى.

الثاني : إن اختصاص ذلك المعنى ذلك الرجل إنما كان لأجل حكمنا وفضلنا وإحساننا فيكف يليق بالعقل أن يجعل إحسانا إليه بكثرة المال حجة علينا في أن يحسن إليه بالنبوة ؟ .

الثالث : أنا إنما أوقعنا التفاوت في الإحسان بمنافع الدنيا لا بسبب سابق فلم لا يجوز أيضا أن يوقع التفاوت في الإحسان بمناصب الدين والنبوة لا لسبب سابق ؟ !.

ثم قال : ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ فجعلنا هذا غنيا وهذا فقيرا ،

٢٥٤

وهذا مالكا ، وهذا مملوكا ، كما فضلنا بعضهم على بعض في الرزق كما شئنا ، كذلك اصطفينا بالرسالة من شئنا ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ في القوة والضعف ، والعلم ، والجهل ، والغنى ، والفقر لأن لو سويناهم في كل هذه الأحوال ، لم يخدم أحد أحدا ، ولم يصر أحد منهم مسخرا لغيره.

وحينئذ يخرب العالم ويفسد نظام الدنيا.

وقوله : ﴿ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ أي ليستخدم بعضهم بعضا ، فيسخر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء بالعمل فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش هذا بماله وهذا بأعماله فيلتئم قوام العالم.

وقد مضى الكلام في سخريا في المؤمنين.

وقرأ بالكسر هنا عمرو بن ميمون ، وابن محيصن ، وأبو رجاء وابن أبي ليلى ، والوليد بن مسلم ، وخلائق بمعنى المشهورة وهو **الاستخدام**.

ويبعد قول بعضهم : إنه استهزاء الغني بالفقير.

ثم قال : " ورحمة ربك " يعني الجنة " خير للمؤمنين " مما يجمع الكفار من الأموال.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٥٣

قوله تعالى : ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ اعلم أنه تعالى أجاب ههنا بوجه ثالث عن شبهتهم بتفضيل الغني على الفقير ، وهو أنه تعالى بين أن منافع الدنيا وطيباتها حقير خسيسة عند الله تعالى وبين حقارتها بقوله : ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ والمعنى لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة من الخير والرزق لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للنعم فأحدها : أني كون سقفهم من فضة.

وثانيها : مع : ارج عليها يظهرون أي يعلون ويرتقون ، يقال : ظهرت على السطح إذا علوته.

٢٥٥

". (١)

"ولما كان الرؤساء ضلالا في أنفسهم وأضلوا اتباعهم ، ناسب أن يدعو عليهم بأن يزيدهم ضعفا ، كما جاء : فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فعلى هذا الضمير في قوله : ﴿قالوا ﴾ للاتباع ، ومن قدم : هم الرؤساء. وقال ابن السائب : ﴿قالوا ربنا﴾ إلى آخره ، قول جميع أهل النار. وقال الضحاك : ﴿من قدم﴾ ، هو إبليس وقابيل. وقال ابن مسعود : الضعف حيات وعقارب. ﴿وقالوا ﴾ : أي أشراف الكفار ، ﴿ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار﴾ : أي الأرذال الذين لا خير فيهم ، وليسوا على ديننا ، كما قال : ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ . وروي أن القائلين من كفار عصر الرسول/ صلى الله عليه وسلم ، هم : أبو جهل ، وأمية بن خلف ، وأصحاب القليب ، والذين لم يروهم : عمار ، وصهيب ، وسلمان ، ومن جرى مجراهم ، قاله مجاهد وغيره. قيل : يسألون أين عمار ؟ أين صهيب ؟ أين فلان ؟ يعدون ضعفاء المسلمين فيقال لهم : أولئك في الفردوس. وقرأ النحويان ، وحمزة : أين صهيب ؟ أين فلان

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٤٩٠

؟ يعدون ضعفاء المسلمين فيقال لهم : أولئك في الفردوس. وقرأ النحويان ، وحمزة : اتخذناهم وصلا ، فقال أبو حاتم ، والزمخشري ، وابن عطية : صفة لرجال. قال الزمخشري : مثل قوله : ﴿كنا نعدهم من الاشرار﴾ . وقال ابن الأنباري : حال ، أي وقد اتخذناهم. وقرأ أبو جعفر ، والأعرج ، والحسن ، وقتادة ، وباقي السبعة : بهمزة الاستفهام ، لتقرير أنفسهم على هذا ، على جهة التوبيخ لها. والأسف ، أي اتخذناهم سخريا ، ولم يكونوا كذلك. وقرأ عبد الله ، وأصحابه ، ومجاهد ، والضحاك ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعرج ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : سخريا ، بضم السين ، ومعناها : من السخرة **والاستخدام**. وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، وعيسى ، وابن محيصن ، وباقي السبعة : بكسر السين ، ومعناها : المشهور من السخر ، وهو الهزء. قال الشاعر :

إني أتاني لسان لا أسر بهامن علو لا كذب فيها ولا سخر

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٩٩

وقيل : بكسر السين من التسخير. وأم إن كان اتخذناهم استفهاما إما مصرحا بهمزته كقراءة من قرأ كذلك ، أو مؤولا بالاستفهام ، وحذفت الهمزة للدلالة. فالظاهر أنها متصلة لتقدم الهمزة ، والمعنى : أي الفعلين فعلنا بهم ، الاستسخار منهم أم ازدراؤهم وتحقيرهم ؟ وإن أبصارنا كانت تعلوا عنهم وتقتحم. ويكون استفهاما على معنى الإنكار على أنفسهم ، للاستسخار والزيغ جميعا. وقال الحسن : كل ذلك قد فعلوا ، اتخذوهم سخريا ، وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم. وأن اتخذناهم ليس استفهاما ، فأم منقطعة ، ويجوز أن تكون منقطعة أيضا مع تقدم الاستفهام ، يكون كقولك : أزيد عندك أم عندك عمرو ؟ واستفهمت عن زيد ، ثم أضربت عن ذلك واستفهمت عن عمرو ، فالتقدير : بل أزاغت عنهم الأبصار. ويجوز أن يكون قولهم : ﴿أم زاغت عنهم الابصار﴾ له تعلق بقوله : ﴿ما لنا لا نرى رجالا﴾ ، لأن الاستفهام أولا دل على انتفاء رؤيتهم إياهم ، وذلك دليل على أنهم ليسوا معه ، ثم جوزوا أن يكونوا معه ، ولكن أبصارهم لم ترهم. ﴿وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين﴾ : أي ثابت واقع لا بد أن يجري بينهم. وقرأ الجمهور : ﴿تخاصم﴾ بالرفع مضافا إلى أهل. قال ابن عطية : بدل من ﴿لحق﴾ . وقال الزمخشري : بين ما هو فقال : تخاصم منونا ، أهل رفعا بالمصدر المنون ، ولا يجيز ذلك الفراء ، ويجيزه سيبويه والبصريون. وقرأ ابن أبي عبلة : تخاصم ، أهل ، بنصب الميم وجر أهل. قال الزمخشري : على أنه صفة لذلك ، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس. وفي كتاب اللوامح : ولو نصب تخاصم أهل النار ، لجاز على البدل من ذلك. وقرأ ابن السميفع : تخاصم : فعلا ماضيا ، أهل : فاعلا ، وسمى تعالى تلك المفاوضة التي جرت

بين رؤساء الكفار وأتباعهم تخاصما ، لأن قولهم : ﴿لا مرحبا بهم﴾ ، وقول الأتباع : ﴿بل أنتم لا مرحبا بكم﴾ ، هو من باب الخصومة ، فسمى التفاوض كله تخاصما لاستعماله عليه. ﴿قل﴾ : يا محمد ، ﴿إنمآ أنا منذر﴾ : أي ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ ، وأن الله لا إله إلا الله ، لا ند له ولا شريك ، وهو الواحد القهار لكل شيء ، وأنه مالك العالم ، علوه وسفله ،

٤٠٧

العزيز الذي لا يغالب ، الغفار لذنوب من آمن به واتبع لدينه.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٩٩

." (١)

"﴿وبالوالدين إحسانا ﴾ ، المعنى : الأمر بالإحسان إلى الوالدين وبرهما وإكرامهما. وقد تضمنت آي من القرآن وأحاديث كثيرة ذلك ، حتى عد العقوق من الكبائر ، وناهيك احتفالا بهما كون الله قرن ذلك بعبادته تعالى ، ومن غريب الحكايات : أن عمر رأى امرأة تطوف بأبيها على ظهرها ، وقد جاءت به على ظهرها من اليمن ، فقال لها : جزاك الله خيرا ، لقد وفيت بحقه ، فقالت : ما وفيته ولا أنصفته ، لأنه كان يحملني ويود حياتي ، وأنا أحمله وأود موته. واختلفوا فيما تتعلق به الباء في قوله : ﴿وبالوالدين﴾ ، وفي انتصاب إحسانا على وجوه : أحدها : أن يكون معطوفا على لا تعبدون ، أعني على المصدر المنسبك من الحرف المصدري والفعل ، إذ التقدير عند هذا القائل بإفراد الله بالعبادة وبالوالدين ، أي وببر الوالدين ، أو بإحسان إلى الوالدين ، ويكون انتصاب إحسانا على المصدر من ذلك المضاف المحذوف ، فالعامل فيه الميثاق ، لأنه به يتعلق الجار والمجرور ، وروائح الأفعال تعمل في الظروف والمجرورات. الوجه الثاني :

٢٨٣

أن يكون متعلقا بإحسانا ، ويكون إحسانا مصدرا موضوعا موضع فعل الأمر ، كأنه قال : وأحسنوا بالوالدين. قالوا : والباء ترادف إلى في هذا الفعل ، تقول : أحسنت به وإليه بمعنى واحد ، وقد تكون على هذا التقدير على حذف مضاف ، أي وأحسنوا ببر الوالدين ، المعنى : وأحسنوا إلى الوالدين ببرهما. وعلى هذين الوجهين يكون العامل في الجار والمجرور ملفوظا به. قال ابن عطية : ويعترض هذا القول بأن المصدر قد تقدم عليه ما هو معمول له. انتهى كلامه. وهذا الاعتراض ، إنما يتم على مذهب أبي الحسن في منعه

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، /

تقديم مفعول ، نحو : ضربا زيدا ، وليس بشيء ، لأنه لا يصح المنع إلا إذا كان المصدر موصولا بأن ينحل لحرف مصدري والفعل ، أما إذا كان غير موصول ، فلا يمتنع تقديمه عليه. فجائز أن تقول : ضربا زيدا ، وزيدا ضربا ، سواء كان العمل للفعل المحذوف العامل في المصدر ، أو للمصدر النائب عن الفعل ، لأن ذلك الفعل هو أمر ، والمصدر النائب عنه أيضا معناه الأمر. فعلى اختلاف المذهبين في العامل يجوز التقديم. الوجه الثالث : أن يكون العامل محذوفا ، ويقدر : وأحسنوا ، أو ويحسنون بالوالدين ، وينتصب إحسانا على أنه مصدر مؤكد لذلك الفعل المحذوف ، فتقديره : وأحسنوا ، مراعاة للمعنى ، لأن معنى لا تعبدون : لا تعبدوا ، أو تقديره ؛ ويحسنون ، مراعاة للفظ لا تعبدون ، وإن كان معناه الأمر. وبهذين قدر الزمخشري هذا المحذوف. الوجه الرابع : أن يكون العامل محذوفا ، وتقديره : واستوصوا بالوالدين ، وينتصب إحسانا على أنه مفعول ، قاله المهدوي : الوجه الخامس : أن يكون العامل محذوفا ، وتقديره : ووصيناهم بالوالدين ، وينتصب إحسانا على أنه مفعول من أجله ، أي ووصيناهم بالوالدين إحسانا منا ، أي لأجل إحساننا . أي أن التوصية بهما سببها إحساننا ، إما لأن من شأننا الإحسان ، أو إحسانا منا للموصين ، إذ يترتب لهم على امتثال ذلك الثواب الجزيل والأجر العظيم ، أو إحسانا منا للموصى بهم. وقد جاء هذا الفعل مصرحا به في قوله تعالى : ﴿ووصينا الانسان بوالديه حسنا ﴾ . والمختار ، الوجه الثاني : لعدم الإضمار فيه ، ولاطراد مجيء المصدر في معنى فعل الأمر.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٨٠

﴿وذى القربى واليتامى والمساكين﴾ : معطوف على قوله : وبالوالدين. وكان تقديم الوالدين لأنهما آكد في البر والإحسان ، وتقديم المجرور على العامل اعتناء بمتعلق الحرف ، وهما الوالدان ، واهتماما بأمرهما. وجاء هذا الترتيب اعتناء بالأوكد. فبدأ بالولدين ، إذ لا يخفى تقدمهما على كل أحد في الإحسان إليهما ، ثم بذي القربى ، لأن صلة الأرحام مؤكدة أيضا ، ولمشاركته الوالدين في القرابة ، ثم باليتامى ، لأنهم لا قدرة لهم تامة على الاكتساب ، وقد جاء : "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة" وغير ذلك من الآثار ، ثم بالمساكين لما في الإحسان إليهم من الثواب. وتأخرت درجة المساكين ، لأنه يمكنه أن يتعهد نفسه بالاستخدام ، ويصلح معيشته ، بخلاف اليتامى ، فإنهم لصغرهم لا ينتفع بهم ، وهم محتاجون إلى من ينفعهم. وأول هذه التكاليف هو إفراد الله بالعبادة ، ثم الإحسان إلى الوالدين ، ثم إلى ذي القربى ، ثم إلى اليتامى ، ثم إلى المساكين. فهذه خمسة تكاليف تجمع عبادة الله ، والحض على الإحسان للوالدين ، والمواساة لذي القربى واليتامى والمساكين ، وأفرد ذا القربى ، لأنه أراد به الجنس ، ولأن إضافته إلى المصدر

يندرج فيه كل ذي قرابة.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٨٠

." (١)

"﴿ألم تكن ءاياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضآلين * ربنآ أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخساوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنآ ءامنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون * إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفآازون * قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسال العآدين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون * أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحقا لا إله إلا هو رب العرش الكريم * ومن يدع مع الله إلىها ءاخر لا برهان له بها فإنما حسابه عند ربها إنه لا يفلح الكافرون﴾ .

يقول الله لهم على لسان من يشاء من ملائكته ﴿ألم تكن ءاياتى﴾ وهي القرآن ، ولما سمعوا هذا التقرير أذعنوا ، وأقروا على أنفسهم بقولهم ﴿غلبت علينا شقوتنا﴾ من قولهم : غلبني فلان على كذا إذا أخذه منك وامتلكه ، والشقاوة سوء العاقبة. وقيل : الشقوة الهوى وقضاء اللذات لأن ذلك يؤدي إلى الشقوة. أطلق اسم المسبب على السبب قاله الجبائي. وقيل : ما كتب علينا في اللوح المحفوظ وسبق به علمك. وقرأ عبد الله والحسن وقتادة وحمزة والكسائي والمفضل عن عاصم وأبان والزعفراني وابن مقسم : شقاوتنا بوزن السعادة وهي لغة فاشية ، وقتادة أيضا والحسن

٤٢٢

في رواية خالد بن حوشب عنه كذلك إلا أنه بكسر الشين ، وباقي السبعة والجمهور بكسر الشين وسكون القاف وهي لغة كثيرة في الحجاز. قال الفراء : أنشدني أبو ثروان وكان فصيحا :

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤١٦

علق من عنائه وشقوتهبنت ثماني عشرة من حجته

وقرأ شبل في اختياره بفتح الشين وسكون القاف. ﴿وكنا قوما ضآلين﴾ أي عن الهدى ، ثم تدرجوا من الإقرار إلى الرغبة والتضرع ، وذلك أنهم أقروا والإقرار بالذنب اعتذار ، فقالوا ﴿ربنآ أخرجنا منها﴾ أي من جهنم ﴿فإن عدنا﴾ أي إلى التكذيب واتخاذ آلهة وعبادة غيرك ﴿فإنا ظالمون﴾ أي متجاوز والحد في

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٤٤/١

العدوان حيث ظلمنا أنفسنا أولا ثم سومحنا فظلمنا ثانيا. وحكى الطبري حديثا طويلا في مقاولة تكوين بين الكفار وبين مالك خازن النار ، ثم بينهم وبين ربهم جل وعز وآخرها ﴿قال اخساوا فيها ولا تكلمون﴾ قال وتنطبق عليهم جهنم ويقع اليأس ويبقون ينبح بعضهم في وجه بعض. قال ابن عطية : واختصرت ذلك الحديث لعدم صحته ، لكن معناه صحيح ومعنى أي ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا ازجرت ، يقال : خسأت الكلب وخسأ هو بنفسه يكون متعديا ولازما. و﴿ولا تكلمون﴾ أي في رفع العذاب أو تخفيفه. قيل : هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون.

﴿إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنآ ءامنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ . قرأ أبي وهارون العتكي ﴿إنه﴾ بفتح الهمزة أي لأنه ، والجمهور بكسرها والهاء ضمير الشأن وهو محذوف مع أن المفتوحة الهمزة والفريق هنا هم المستضعفون من المؤمنين ، وهذه الآية مما يقال للكفار على جهة التوبيخ ، ونزلت في كفار قريش مع صهيب وعمار وبلال ونظرائهم ، ثم هي عامة فيمن جرى مجراهم قديما وبقية الدهر. وقرأ حمزة والكسائي ونافع ﴿سخريا﴾ بضم السين وباقي السبعة بالكسر. قال الزمخشري : مصدر سخر كالسخر إلا أن في ياء النسب زيادة قوة في الفعل ، كما قيل : الخصوصية في الخصوص وهما بمعنى الهزء في قول الخليل وأبي زيد الأنصاري وسيبويه. وقال أبو عبيدة والكسائي والفراء : ضم السين من السخرة **والاستخدام** والكسر من السخر وهو الاستهزاء. ومنه قول الأعشى :

إني أتاني حديث لا أسر بهمن علو لا كذب فيه ولا سخر

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤١٦

وقال يونس : إذا أريد التخديم فضم السين لا غير ، وإذا أريد الهزء فالضم والكسر. قال ابن عطية.
". (١)

"﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ ؟ فيه توبيخ وتعجيب من جهلهم ، كأنه قيل : على اختيارهم وإرادتهم تقسم الفضائل من النبوة وغيرها. ثم في إضافته في قوله : ﴿رحمة ربك﴾ ، تشريف له صلى الله عليه وسلم ، وأن هذه الرحمة التي حصلت لك ليست إلا من ربك المصلح لحالك والمربيك. ثم أخبر تعالى أنه هو الذي قسم المعيشة بينهم ، فلم يحصل لأحد إلا ما قسمه تعالى. وإذا كان هو الذي تولى ذلك ، وفاوت بينهم ، وذلك في الأمر الفاني ، فكيف لا يتولى الأمر الخطير ، وهو إرسال من يشاء ، فليس لكم أن

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٠٨/٦

تتخيروا من يصلح لذلك ، بل أنتم عاجزون عن تدبير أموركم. وقرأ الجمهور : معيشتهم ، على الإفراد ؛ وعبد الله ، والأعمش ، وابن عباس ، وسفيان : معائشهم ، على الجمع. والجمهور : سخريا ، بضم السين ؛ وعمرو بن ميمون ، وابن محيصن ؛ وابن أبي ليلى ، وأبو رجاء ، والوليد بن مسلم ، وابن عامر : بكسرها ، وهو من التسخير ، بمعنى : الاستعباد **والاستخدام** ، ليرتفق بعضهم ببعض ويصلوا إلى منافعهم. ولو تولى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ، ما أطاق ذلك وضاع وهلك. ويبعد أن يكون سخريا هنا من الهزء ، وقد قال بعضهم : أي يهزأ الغني بالفقير. وفي قوله : ﴿نحن قسمنا﴾ ، تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا ، وهون على التوكل على الله. وقال مقاتل : فاضلنا بينهم ، فمن رئيس ومرؤوس. وقال قتادة : تلقى ضعيف القوة ، قليل الحيلة ، غني اللسان ، وهو مبسوط له ؛ وتلقى شديد الحيلة ، بسيط اللسان ، وهو مقتر عليه. وقال الشافعي ، رحمه الله :

ومن الدليل على القضاء وكونهبؤس الفقير وطيب عيش الأحمق

ورحمة ربك : قيل النبوة ، وقيل : الهداية والإيمان. وقال قتادة والسدي : الجنة خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا ، وفي هذا اللفظ تحقير للدنيا وما جمع فيها من متاعها.

﴿سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكاون * وزخرفا وإن كل ذالك لما متاع الحيواة الدنيا والاخرة عند ربك للمتقين * ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جآءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين * ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون * أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين * فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون * أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون * فاستمسك بالذى أوحى إليكا إنك على صراط مستقيم * وإنه لذكر لك ولقومكا وسوف تسالون * وسال من أرسلنا من قبلك من رسلنآ أجعلنا من دون الرحمان ءالهة يعبدون﴾ .

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢

بين تعالى أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله ، أي ولولا أن يرغب الناس في الكفر ، إذا رأوا الكافر في سعة ، ويصيروا أمة واحدة في الكفر. قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي : لأعطيناهم من زينة الدنيا كذا وكذا ، ولكن تعالى اقتضت حكمته أن يغني ويفقر الكافر والمؤمن. قال ابن عطية : واللام في : لمن يكفر ، لام الملك ، وفي : لبيوتهم ، لام تخصيص. كما تقول : هذا الكساء لزيد

١٤

." (١)

"تفسير قوله تعالى: (بل متعت هؤلاء وآبائهم خير مما يجمعون)

قال تبارك وتعالى: ((بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين * ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون * وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ [الزخرف:٢٩ - ٣٢].

قوله: (بل متعت هؤلاء) يعني: أهل مكة، (وآباءهم) أي: من قبلهم في الحياة فلم أعاجلهم على كفرهم (حتى جاءهم الحق) أي: دعوة التوحيد أو القرآن (ورسول مبين) أي: ظاهر الرسالة بالآيات والحجج التي يحتج بها عليهم في دعوى رسالته.

قال تعالى: ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ (كافرون) أي: جاحدون، فازدادوا في ضلالهم لضمهم إلى شركهم معاندة الحق؛ لأن الكفر قابل للزيادة، والدليل: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ [التوبة:٣٧]، والكفر نفسه درجات، فكلما ازداد الكافر في الصد عن سبيل الله عز وجل والتكذيب بآياته ازداد كفرا.

وقالوا أيضا في مواجهة هذا الحق الذي أرسل إليهم: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾.

أي: لولا نزل هذا القرآن على رجل من إحدى القريتين المعهودتين في أذهانكم: من مكة أو الطائف، فالتعريف هنا للعهد.

وقوله: (عظيم) يقصدون بالعظمة الجاه والمال، فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم عندهم.

قال القاضي: ولم يعلموا أنها رتبة روحانية تستدعي عظم النفس بالتحلي بالفضائل والكمالات القدسية لا التزخرف بالزخارف الدنيوية.

وقد أجابهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ وهذا إنكار فيه تجهيل ورد لتحكمهم فيما لا يتولاه إلا هو تبارك وتعالى، وبيان أن هذا ليس إليهم، فالله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ويختار، والله عز وجل يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، فالنبوة هبة من الله سبحانه وتعالى، ولذلك صح عن

---

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٩/٨

ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ما معناه: (إن الله نظر في قلوب العباد، فاختار من قلوب العباد قلب محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أصفى قلب وأطهر قلب وأكمل قلب، فاصطفاه لرسالته ولنبوته ولكتابه، ثم نظر في قلوب العباد فاختار له أصحابا رضي الله تعالى عنهم) إلى آخر الأثر الموقوف الصحيح عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

والمراد بالرحمة: النبوة، ولو وقفت على كلمة (رحمت) وقفت بالتاء مراعاة لرسم المصحف؛ لأنه إذا كانت التاء مكتوبة تاء مفتوحة فإذا وقفت عليها تقف عليه بالتاء.

وقوله: (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) أي: فجعلنا بعضهم غنيا وبعضهم فقيرا، ورفعنا بعضهم بالغنى فوق بعض درجات.

وقوله: (ليتخذ بعضهم) يعني: ليتخذ الغني (بعضا) يعني: الفقير (سخريا) أي: مسخرا في العمل، وما به قوام المعايش والوصول إلى المنافع؛ لا لكمال في الموسع عليه ولا لنقص في المقتر عليه.

وهذه الآية الكريمة كلها في الرد على الاقتراح، وبيان جهلهم بحكمة الله سبحانه وتعالى في المفاضلة في مراتب الناس؛ حيث جعلوا مقاييس المفاضلة هي المال والجاه، فرد الله عليهم أن ذلك ليس إليهم، ثم بين عز وجل ذلك فقال: (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعض سخريا)، أي: ليس المقصود الاستهزاء، وإنما يعني التسخير بالعمل، لأنه لو كان كل الناس وزراء فمن الذين سيخدمون الناس ويقومون بالوظائف الأخرى؟! لكن الله سبحانه وتعالى فاضل بين خلقه وخالف بين وظائفهم؛ كي ينتفع بعضهم من بعض، ويحصلوا بذلك مصالحهم، لكن ليس هذا التسخير بإعطاء البعض وتخصيصه بالغناء، والتقتير على البعض وكونه فقيرا، دليلا على أن الغني أكمل من الفقير، أو أن الفقير أحقر من الغني، هذا الاعتبار إنما هو في موازين هؤلاء الماديين.

وقوله تعالى: (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) أي: جعلنا بعضهم غنيا وبعضهم فقيرا.

وقوله: (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) أي: رفعنا الغني فوق الفقير درجات في الدنيا.

وقوله: (ليتخذ بعضهم) أي: الغني (بعضا) أي: الفقير (سخريا) يعني: مسخرا في العمل؛ لأن كل شيء لابد أن يكون فيه رئيس ومرءوس، حتى يحصل ما به قوام المعايش والوصول إلى المنافع، وليس هذا الاختيار لكمال في الموسع عليه: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات:١٣]، لكن هذا التفاضل لأن حاجة البشر ماسة إلى التضام والتآلف الذي به ينتظم شملهم، أما النفحات الربانية والعلوم اللدنية فليست مما يستدعي سعة ويسارا؛ لأنها اختصاص إلهي وفيض رحماني.

والسخري بالضم منسوب إلى السخرة بوزن غرفة، وهي **الاستخدام** والقهر على العمل.

وقوله: (ورحمة ربك خير مما يجمعون) يعني: أن النبوة خير مما يجمعون من الحصاد الفاني، فرحمة ربك في أول الآية وفي آخرها مقصود بها النبوة، فإذا كانت رحمة ربك خيرا مما يجمعون من الأموال والغنى والسعة واليسار فإن العظيم حقا هو الذي أعطيها، وهو النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وقال كفار مكة: (لولا) هلا، (نزل هذا القرآن على رجل من القريتين) أي: على رجل من إحدى القريتين؛ وهما مكة والطائف (عظيم) يعنون كثرة ماله، وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وعظيم مكة الذي يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، وفي مرة بن كعب يجتمع نسبه بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وعظيم الطائف هو عروة بن مسعود، وقيل: حبيب بن عمرو بن عمير، وقيل: هو كنانة بن عبد يا ليل وقيل غير ذلك.

وإيضاح الآية: أن الكفار أنكروا أولا أن يبعث الله رسولا من البشر، ففي البداية أنكروا واقترحوا أن الله يرسل عليهم ملائكة، ثم لما سمعوا الأدلة على أن الله سبحانه وتعالى لم يبعث إلى البشر رسولا إلا من البشر، تنازلوا عن اقتراحهم إرسال رسل من الملائكة إلى اقتراح آخر، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين المذكورين فقالوا: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)، وهذا الاقتراح يدل على شدة جهلهم وسخافة عقولهم؛ حيث يجعلون كثرة المال والجاه في الدنيا موجبا لاستحقاق النبوة وتنزيل الوحي، ولذا زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس أهلا لإنزال هذا القرآن عليه لقلة ماله، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه صلى الله عليه وسلم، وقد بين تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة شدة جهلهم وسخافة عقولهم بقوله: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ [الزخرف:٣٢]، والظاهر المتبادر أن المراد برحمة ربك النبوة وإنزال الوحي، وإطلاق الرحمة على ذلك متعدد في القرآن، كقوله تعالى في سورة الدخان: ﴿إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك﴾ [الدخان:٥ - ٦]، وقال في آخر سورة القصص: ﴿وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ [القصص:٨٦]، وقال في آخر سورة الأنبياء: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا﴾ [الكهف:٦٥]، على القول بأن الخضر عليه السلام نبي.

قال تعالى: ((نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات)) يعني: أنه تعالى لم يفوض إليهم أمر معايشهم وحظوظهم في الدنيا، بل تولى قسمة ذلك بينهم، فجعل هذا غنيا وهذا

فقيرا، وهذا رفيعا وهذا وضيعا، وهذا خادما وهذا مخدوما ونحو ذلك، فإذا لم يفوض إليهم حظوظهم في الدنيا ولم يحكمهم فيها، بل كان تعالى هو المتصرف فيها بما شاء كيف شاء، فكيف يفوض إليهم أمر إنزال الوحي حتى يتحكموا في من ينزل إليه الوحي؟! فهذا مما لا يعقل، ولا يظنه إلا غبي جاهل كالكفار المذكورين.

وقوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ التحقيق -إن شاء الله- أنه من التسخير، ومعنى تسخير بعضهم لبعض: خدمة بعضهم البعض، وعمل بعضهم لبعض؛ لأن نظام العالم في الدنيا يتوقف قيامه على ذلك، فمن حكمته جل وعلا أن يجعل هذا فقيرا مع كونه قويا قادرا على العمل، ويجعل هذا ضعيفا لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيئ له دراهم، يؤجر بها ذلك الفقير القوي، فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي، فتنتظم المعيشة لكل منهما، وهكذا.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى)

قال تعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف:١٢٧].

((وقال الملأ من قوم فرعون)) أي: خوفا من انقلاب الخلائق عليهم حين رأوا السحرة جاهروا بالإسلام ولم يبالوا بالتوعد.

((أتذر)) يعني: أتترك ((موسى وقومه ليفسدوا في الأرض)) بإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل، وقوله: ((ليفسدوا في الأرض)) أي: في أرض مملكتك بتغيير الناس عنك.

((ويذرك وآلهتك)) الآلهة: جمع إله بمعنى: المعبود.

وكان للمصريين آلهة كثيرة منها الإله الذي كانوا يعتقدون أن روحه توجد في الثور الذي كانوا يعبدونه أيضا، وكانوا يعبدون الظلام أيضا، ويعبدون صنما يعتقدون أن وظيفته طرد الذبان، وبالجملة فقد فاقوا كل من سواهم في الضلال، فكانوا يسجدون للشمس وللقمر وللنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات، حتى الهوام وأدنى حشرات الأرض، هكذا حكى عنهم بعض المدققين.

وقد ذكر الشهرستاني في الملل والنحل: أن فرعون كان أول أمره على مذهب الصابئة، ثم انحرف عن ذلك وادعى لنفسه الربوبية، إذ رأى في نفسه قوة الاستعمال **والاستخدام**.

---

(١) تفسير القرآن الكريم – المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٤/١٠٢

وقال بعض المفسرين: (ويذرك وآلهتك) يعني: وطاعتك، أو (ويذرك وإلهتك) يعني: عبادتك، الإلهة أو الألوهة هي العبادة.

وقال بعضهم: إن كلمة الآلهة: لفظة اصطلاحية عند العبرانيين، يراد بها القضاة والحكام الذين يقضون بأمر الله، وأنها لو حملت على هذا هاهنا لم يبعد، ويكون المعنى: ويذرك وقضاتك وذوي أمرك، ويكون الغرض من ذكرهم معه تهويل الأمر وإلهاب قلب فرعون على موسى وإثارة غضبه.

والأظهر ما قدمناه أولا: (ويذرك وآلهتك) جمع إله وهو المعبود.

((قال سنقتل أبناءهم)) والقراءة الأخرى: (قال سنقتل أبناءهم) أي: المولودين.

((ونستحيي نساءهم)) أي: نستبقي نساءهم للاستخدام.

((وإنا فوقهم قاهرون)) أي: بالغلبة والقدرة عليهم، ففعلوا بهم ذلك، فلما فعل بهم هذا الوعيد من قتل الأبناء، واستحياء النساء، شكا بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف:١٢٨].

وهنا: ((قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم)) ولم يقل: سأقتل موسى؛ لعلمه أنه لا يقدر عليه، وقال سعيد بن جبير: كان فرعون قد ملئ من موسى رعبا، فكان إذا رآه يبول كما يبول الحمار.

فالله أعلم بصحة ذلك.." (١)

"فوائد مرتبة حسب سير القصة

الأول: قال السيوطي في الإكليل: في هذه الآية أنه لا بأس **بالاستخدام** واتخاذ الرفيق والخادم في السفر، واستخدام الرحلة في طلب العلم، واستزادة العالم من العلم، واتخاذ الزاد للسفر، وأنه لا ينافي التوكل وشدة النسيان ونحوه من الأمور المكروهة إلى الشيطان مجازا وتأدبا عن نسبتهما إلى الله تعالى، وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه في المرتبة، واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه، وتقديم المشيئة في الأمر، واشتراط المسموع على السامع، وأنه يلزم الوفاء بالشروط، وأن النسيان غير مؤاخذ به، وأن للثناء اعتبارا في التكرار ونحوه، وأنه لا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة، وأن صنع الجميل لا يترك ولو مع اللئام، وجواز أخذ الأجر على الأعمال، وأن المسكين لا يخرج عن المسكنة لكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها شيئا لا يكفيه، وأن الغصب حرام، وأنه يجوز إتلاف مال الغير أو تعييبه لوقاية ما فيه كمال المودع واليتيم، وإذا تعارض مفسدتان ارتكب الأخف، وأن الولد يحفظ بصلاح

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ١٠/٦٥

أبيه، وأن أعظم ثقة التأمين على الأولاد هي تقوى الله سبحانه وتعالى: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا﴾ [النساء:٩]، ليست الأموال ولا الضياع ولا الثروات وإنما تقوى الله سبحانه وتعالى، وأنه تجب عمارة ما يخاف منه الخراب، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب، وأنه يجوز دفن المال في الأرض.

وقال البيضاوي: الفائدة من هذه القصة أن لا يعجب المرأ بعلمه، ولا يبادر إلى إنكار مالم يستحمله، فلعل به سرا لا يعرفه، وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمتعلم، ويراعي الأدب في المقال، وأن ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يحقق إصراره ثم يهاجر عنه.

انتهى.

ومن فوائد الآية كما في فتح الباري: استخدام الحرص على لقاء العلماء، وتجشم المشاق في ذلك، وإطلاق الفتى على التابع، واستخدام الحر، وطواعية الخادم لمخدومه، وعذر الناسي، وجواز الإخبار بالتعب، ويلحق به الألم من مرض ونحوه، ومحل ذلك إذا كان ذلك على غير سخط من المقدور.

ومنها: أن المتوجه إلى ربه يعان فلا يسرع إليه النصب، وفيها جواز طلب القوت وطلب الضيافة، وقيام العذر بالمرة الواحدة، وقيام الحجة بالمرة الثانية، وفيها: حسن الأدب مع الله، وألا يضاف إليه ما يستهجن لفظه وإن كان الكل بتقديره وخلقه.." (١)

"حكم التسبيح بالسبحة بعد الصلاة وغيرها

Q ما حكم التسبيح بالمسبحة بعد كل صلاة أو في أي وقت، وهل هي بدعة؟

A المسبحة فيها خلاف، والراجح من أقوال العلماء: أنه لا يجوز أن تستعمل المسبحة بعد الصلاة في الذكر المقيد، يعني: يكون التسبيح بالأصابع، ويجوز أن تستخدم في الذكر المطلق، شريطة ألا تحمل في اليد أثناء السير، وإنما تسبح وتضعها في المكان، وهذا اختيار بعض العلماء، فإذا أردت أن تقول: لا إله إلا الله مائة مرة، فعد المائة وضعها في نفس المكان، والراجح عدم **الاستخدام**، والعقد على الأصابع وعلى الأنامل أفضل، والله تعالى أعلم، وحديث جويرية فيه ضعف عند بعض العلماء.." (٢)

"تفسير قوله تعالى: (إلا إن لله ما في السموات والأرض)

ثم ختم ربنا جل وعلا هذه السورة المباركة بقوله: ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٧/٩٢

(٢) تفسير القرآن الكريم - أسامة سليمان، أسامة سليمان ٢٢/١

ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾ [النور:٦٤].
لقد مر في هذه السورة أحكام ومواعظ، وقصص وتشريع لا يمكن أن يأتي به إلا القادر الرب الواحد، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ألا إن لله﴾ [النور:٦٤] و (ألا) استفتاحية ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض﴾ [النور:٦٤] فهو الرب، وهو الخالق، وهو الرازق، وهو المدبر، وهو الحكيم، وهو الأعلم بخلقه، فمن البداهة أن يكون منه فبدهيا جدا أن يكون منه ذلك التشريع.
فالتشريع جاء هنا ممن له حق التشريع، وليس لأحد دون الله حق التشريع وقوله تعالى: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ [النور:٦٤] (قد) هنا للتحقيق قولا واحدا، ولا ينبغي الالتفات إلى قول النحاة هنا: إن (قد) تكثر في زمن المضارع، ولو سلمنا بهذا **الاستخدام** في لغة العرب كثيرا، ولكنها هنا للتحقيق قولا واحدا.
وقوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ [النور:٦٤] يعني: يعلم حالكم من الموافقة والمخالفة، ومن النفاق والإخلاص، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، لا رب غيره ولا إله سواه، ولا تخفى عليه خافية.
قال تعالى: ﴿ويوم يرجعون إليه﴾ [النور:٦٤] أي: جميعا ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ [النور:٦٤] وهذا يوم يقوم فيه الأشهاد، ويحشر فيه العباد.
ثم ختم الله جل وعلا الآية بقوله: ﴿والله بكل شيء عليم﴾ [النور:٦٤].
فالله جل وعلا وسع علمه كل شيء، وهو جل وعلا يعلم ما قد كان، وما سيكون، وما هو كائن، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون.
وبهذا نختم تأملاتنا في سورة النور، فنسأل الله أن يرزقنا نورا نهتدي به، ورزقا حلالا طيبا نكتفي به.
وقد مر معنا في أول السورة أنها سورة مدنية، وأن فيها من التشريع ما جعل عمر يطلب من الناس أن يعلموها أبناءهم ونساءهم على وجه الخصوص، وتعلقت بها كثير من الأحكام، وانجلت بها الغمة في فصل خطابه عن حديث الإفك، وذكر الله جل وعلا فيها الآداب مع النبي صلى الله عليه وسلم في الأمر الجامع، وذكر الله جل وعلا فيها أشياء أخر، ومواعظ كثر، أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، والله المستعان وعليه البلاغ.
هذا ما تيسر إيراده وتهيأ إعداده، وصلى الله على محمد وعلى آله، والحمد لله رب العالمين.." (١)
"اللفظ -والله أعلم- هو قبول الإنس من الجن ما كانوا يغوونهم به؛ لقوله: ﴿استكثرتم من الإنس﴾ ومن كان يقول من الإنس: أعوذ بالجن فقليل) (١).

---

(١) سلسلة محاسن التأويل - المغامسي، صالح المغامسي ١٧/٦٤

وقوله تعالى: ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ يعني: الموت، في قول الحسن (٢) والسدي (٣)، وأكثر المفسرين (٤) وقيل: هو البعث والحشر (٥).

---

(١) "معاني الزجاج" ٢/ ٢٩١، وهو اختيار النحاس أيضا في "معانيه" ٢/ ٤٩٠، و"إعراب القرآن" ٢/ ٥٨٠، والظاهر أن الآية عامة، وأن ما ذكر من باب التمثيل، وهو اختيار شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في "الفتاوى" ١٣/ ٨٠ - ٨٩، قال في تفسير الآية: (الاستمتاع بالشيء هو أن يتمتع به فينال به ما يطلبه ويريده ويهواه، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء، والذكور بالذكور، والإناث بالإناث، والاستمتاع **بالاستخدام** وأئمة الرياسة كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم والاستمتاع بالأموال، وفي الجملة استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه، وقد وقع في الإنس والجن هذا كله) اهـ. ملخصا.

وقال أبو حيان في "البحر" ٤/ ٢٢٠: (وجوه الاستمتاع كثيرة تدخل هذه الأقوال كلها تحتها، فينبغي أن يعتقد في هذه الأقوال أنها تمثيل في الاستمتاع لا حصر في واحد منها) اهـ.

(٢) ذكره الماوردي ٢/ ١٦٨، وابن الجوزي ٣/ ١٢٤، عن الحسن والسدي.

(٣) أخرجه الطبري في "تفسيره" ٨/ ٣٤ بسند جيد.

(٤) قال أبو حيان في "البحر" ٤/ ٢٢٠: (هذا قول الجمهور وابن عباس والسدي وغيرهما). اهـ. وهو قول الطبري في "تفسيره" ٨/ ٣٤، والسمرقندي ١/ ٥١٣.

(٥) ذكر هذا القول الماوردي في "تفسيره" (٢/ ١٦٨، وابن الجوزي ٣/ ١٢٤، وهو قول البغوي في "تفسيره" ٣/ ١٨٨، والزمخشري ٢/ ٥٠.

وقال ابن القيم كما في "بدائع التفسير" ٢/ ١٨٢ - ١٨٣ في الآية: (هذا يتناول أجل الموت وأجل البعث، فكلاهما أجل الله تعالى لعباده، وكأن هذا -والله أعلم- إشارة منهم إلى نوع استعطاف وتوبة، فكأنهم يقولون: هذا أمر كان إلى وقت =." [١]

"وقوله: قالوا ربنا حكاية لقول الأتباع أيضا دعوا على رؤسائهم بأن يكون عذابهم مضاعفا.

قوله عز وجل:

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٤٣٧/٨

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٦٢ الى ٦٦]

وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار (٦٢) أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار (٦٣) إن ذلك لحق تخاصم أهل النار (٦٤) قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار (٦٥) رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار (٦٦)

الضمير في: قالوا لأشراف الكفار ورؤسائهم، أخبر الله عنهم أنهم يتذكرون إذا دخلوا النار لقوم من مستضعفي المؤمنين فيقولون هذه المقالة، وهذا مطرد في كل أمة جاءها رسول. وروي أن القائلين من كفار عصر النبي عليه السلام هم أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأهل القليب ومن جرى مجراهم، قاله مجاهد وغيره، والمعنى: كنا نعدهم في الدنيا أشرارا لا خلاق لهم، وأمال الراء من الأشرار: أبو عمرو وابن عامر والكسائي، وفتحها ابن كثير وعاصم، وأشم نافع وحمزة.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: أتخذناهم سخريا بألف الاستفهام، ومعناها: تقرير أنفسهم على هذا على جهة التوبيخ لها والأسف، أي أتخذناهم سخريا ولم يكونوا كذلك، واستبعد معنى هذه القراءة أبو علي. وقرأ نافع وحمزة والكسائي: «سخريا» بضم السين، وهي قراءة الأعرج وشيبة وأبي جعفر وابن مسعود وأصحابه ومجاهد والضحاك، ومعناها: من السخرة **والاستخدام**. وقرأ الباقون: «سخريا» بكسر السين وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وعيسى وابن محيصن ومعناه المشهور من السخر الذي هو الهزء، ومنه قول الشاعر [عامر بن الحارث] : [البسيط]

إني أتاني لسان لا أسر بها ... من علو لا كذب فيها ولا سخر

وقالت فرقة يكون كسر السين من التسخير.

و: أم في قولهم: أم زاغت معادلة ل ما في قولهم: ما لنا لا نرى وذلك أنها قد تعادل ما، وتعادل من، وأنكر بعض النحويين هذا، وقال: إنها لا تعادل إلا الألف فقط. والتقدير في هذه الآية: أمفقودون هم أم زاغت؟ ومعنى هذا الكلام: أليسوا معنا أم هم معنا؟ ولكن أبصارنا تميل عنهم فلا تراهم، والزيغ: الميل.

ثم أخبر الله تعالى نبيه بقوله: إن ذلك لحق تخاصم أهل النار و: تخاصم بدل من قوله: لحق.

وقرأ ابن أبي عبلة: «تخاصم» بفتح الميم. وقرأ ابن محيصن: «تخاصم» بالتنوين «أهل النار» برفع اللام.

ثم أمر نبيه أن يتجرد للكفار من جميع الأغراض، إلا أنه منذر لهم، وهذا توعد بليغ محرك للنفوس، وباقي الآية بين.." [١]

"وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون (١٣٧)

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ هم بنو إسرائيل كان يستصنعهم فرعون وقومه بالقتل **والاستخدام** ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾ يعنى ارض مصر والشام التى ﴿التي باركنا فيها﴾ بالخصب وسعة الأرزاق وكثة الأنهار والأشجار ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل﴾ هو قوله عسى ربكم أن يهلكم عدوكم ويستخلفكم فى الأرض أو ونريد انتنمن على الذين استضعفوا فى الأرض إلى ما كانوا يحذرون والحنسى تأنيث الأحسن صفة للكلمة وعلى صلة تمت أي مضت عليهم واستمرت من قولكم ثم علي الأمر إذا مضى عليه ﴿بما صبروا﴾ بسبب صبرهم وحسبك به حاثا على الصبر ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله

الأعراف ١٢٩ ١٣٤ إليه ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج." [٢]

"ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين (٣٠)

﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ أي **الاستخدام** والاستعباد وقتل الأولاد." [٣]

"الأخوان ونافع هنا وفي ص بكسر السين. والباقون بضمها في المؤمنين. واختلف الناس في معناهما. فقيل: هما بمعنى واحد، وهو قول الخليل وسيبويه والكسائي وأبي زيد. وقال يونس: «إن أريد الخدمة والسخرة فالضم لا غير. وإن أريد الهزء فالضم والكسر. ورجح أبو علي وتبعه مكي قراءة الكسر قالا: لأن ما بعدها أليق لها لقوله: ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ . قلت: ولا حجة فيه لأنهم جمعوا بين الأمرين: سخروهم في العمل، وسخروا منهم استهزاء. والسخرة بالتاء: **الاستخدام**، و» سخريا «بالضم منها، والسخر بدونها: الهزء، والمكسور منه. قال الأعشى:

٣٤٣١ - إني أتاني حديث لا أسر به ... من علو لا كذب فيه ولا سخر

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥١٢/٤

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٥٩٩/١

(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢٩١/٣

ولم يختلف السبعة في ضم ما في الزخرف؛ لأن المراد **الاستخدام** وهو يقوي قول من فرق بينهما. إلا أن ابن محيصن وابن مسلم وأصحاب." (١)

"قوله: ﴿من القريتين﴾ : فيه حذف مضاف فقدره بعضهم: من رجلي القريتين. وقيل: من إحدى القريتين. والرجلان: الوليد ابن المغيرة وكان بمكة، وعروة بن مسعود الثقفي، وكان بالطائف. وقيل: كان يتردد بين القريتين فنسب إلى كلتيهما. وقرئ «رجل» بسكون العين وهي تميمة.

وقد مضى الكلام في «سخريا» في المؤمنين. وقرأ بالكسر هنا عمرو بن ميمون وابن محيصن وأبو رجاء وابن أبي ليلى والوليد بن مسلم وخلائق، بمعنى المشهورة، وهو **الاستخدام**. ويبعد قول بعضهم: إنه استهزاء الغني بالفقير.." (٢)

"وسيبويه والكسائي وأبو زيد: هما بمعنى واحد نحو دري ودري، وبحر لجي ولجي بضم اللام وكسرها. وقال يونس: إن أريد الخدمة والسخرة فالضم لا غير، وإن أريد الهزء فالضم والكسر ورجح أبو علي وتبعه مكي قراءة الكسر، قالا: لأن ما بعدها أليق لها لقوله: ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ . ولا حجة فيه، لأنهم جمعوا بين الأمرين سخروهم في العمل، وسخروا منهم استهزاء. والسخرة بالتاء **الاستخدام** وسخريا بالضم منها، والسخر بدونها الهزء والمكسور منه، قال الأعشى:

٣٨١٣ - إني أتاني حديث لا أسر به ... من علو لا كذب فيه ولا سخر

ولم يختلف السبعة في ضم ما في الزخرف، لأن المراد **الاستخدام**، وهو يقوي قول من فرق بينهما، إلا أن ابن محيصن وابن مسلم وأصحاب عبد الله كسروه أيضا، وهي مقوية لقول من جعلهما بمعنى والياء في سخريا وسخريا للنسب زيدت." (٣)

"وهذا مالكا، وهذا مملوكا، كما فضلنا بعضهم على بعض في الرزق كما شئنا، كذلك اصطفينا بالرسالة من شئنا ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ في القوة والضعف، والعلم، والجهل، والغنى، والفقر لأن لو سويناهم في كل هذه الأحوال، لم يخدم أحد أحدا، ولم يصر أحد منهم مسخرا لغيره. وحينئذ يخرب العالم ويفسد نظام الدنيا.

وقوله: ﴿ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ أي ليستخدم بعضهم بعضا، فيسخر الأغنياء بأموالهم الأجراء الفقراء

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٣٧١/٨

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٥٨٤/٩

(٣) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٦٥/١٤

بالعمل فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش هذا بماله وهذا بأعماله فيلتئم قوام العالم. وقد مضى الكلام في سخريا في المؤمنين. وقرأ بالكسر هنا عمرو بن ميمون، وابن محيصن، وأبو رجاء وابن أبي ليلى، والوليد بن مسلم، وخلائق بمعنى المشهورة وهو **الاستخدام**. ويبعد قول بعضهم: إنه استهزاء الغني بالفقير. ثم قال: «ورحمة ربك» يعني الجنة «خير للمؤمنين» مما يجمع الكفار من الأموال.." (١)

"قصعتهم الشيطان» وقال عليه السلام] : «من ضم يتيما من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله عز وجل غفرت له ذنوبه ألبتة إلا أن يعمل عملا لا يغفر» .

قوله: «والمساكين» جمع «مسكين» ، ويسمونه جمعا لا نظير له من الآحاد، وجمعا على صيغة منتهى الجموع، وهو من العلل القائمة مقام علتين، وسيأتي تحقيقه قريبا إن شاء الله تعالى.

وتقدم القول في اشتقاقه عند ذكر المسكنة.

واختلف فيه: هل هو بمعنى الفقير أو أسوأ حالا منه كقوله: ﴿أو مسكينا ذا متربة﴾ [البلد: ١٦] أي: لصق جلده بالتراب، وهو قول أبي حنيفة وغيره بخلاف القير؛ فإن له شيئا ما.

قال: [البسيط]

٦٢٠ - أما الفقير الذي كانت حلوبته ... وفق العيال فلم يترك له سبد

أو أكمل حالا؛ لأن الله جعل لهم ملكا ما، قال: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين﴾ [الكهف: ٧٩] وهو قول الشافعي وغيره.

فصل

إنما تأخرت درجتهم عن اليتامى؛ لأن المسكين قد ينتفع بـه في **الاستخدامن** فكان الميل إلى مخالطته أكثر من الميل إلى مخالطة اليتامى، وأيضا المسكين يمكنه الاشتغال بتعهد نفسه، ومصالح معيشته، واليتيم ليس كذلك، فلا جرم قدم الله ذكر اليتيم على المسكين.

قال: عليه الصلاة والسلام: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وأحسبه قال وكالقائم لا يفتر من صلاة وكالصائم لا يفطر» .." (٢)

"انتهى.

قال ع «١» : وقال سيبويه «٢» : ورؤساء اللسان: هي على بابها، والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٥٥/١٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٣٥/٢

أي: إذا تأملتم حالكم مع عبادة ربكم، رجوتم لأنفسكم التقوى، و «لعل» : متعلقة بقوله: «اعبدوا» ، ويتجه تعلقها ب «خلقكم» أي: لما ولد كل مولود على الفطرة، فهو إن تأمله متأمل، توقع له ورجا أن يكون متقيا، و «تتقون» : مأخوذ من الوقاية، وجعل بمعنى «صير» في هذه الآية لتعديها إلى مفعولين، و «فراشا» معناه: تفترشونها، و «السماء» قيل: هو اسم مفرد، جمعه سماوات، وقيل: هو جمع، واحده سماوة، وكل ما ارتفع عليك في الهواء، فهو سماء، وأنزل من السماء يريد السحاب، سمي بذلك تجوزا لما كان يلي السماء، وقد سموا المطر سماء للمجاورة ومنه قول الشاعر: [الوافر]

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا «٣»

فتجوز أيضا في «رعيناه» .

وواحد الأنداد ند، وهو المقاوم والمضاهي، واختلف المتأولون من المخاطب بهذه الآية، فقالت جماعة من المفسرين: المخاطب جميع المشركين، فقوله سبحانه على هذا:

وأنتم تعلمون يريد العلم الخاص في أنه تعالى خلق، وأنزل الماء، وأخرج الرزق، وقيل: المراد كفار بني إسرائيل، فالمعنى: وأنتم تعلمون من الكتب التي عندكم أن الله لا

- الشاعر هنا مجردة من الشك بمعنى «لام كي» . يقول: كفوا الحروب لنكف، ولو كانت «لعل» هنا شكا لم يوثقوا لهم كل موثق. ينظر: «أمالي ابن الشجري» (١: ٧١) ، والملا: الصحراء، والأرض الواسعة.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٠٥) .

(٢) عمرو بن عثمان بن قنير الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب «سيبويه» : إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو. ولد في إحدى قرى «شيراز» ، وقدم «البصرة» ، فلزم الخليل بن أحمد، ففاقه، وصنف كتابه المسمى «كتاب سيبويه» في النحو. لم يصنع قبله ولا بعده مثله، ناظر الكسائي وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم. كان أنيقا جميلا، توفي شابا، ولد سنة (١٤٨ هـ.) وتوفي سنة (١٨٠ هـ.) .

ينظر: «ابن خلكان» (١: ٣٨٥) ، «البداية والنهاية» (١٠: ١٧٦) ، «الأعلام» (٥/ ٨١) .

(٣) البيت لمعود الحكماء. انظر: «تأويل مشكل القرآن» (١٣٥) ، الأصبهاني (٢١٤) ، الصاحبي (٦٣) ، «معجم الشعراء» (٣٩١) ، «المفضليات» (٣٥٩) ، «الصناعتين» (٢١٢) ، «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٩٨) ، «العمدة» (١/ ٢٣٧) ، وفيه النسبة لجرير بن عطية، «معاهد التنصيص» (٢/ ٢٦٠) .

والشاهد فيه: **الاستخدام**، وهو أن يراد بلفظ له معنيان: أحدهما، ثم يراد بضمير الآخر، أو يراد بأحد

ضميريه أحدهما، ثم يراد بالآخر الآخر، فالأول كما في البيت هنا، فإنه أراد بالسماء الغيث، وبالضمير الراجع إليه من «رعيناه» النبت.." (١)

"ومخادعة المنافقين: هي لأولياء الله، ففي الكلام حذف مضاف إذ لا يقصد أحد من البشر مخادعة الله سبحانه.

وقوله تعالى: وهو خادعهم

: عبارة عن عقوبتهم، سماها باسم الذنب، وقال ابن

- احتج الحنفية: بعمومات الكتاب والسنة الواردة في حل البيع من غير فصل بين مسلم وكافر. وحيث حل الشراء للمسلم يحل للكافر بمقتضى العموم.

وأجيب: بأن تلك العمومات مخصصة في حق الكافر بقوله تعالى: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا [النساء: ١٤١] ، واحتجوا أيضا بأن شراء الكافر للعبد المسلم عقد صدر من أهله في محله لأن الكافر أهل للتصرف والعبد مال متقوم، ولهذا صح للمسلم بيعه وشراؤه، وإذا كان العقد كذلك كان صحيحا. أما دليل أن الكافر أهل للتصرف فهو ثبوت الملك له على العبد المسلم وميراثه له وبقاء ملكه عليه حينما يسلم، وأما دليل جبر المشتري على البيع بعد صحة الشراء، فهو احتمال أن يفعل الكافر بالمسلم فعلا لا يحل له نظرا للعداوة الدينية التي بينهما.

ونوقش هذا الدليل: بأن استدلالكم على صحة البيع بصحة الإرث غير مسلم من وجهين:

أحدهما: أن انتقال الملك في الإرث قهري لئلا يبقى الشيء بلا مالك، ولا كذلك البيع، فإنه اختياري، إن لم يصح بقي على ملك صاحبه الأصلي.

الثاني: أن الإرث يفيد استدامة ملك والبيع ابتداءه، والاستدامة أخف من الابتداء، حتى صح إرث المسلم للخبر لكونه استدامة لا شراؤه ابتداء، فظهر الفرق بينهما فلا يقاس أحدهما على الآخر.

حجة الجمهور: احتجوا أولا: بأن في تصحيح مثل هذا البيع طريقا لإثبات السبيل من الكافر على المسلم إذ به يتمكن من إذلاله **بالاستخدام** وهو محظور شرعا فيمتنع ما أدى إليه.

ونوقش: بكون السبيل غير حاصل بالجبر على بيعه بعد تصحيحه، وأجيب: بنفي تصحيحه مع الجبر لعدم الفائدة فكان المنع ابتداء أولى.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١/١٩٦

واحتجوا ثانيا: بأن المقصود من الشراء هو استدامة الملك من المشتري على العين المشتراة وعدم خروجها من ملكه إلا برضاه، ثم في تصحيح الشراء من الكافر للعبد المسلم، مع جبره بعد ذلك على البيع إخلال بمقاصد النكاح. وعدم ترتب آثاره عليه فكان خليقا بالفساد دون الصحة، ولهذا حظر عقد الزواج من المشركة للمسلم لعدم ترتب آثار النكاح عليه، والبيع مثله.

ونوقش: بأن مثل هذا الشراء لم يخل عن الفائدة لو قلنا بتصحيحه مع الجبر إذ قد ظهرت بتمامه سلطة المالك على البيع وجاز له بيعه وانتقال ملكيته إليه، وتصحيح عتقه إن أراد، ومسألة الإذلال ممنوعة مع الجبر على البيع.

وأجيب: بأن تلك السلطة الحاصلة من مثل هذا الشراء كعدمها لقيام أمر الجبر مسلطا عليه. ولا شك أن الإذلال متحقق بمجرد انتقال ملكية العبد إلى الكافر لأنه حينئذ متمكن من استخدامه إن كان عبدا، واستفراشها إن كانت أمة.

هذه أدلة الفريقين بالنظر فيها نجد: أن مذهب الجمهور هو الراجح في المسألة إذ لا معنى للتصحيح مع الجبر على البيع، فكان المنع ابتداء أولى.

ينظر: «أثر الاختلاف في الأحكام» لشيخنا/ بدران أبو العينين، «المغني» لابن قدامة (٤/ ٤١) ، «بدائع الصنائع» (٥/ ١٤٢) ، «المبسوط» (٣/ ١٢٠) .." [١]

"وقوله عز وجل: إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا ... الآية الهاء في إنه: مبهمة: وهي ضمير الأمر والشأن، والفريق المشار إليه: كل مستضعف من المؤمنين يتفق أن تكون حاله مع كفار مثل هذه الحال، ونزلت الآية في كفار قريش مع صهيب، وعمار، وبلال، ونظرائهم، ثم هي عامة فيمن جرى مجراهم قديما وبقية الدهر، وقرأ نافع وحمزة والكسائي: «سخريا» بضم السين «١» ، والباقون بكسرها فقيل هما بمعنى واحد ذكر ذلك الطبري «٢» .

وقال ذلك أبو زيد الأنصاري: إنهما بمعنى الهزء «٣» ، وقال أبو عبيدة وغيره: إن ضم السين من السخرة **والاستخدام**، وكسرها من السخر وهو الاستهزاء»

، ومعنى الاستهزاء هنا أليق ألا ترى إلى قوله: وكنتم منهم تضحكون.

وقوله سبحانه: كم لبثتم في الأرض عدد سنين ... الآية قوله: في الأرض قال الطبري «٥» معناه: في الدنيا أحياء، وعن هذا وقع السؤال، ونسوا لفرط هول العذاب حتى قالوا: يوما أو بعض يوم، والغرض توقيفهم

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣١٩/٢

على أن أعمارهم قصيرة أداهم الكفر فيها إلى عذاب طويل، عافانا الله من ذلك بمنه وكرمه!.
وقال الجمهور: معناه: كم لبثتم في جوف التراب أمواتا؟ قال ع «٦» : وهذا هو

---

(١) وحجتهم: إجماع الجميع على الرفع في سورة الزخرف، فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.
ينظر: «السبعة» (٤٤٨) ، و «الحجة» (٥/ ٣٠٢) ، و «إعراب القراءات» (٢/ ٩٥) ، و «شرح الطيبة» (٥/ ٨٠) ، و «العنوان» (١٣٧) ، و «حجة القراءات» (٤٩١) ، و «شرح شعلة» (٥١٠) ، و «إتحاف» (٢/ ٢٨٨) .
(٢) ينظر: الطبري (٩/ ٢٥٠) .
(٣) ذكره ابن عطية (٤/ ١٥٨) .
(٤) ذكره ابن عطية (٤/ ١٥٨) .
(٥) ينظر: «الطبري» (٩/ ٢٥٣) .
(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٥٨) .." [١]
"مقتحم أي داخل بشده ... مجاوز لما اقتحم بالشده
انتهى.
وقوله تعالى: قالوا ربنا من قدم لنا هذا ... الآية، هو حكاية لقول الأتباع أيضا دعوا على رؤسائهم بأن يكون عذابهم مضاعفا.

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٦٢ الى ٦٩]
وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار (٦٢) أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار (٦٣) إن ذلك لحق تخاصم أهل النار (٦٤) قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار (٦٥) رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار (٦٦)
قل هو نبأ عظيم (٦٧) أنتم عنه معرضون (٦٨) ما كان لي من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون (٦٩)
وقوله تعالى: وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ... الآية:
الضمير في قالوا لأشراف الكفار ورؤسائهم، وهذا مطرد في كل أمة، وروي أن قائلي هذه المقالة أهل القليب

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١٦٥/٤

كأبي جهل وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة، ومن جرى مجراهم، وأن الرجال الذين يشيرون إليهم هم كعمار بن ياسر، وبلال وصهيب، ومن جرى مجراهم، قاله مجاهد»

وغيره، والمعنى: كنا في الدنيا نعدهم أشرارا، وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو «اتخذناهم» بصلة الألف «٢» ، على أن يكون ذلك في موضع الصفة لرجال، وقرأ الباقون «أتخذناهم» بهمزة الاستفهام، ومعناها: تقرير أنفسهم على هذا على جهة التوبيخ لها والأسف، أي: اتخذناهم سخريا ولم يكونوا كذلك، وقرأ نافع وحمزة والكسائي: «سخريا» - بضم السين- من السخرة، **والاستخدام**، وقرأ الباقون: «سخريا» - بكسر السين «٣» -، ومعناها المشهور من السخر الذي هو بمعنى الهزء، وقولهم: أم زاغت معادلة لما في قولهم: ما لنا لا نرى والتقدير في هذه الآية: أمفقودون هم أم هم معنا، ولكن زاغت عنهم أبصارنا، فلا نراهم، والزيغ: الميل.

ثم أخبر تعالى نبيه بقوله: إن ذلك لحق تخاصم أهل النار والإشارة

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٢) برقم: (٣٠٠١٤) وبرقم: (٣٠٠١٥) عن مجاهد، وذكره البغوي (٤/ ٦٨) ، وابن عطية في «تفسيره» (٤/ ٥١٢) ، وابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤٢) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٩٥) ، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساكر عن مجاهد.

(٢) ينظر: «السبعة» (٥٥٦) ، و «الحجة» (٦/ ٨٢) ، و «معاني القراءات» (٢/ ٣٣١) ، و «شرح الطيبة» (٥/ ١٩٣) ، و «العنوان» (١٦٣) ، و «حجة القراءات» (٦١٧) ، و «شرح شعلة» (٥٦٦) ، و «إتحاف» (٢/ ٤٢٣) .

(٣) ينظر: «الحجة» (٦/ ٨٥) ، و «العنوان» (١٦٣) ، و «حجة القراءات» (٦١٨) ، و «إتحاف» (٢/ ٤٢٤) .. "[1]

"﴿أم يحسدون الناس﴾ منقطعة أيضا مفيدة للانتقال من توبيخهم بما سبق إلى توبيخهم بالحسد الذي هو شر الرذائل وأقبحها لاسيما على ما هم بمعزل من استحقاقه واللام في الناس للعهد والإشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وحمله على الجنس إيذانا بحيازتهم الكمالات البشرية قاطبة فكأنهم هم الناس لا غيره لا يلائمه ذكر حديث آل إبراهيم فإن ذلك لتذكير ما بين الفريقين من العلامة الموجبة لاشتراكهما في استحقاق الفضل والهزة لإنكار الواقع واستقباحه فإنهم كانوا يطمعون أن يكون النبي

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٧٤/٥

الموعود منهم فلما خص الله تعالى بتلك الكرامة غيرهم حسدوهم أي بل أيحسدونهم

﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾ يعني النبوة والكتاب وازدياد العز والنصر يوما فيوما وقوله تعالى

﴿فقد آتينا﴾ تعليل للإنكار والاستقباح وإلزام لهم بما هومسلم عندهم وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيين على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتي من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابرا عن كابر وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لإظهار كمال العناية بالأمر والمعنى أن حسدهم المذكور في غاية القبح والبطلان فإنا قد آتينا من قبل هذا

﴿آل إبراهيم﴾ الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم أو أبناء أعمامه

﴿الكتاب والحكمة﴾ أى النبوة

﴿وآتيناهم﴾ مع ذلك

﴿ملكا عظيما﴾ لا يقادر قدره فكيف يستبعدون نوبته صلى الله عليه وسلم ويحسدونه على إيتائها وتكرير الإيتاء لما يقيتضيه مقام التفضيل مع الإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة فإن أريد به الإيتاء بالذات فالمراد بآل إبراهيم أنبياؤهم خاصة والضمير المنصوب في الفعل الثاني لبعضهم إما بحذف المضاف أو بطريق **الاستخدام** لما أن الملك لم يؤت كلهم قال ابن عباس رضي الله عنهما الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام وإن أريد به ما يعمه وغيره من الإيتاء بالواسطة وهو اللائق بالمقام والأوفق لما قبله من نسبة إيتاء الفضل إلى الناس فالمراد بآل إبراهيم كلهم فإن تشريف البعض بما ذكر من إيتاء النبوة والملك تشريف للكل لاعتنائهم بآثاره واقتباسهم من أنواره وفي تفصيل ما أوتوه وتكرير الفعل ووصف الملك بالعظم وتنكيره التفخيمى منن تأكيد الإلزام وتشديد الإنكار مالا يخفى هذا هو المتبادر من النظم الكريم وإليه جنح جمهور أئمة التفسير لكن الظاهر حينئذ أن يكون قوله تعالى." (١)

"﴿أنزل من السماء﴾ أي من جهتها ﴿ماء﴾ أي كثيرا أو نوعا منه وهو ماء المطر ﴿فسالت﴾ بذلك ﴿أودية﴾ واقعة في مواقعه لا جميع الأودية إذ الأمطار لا نستوعب الأقطار وهو جمع واد وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام على الشذوذ كناد وأندية وناج وأنجية قالوا وجهه أن فاعلا يجيء بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم وعليم وحيث جمع فعيل على أفعلة كجريب وأجربة جمع فاعل أيضا على أفعلة فإن أريد بها ما يسيل فيها مجازا فإسناد السيلان إليها حقيقي وإن أريد معناها الحقيقي فالإسناد مجازي كما في جرى النهر وإيثار التمثيل بها على الأنهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن ما

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢/١٩٠

مثل بها كما أشير إليه ﴿بقدرها﴾ أي سالت ملتبسة بمقدارها الذي عينه الله تعالى واقتضته حكمته في نفع الناس أو بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغرا وكبرا لا بكونها مالئة لها منطبقة عليها بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعي لكثرة الموارد فإن مورد السيل الجاري في الوادي الصغير أقل من مورد السيل الجاري في الوادي الكبير هذا إن أريد بالأودية ما يسيل فيها أما إن أريد بها معناها الحقيقي فالمعنى سالت مياهها بقدر تلك الأودية على نحو ما عرفته آنفا أو يراد بضميرها مياهها بطريق **الاستخدام** ويراد بقدرها ما ذكر أولا من المعنيين ﴿فاحتمل السيل﴾ الجاري في تلك الأودية أي حمل معه ﴿زبدا﴾ أي غثاء ورغوة وإنما وصف ذلك بقوله تعالى ﴿رابيا﴾ أي عاليا منتفخا فوقه بيانا لما أريد بالاحتمال المحتمل لكون الحميل غير طاف كالأشجار الثقيلة وإنما لم يدفع ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للإيذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لا من جهة المحتمل تحقيقا للماثلة بينه وبين ما مثل به من الباطل الذي شأنه الظهور في بادي الرأي من غير مداخلة في الحق ﴿ومما يوقدون عليه فى النار﴾ أي يفعلون الإيقاد عليه كائنا في النار والضمير للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره وقرىء بالخطاب ﴿ابتغاء حلية أو متاع﴾ أي لطلب اتخاذ حلية وهي ما يتزين ويتجمل به كالحلي المتخذة من الذهب والفضة أو اتخاذ متاع وهو ما يتمتع به من الأواني والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغير ذلك من الفلزات ﴿زبد﴾ خبث ﴿مثله﴾ مثل ما ذكر من زبد الماء في كونه رابيا فوقه فقوله زبد مبتدأ خبره الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئا منه لا تبعيضية معربة عن كونه بعضا منه كما قيل لإخلال ذلك بالتمثيل وفي التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما في حيز الصلة من إيقاد النار عليه جري على سنن الكبرياء بإظهار التهاون به كما في قوله تعالى فأوقدلي يا هامان على الطين وإشارة إلى كيفية حصول الزبد منه بذوبانه وفي زيادة في النار إشعار بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصو ل الزبد كما أشير إليه وعدم التعرض لاخراجه من." (١)

"وقالوا أي: الرؤساء: ما لنا لا نرى رجالا، يعنون: فقراء المسلمين، كنا نعدهم في الدنيا من الأشرار من الأرذال الذين لا خير فيهم ولا جدوى، حيث كانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم، أتخذناهم سخريا، بهمزة الاستفهام، سقطت لأجلها همزة الوصل. والجملة: استئنافية، ومن قرأ بالوصل «١» فقط فالجملة: صفة ثانية لرجال، أم زاغت مالت عنهم الأبصار، والمعنى على الاستفهام: أتخذناهم سخريا وليسوا كذلك، فلم يدخلوا معنا النار فهم في الجنة، أم دخلوها معنا، ولكن مالت عنهم أبصارنا، فلا نراهم معنا؟ وعلى

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٤/٥

الاستخبار: ما لنا لا نرى رجالا معنا في النار، كانوا عندنا أشرار، قد اتخذناهم سخريا نسخر بهم، ثم أضربوا وقالوا: بل زاغت عنهم الأبصار، فلا نراهم فيها، وإن كانوا معنا، أو: زاغت أبصارنا، وكلت أفهامنا عنهم، حتى خفي علينا مقامهم، وأنهم على الحق ونحن على الباطل، وما تبعناهم. ومن قرأ «سخريا» بالضم «٢»

فـم ن:

التسخير **والاستخدام**. ومن قرأ بالكسر، فمن السخر، الذي هو الهزء. وجوز في القاموس الضم والكسر فيهما معا، فراجعه.

إن ذلك الذي حكى من أحوالهم لحق لا بد من وقوعه ألبتة، وهو تخاصم أهل النار فيها على ما تقدم.

ولما شبه تفاوضهم، وما يجري بينهم من السؤال والجواب، بما يجري بين المتخاصمين، سماه تخاصما، وبأن قول الرؤساء: لا مرحبا وقول الأتباع: بل أنتم لا مرحبا بكم من باب الخصومة لا محالة، فسمي التقاول كله تخاصما لا شتماله على ذلك.

الإشارة: كل من تعدى وطغى، ولم يتب، من المؤمنين، يرى شيئا من أهوال الكفرة، فلا يدخل الجنة حتى يتخلص، وكل من سخر بالفقراء يسقط في الحضيض الأسفل، ويكون سكناه في أسفل الجنة، فيقول: ما لنا لا نرى معنا رجالا كنا نعدهم من المبتدعة الأشرار، أتخذناهم سخريا، وهم كبراء عند الله، رفعوا عنا، أم هم معنا ولكن زاغت عنهم الأبصار؟ فيجابون: بأنهم رفعوا مع المقربين، كانوا مشتغلين بنا، وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون بالقرب ومشاهدة طلعتنا، في كل حين، وبالله التوفيق.

---

(١) قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ويعقوب «اتخذناهم» بوصل الهمزة بما قبلها، وبكسر الألف عند الابتداء. وقرأ الباقون بقطع الألف وفتحها، على الاستفهام. انظر الإتحاف (٢/ ٤٢٣) .

(٢) قرأ بضم السين نافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر. وقرأ الباقون بكسرها.." [1]

"﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ اعتراض لبيان أنهم إنما بنوا أمر دينهم على اللعب واللهو؛ لأن الحياة الدنيا غرتهم حتى أنكروا البعث.

﴿وذكر به﴾؛ أي: بالقرآن ﴿أن تبسل نفس بما كسبت﴾ مخافة أن تمنع نفس من النجاة، وتسلم إلى

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/٣٩

الهلكة والعقاب (٤) بسبب كسبها، وترهن بسوء عملها، كقوله: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر: ٣٨]، أو تبسر بسوء (٥) كسبها وعذابه، كقوله: ﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾ [القيامة: ٢٤].

الإبسال والبسل: المنع، ومنه أسد باسل: مانع أن يفلت فريسته (٦)، ويقال: بسر (٧) الرجل: إذا اشتد عبوسه، فإذا زاد قالوا: بسل.

﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ يدفع عنها العذاب.

* * *

(١) في (م) و (ك): "كسر ما عليه". (٢) في (م) زيادة: "وكشفنا خمار الغفلة". (٣) "عنهم" من (ك) و (م). (٤) في (م) و (ك): "والعذاب". (٥) في (م): "أو يقبس بسوء"، وفي (ف) و (ح): "تعب سوء"، والمثبت من (ك). (٦) في (م): "يفلت فريسة"، وفي (ح): "يغلب فريسة". (٧) في (ف): "بسل"، وفي (ك) و (م): "أبسر"، والمثبت من (ح)، وهو الموافق لما في "الكشاف" (٢/ ٣٦).

الجزء: ٣ - الصفحة: ٣٤٣

﴿وإن تعدل كل عدل﴾: وإن تفد كل فداء، والعدل: الفدية؛ لأنها تعادل المفدى، و ﴿كل﴾ نصب على المصدر.

و ﴿يؤخذ﴾ في قوله: ﴿لا يؤخذ منها﴾ مسند إلى ﴿منها﴾، لا إلى ضمير العدل إلا بطريق **الاستخدام** (١)؛ لأن العدل هاهنا مصدر لوقوعه مفعولا مطلقا، وهو ليس بمأخوذ، بخلاف قوله: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ [البقرة: ٤٨] لأنه المفدى به (٢).." [1]

"﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا﴾؛ أي: أسلموا إلى العذاب بسبب قبائح أعمالهم، استعمل الإبسال للإسلام إلى العذاب؛ لأن المسلم إليه يمنع المسلم.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٨٤/٣

﴿لهم شراب من حميم﴾ بما شربوا من القهوات (٣) ﴿وعذاب أليم﴾ بما تناولوا من الشهوات ﴿بما كانوا يكفرون﴾؛ أي: هم بسبب كفرهم بين ماء مغلي يتجرجر في بطونهم، ونار تشتعل بأبدانهم.

* * *

(٧١) - ﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾.

* * *

(١) **الاستخدام** على طريقة السكاكي وأتباعه: أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مرادا به أحد معانيه ثم يؤتى بضميره مرادا به المعنى الآخر. ولابن جماعة فيه وجه آخر. انظر: "الإتقان" للسيوطي (٣/ ٢٨٨). (٢) "به" زيادة من (م) و (ك). (٣) في (م): "الفهوات". والمراد بالقهوات: جمع القهوة: وهي الخمر، سميت بذلك لأنها تقهي شاربها عن الطعام، أي: تذهب بشهوته؛ أو تشبعه، هذا هو الأصل في اللغة ثم أطلقت على ما يشرب الآن من البن لثمر شجر باليمن. انظر: "تاج العروس" (مادة: قهو).

الجزء: ٣ - الصفحة: ٣٤٤

﴿قل أندعو﴾: نعبد ﴿من دون الله ما لا ينفعنا﴾ إن أطعناه ﴿ولا يضرنا﴾ إن عصيناه (١).

﴿ونرد على أعقابنا﴾؛ أي: نرتد عن ديننا ونرجع إلى ورائنا ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ فأنقذنا منه ورزقنا الإسلام، والمعنى: إنكار الرجوع إلى الشرك بعد الاهتداء (٢) إلى التوحيد.." [١]

"(٤) - ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون﴾.

﴿وكم من قرية﴾ (كم) خبرية منصوبة بفعل مقدر يفسره ﴿أهلكناها﴾؛ أي: وكثيرا من القرى أهلكناها.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٨٥/٣

﴿فجاءها باسنا﴾ فيه استخدام (١) وقلب: أما الأول: فلأن الضمير في ﴿أهلكناها﴾ للقرية باعتبار معناها الحقيقي، والضمير في ﴿فجاءها﴾ لها باعتبار معناها المجازي وهو أهلها.

وأما الثاني: فلأن أصل الكلام: وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها. ويجوز أن تكون الفاء تفصيلية ويكون الكلام على أصله.

﴿بياتا﴾ في موقع الحال؛ أي: بائتين.

﴿أو هم قائلون﴾ في محل النصب عطفا على ﴿بياتا﴾، كأنه قال: بائتين أو

* * *

(١) شرحه المؤلف في آخر رسالته المسماة: "رسالة في دفع ما يتعلق بالضمائر"، حيث قال: اعلم أن **الاستخدام** مرجعه إلى أن يراد باللفظ معنى ثم يراد بضميره معنى آخر، سواء كان المعنيان حقيقيين أو مجازين، أو أحدهما حقيقيا والآخر مجازيا، وهذا أولى مما قيل: هو أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما، ثم يراد بضميره الآخر؛ لأن الظاهر من قوله: (له معنيان) كونهما حقيقيين، وذلك غير لازم فيه. والرسالة المذكورة مطبوعة ضمن "مجموع رسائل العلامة ابن كمال باشا".

الجزء: ٤ - الصفحة: ١٠

قائلين، وإنما وقعت الجملة الاسمية حالا بغير واو، لا اكتفاء (١) بالضمير - لأنه غير فصيح - بل لعطفها على حال قبلها، فاستثقل اجتماع حرفي العطف؛ لأن واو الحال واو العطف استعيرت للوصل.

وتخصيص الوقتين بنزول العذاب لأنهما وقت دعة وغفلة، فيكون نزوله فيهما أشد وأفظع، وأما المبالغة في التعبير فلا اختصاص له بالوقتين.

* * *." (١)

"(١) في (ف): "آخر"، وفي (م): "آخر النهار". (٢) في (ف) زيادة "يقل". (٣) يعني: ﴿قال قائل منهم﴾ هذا واحد، ثم: ﴿قالوا لبثنا .. قالوا ربكم﴾ فالجمع في كل من ﴿قالوا﴾ الأول والثاني إذا كان أقله ثلاثة أصبحوا ستة، فيكون المجموع سبعة.

الجزء: ٦ - الصفحة: ٢٤٣

وبالتخفيف مكسور الواو مدغما وغير مدغم، ورد الإدغام لالتقاء الساكنين على غير حده (١).

والورق: الفضة المضروبة. نص عليه في "الصحاح" و"القاموس" (٢).

كانوا قد استصحبوا حين خرجوا دراهم لنفقتهم، وكانت حاضرة عندهم، فلهذا أشاروا إليها بقولهم: ﴿هذه﴾.

﴿إلى المدينة﴾ هي طرسوس.

﴿فلينظر أيها﴾ الضمير للمدينة والمراد أهلها بطريق **الاستخدام**، والمصير في أمثال هذا إلى الحذف من ضيق العطن (٣).

﴿أزكى طعاما﴾: أكثر بركة، قال ابن عباس وعلي ؟: إنه الأرز (٤)؛ فإنه يزاد بالطبخ، وهو من تدبير قليل البضاعة.

* * *." (٢)

"(ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٨٩)

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣/٣٠٤

(٢) تفسير ابن كمال باشا ٥/٣٥١

المفردات:

- نبعث: نرسل.

- شهيدا: شاهدا، وهو نبي كل قوم.

المعنى الإجمالي:

وما زال السياق سياق تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله سيبعث في كل أمة من الأمم نبيهم الذي أرسل منهم شاهدا عليهم، وسيكون محمد – صلى الله عليه وسلم – شاهدا على قومه.

وكذلك فإن الله سبحانه أنزل القرآن على محمد – صلى الله عليه وسلم – تبيانا لكل شيء تحتاجه أمته لصلاح دنياها وآخرتها، وهدى من الضلال، ورحمة لمن آمن به واتبعه، بل رحمته تتعدى من لم يؤمن، وكذلك أنزله سبحانه وتعالى ليكون بشرى للمسلمين.

المعنى التفصيلي:

- قال كثير من أهل التفسير: هذه الآية تكرير لقوله تعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون) (النحل: ٨٤)، وقالوا: هذا التكرير لتأكيد التهديد.

ولكن قوله تعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون) (النحل: ٨٤) جاء في سياق تسلية النبي – صلى الله عليه وسلم– بما سوف يحل بالكفار المكذبين من شهادة أنبيائهم عليهم، وبما سوف يلاقيهم من العذاب، وفق ما سبق بيانه في محله، بينما قوله تعالى (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ....) (٨٩) هو تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم بما له من مقام الشهادة، تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.

وأما قوله تعالى (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) ففيه زيادة في المعاني عن الآية (٨٤)، وهو أيضا توطئة لذكر شهادة النبي صلى الله عليه وسلم، ولما جاء من تخصيص الأنبياء عليهم السلام بالبعث (نبعث)، والنبي صلى الله عليه وسلم بـ (وجئنا بك).

- الواو (ويوم نبعث) استئنافية، و (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره: اذكر، أو: خوفهم.

وتقدير الفعل بـ "اذكر" أنسب في السياق؛ لأن السياق سياق تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتقدير الفعل بـ "خوفهم" فإنما يكون في سياق الإرشاد والأمر لا في سياق التسلية.

- (نبعث) النون للتعظيم؛ لأن هذا الأمر عظيم لا يقدر عليه إلا العظيم سبحانه وتعالى.

- (نبعث) أصل البعث في اللغة: الإثارة، ويختلف معناه وفق السياق، ففي قوله تعالى (... والموتى يبعثهم

الله ...) (الأنعام: ٣٦) يكون معنى البعث: إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم وتسييرهم إلى المحشر.

وفي هذه الآية (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا) يكون معنى (نبعث) هو: نرسل يوم القيامة النبي ليشهد على قومه.

- جاء النص (نبعث في كل أمة شهيدا) (نبعث في)، بينما جاء النص في الآية (النحل: ٨٤) (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ...) (نبعث من) وليس "في"، فما الفرق بين النصين؟

لقد بحثت فيما كتب فلم أجد - وفق جهدي - إلا من قال: ليوجد التفنن بين المكررين تجديدا لنشاط السامعين. ومنهم من قال: إن "في" بمعنى "من".

ولكن هنالك فرق بين "من" و"في"، أما أن الحروف يقوم بعضها مكان بعض دون معنى زائد لهذا **الاستخدام**، هو مما لا يصح؛ لأن كل حرف جاء لأداء معنى، فلا يكون قيام حرف مكان حرف ولا كلمة مكان كلمة إلا لمعنى زائد، عرفه من عرفه، وجهله من جهله.

فالبعث في قوله تعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ....) (النحل: ٨٤) هو بمعنى "جئنا" كقوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ...) (النساء:٤١) وكمعنى "نزعنا" (ونزعنا من كل أمة شهيدا ...) (القصص: ٧٥)؛ لأن أصل البعث الإثارة.

و قوله تعالى (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا) معناه أن الله يرسل النبي ليكون مقامه في قومه شاهدا عليهم.

أما لماذا استخدم هنا حرف "من" وهنا حرف "في" فبيانه ما يلي:

استخدم حرف "من" في قوله تعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ....) (النحل: ٨٤) للدلالة على أن النبي هو من القوم، أي: من أنفسهم، أما في قوله تعالى (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) فلا حاجة لاستخدام حرف "من" ليدل على أن النبي من القوم، لقوله تعالى (من أنفسهم) مما أغنى عن حرف "من".

ولو قلنا في غير التنزيل " ويبعث الله من كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم" لكان معناه " يبعث الله منهم شهيدا منهم" وهذا ليس من البلاغة.

ف"في" لا تغني عن "من"، قال تعالى (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) ((البقرة: ١٢٩) فمبعث الرسول فيهم لا يعني أنه منهم؛ لأن معنى (منهم) أي: من أنفسهم.

- (شهيدا) أي من يشهد على الأمم، فالشهداء في هذا السياق هم الأنبياء، ولا يدخل فيهم الملائكة؛ لقوله تعالى (شهيدا عليهم من أنفسهم) والملائكة ليست من جنس الأمم المشهود عليها.

- ما الفرق بين " الشاهد" والشهيد"؟

الشاهد اسم فاعل، والشهيد صفة مشبهة، وتدل الصفة المشبهة على الثبوت، أكثر مما يدل عليه اسم الفاعل، والتعبير عن النبي الذي يشهد على قومه بـ (الشهيد)؛ للدلالة على أنه لا يمارس الشهادة فحسب، بل الشهادة وصف ثابت له.

- قيل: إن المقصود بالشهيد هو أعضاء الإنسان التي ينطقها الله تعالى.

وهذا قول ضعيف؛ لأن قوله تعالى (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) يبين أن المعنى هو: يبعث الله نبيا في كل أمة ليشهد عليها، وأنت يا محمد ستكون شهيدا على هؤلاء الكفار.

ولو كان المقصود بـ (شهيدا) أعضاء البشر، لكان المعنى: ونجعل أعضاء البشر شهداء على كل البشر، ونجعلك أنت شهيدا على هؤلاء.

فانظر - بارك الله فيك - إلى ركاكة المعنى الذي يحفظ عنه كلام البشر، فما بالك بكلام رب العالمين؟!

- (من أنفسهم) فهم ليسوا ملائكة وليسوا خلقا آخر، بل هم منكم يعرفونكم، ويعرفون أحوالكم وأخباركم وأفعالكم وكل شيء عنكم.

- (وجئنا) الواو للعطف، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - سيشهد على أمته كما يشهد الأنبياء على أممهم.

- و الـ"نا" في (وجئنا) للتعظيم، فالمجيء بالنبي - صلى الله عليه وسلم - أمر عظيم لا يقدر عليه إلا العظيم سبحانه وتعالى.

- ولكن لماذا جاء الفعل (نبعث) مضارعا والفعل (جئنا) ماضيا؟

هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، ولذا كانت الآية إبرازا لشرف النبي - صلى الله عليه وسلم - في الآخرة، فجاء الفعل الخاص بالأنبياء (نبعث)، والخاص بالنبي صلى الله عليه وسلم (جئنا)، لأن فعل "بعث" لا يدل بمجرده إلا على الإرسال والإثارة دون الوصول، بينما الفعل "جاء" يدل على الوصول، فنقول: بعثت زيدا إلى السوق. وهذا البعث لا يدل على الوصول بمجرده إلا بوجود قرينة دالة على وصول زيد إلى السوق، أما قولنا: جاء زيد السوق. يعني أنه وصل.

ولذا ما سبق من أن البعث لا يلزم منه الوصول، والمجيء يلزم منه الوصول، فتخصيص المجيء للنبي صلى الله عليه وسلم يدل على أنه التشريف؛ للتنصيص على قمة مقام الشهادة، وهو قيام النبي مقام الشهادة، بينما الأنبياء بعثوا إلى الشهادة، وهم سيقومون مقام الشهادة، إلا أنه لم ينص على ذلك في هذا السياق تكريما للنبي صلى الله عليه وسلم.

- وجاء النص (وجئنا بك) وليس " وجئت "؛ لأن معنى " جئت ": وصلت وحدك، أما (وجئنا بك) فمعناه: أحضرناك، والمجيء بأحد من الناس ليس كبعثه، قال تعالى (وجيء يومئذ بجهنم ....) (الفجر: ٢٣) فعن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها) (مسلم: ٥٠٧٦) والزمام: الحبل الذي يسحب به.

فالنبي صلى الله عليه وسلم يجاء به، والذين يجيئون به هم الملائكة، فهو موكب ملائكي يحضر النبي صلى اله عليه وسلم، والإحضار في مقام التشريف تعظيم للتشريف، وفي مقام الإدانة تعظيم للإدانة، وما إحضار النبي - صلى الله عليه وسلم - ليشهد على قومه إلا مقام تشريف.

ولا يفهم أحد أنني لا أقدر الأنبياء قدرهم، ولكن هذا هو أسلوب التشريف، ولذا فالناظر في قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) (النساء: ٤١) يرى أن الآية قد جاءت في حق الأنبياء بـ (إذا جئنا ... بشهيد) وليس "إذا بعثنا" كما جاءت بحق النبي صلى الله عليه وسلم (وجئنا بك)؛ لأن السياق ليس سياق تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، إنما هو سياق تهديد للكفار، فذكر الأنبياء عموما والنبي صلى الله عليه وسلم بما يدل على كمال مقام الشهادة، وهو وصول الأنبياء لمقام الشهادة، ومن كمال التهديد، التهديد بكمال ما يكون به التهديد.

- (بك) أي يا محمد، وكان من جهة المعنى أن يكتفى بـ (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) فيشمل النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولكنها التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.

- (شهيدا) حال من كاف المخاطب (بك)، وهذا تشريف للنبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يكون مقامه مقام الشهيد، في يوم لا يكون لأحد فيه مكانة إلا من جعل الله - سبحانه وتعالى - له المكانة.

- (هؤلاء) أي الكفار، ولكن لماذا ذكر الجار والمجرور (على هؤلاء) بعد (شهيدا) في قوله تعالى (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء)، بينما تقدم ذكر الجار والمجرور في قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) (النساء: ٤١)؟

سياق آية النحل سياق تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم؛ ولذا قدم ذكر (شهيدا) لتشريف النبي - صلى الله عليه وسلم - من باب التسلية، أما سياق آية النساء، فتقدم الجار والمجرور لأن محور السياق هو التهديد للكفار، وانظر - بارك الله فيك للسياق:

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (٣٧) والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا

(٣٨) وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما (٣٩) إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما (٤٠) فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (٤١) يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا (٤٢)) (النساء)

أما ما قيل: إن تقديم الجار والمجرور في آية النساء من أجل الفاصلة القرآنية، أي مراعاة لجانب الجمال الصوتي في ختم الآية، وهذا ما يقابله في الشعر ما يعرف – من باب التقريب – بالقافية، فهذا لا يصح؛ لأن الله قادر على أن يأتي بصيغة أخرى تراعي الفاصلة دون هذا التقديم، وكيف يكون هذا مع أن للتقديم معنى؟!!

– قد يقال: كيف نوفق بين قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) (المائدة: ١٠٩) وبين قوله تعالى (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ...) (النحل: ٨٩)؟

الجواب عن هذا أن آية النحل واضحة بينة في شهادة الرسل على أقوامهم، وفي القرآن غيرها من الآيات مما يدل على شهادة الرسل على أممهم، بينما آية المائدة تحتمل عدة احتمالات:

الأول: لا علم لنا، أي: بالمقارنة مع علمك، فنحن نعرف ظواهر الأمور لا بواطنها.

الثاني: من باب التأدب، ولله المثل الأعلى، فالطالب من يتأدب أمام العالم عندما يسأله عن معرفته بالعلم، فيقول له: العلم عندكم، أما أنا فبحاجة أن أتعلم. علما بأن المسؤول قد يكون على حظ ما من العلم، ولكنه التأدب مع البشر، فكيف بالتأدب مع الله سبحانه وتعالى رب البشر؟؟!!

وقيل غير ذلك، وخلاصة القول، أن ما يحتمل عدة معان، يحمل على ما هو أحكم منه وأوضح، فالرسل يشهدون على أقوامهم، وفي ضوء هذا المعنى المحكم تفهم الدلالات المتشابهة، أي: إنما السبيل برد المتشابه إلى المحكم.

– (ونزلنا) الواو للعطف، أي يا محمد لا تحزن من تكذيب هؤلاء؛ فإنك ستقوم عليهم شهيدا يوم القيامة، وكذلك يا محمد فقد نزل الله عليك القرآن. وكل هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.

أما من قال: إن الواو استئنافية، فإنه لم ينتبه إلى أن الآية في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، وأنها تعدد نعم الله على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليكون ذلك تسلية له عليه الصلاة والسلام، ومعنى الآية: يا محمد لا تحزن فإن لك مقام الشهادة على هؤلاء، وإنا قد أنزلنا إليك القرآن تبيانا ......

- (ونزلنا) "نزل" فعل مضعف للتعدية، أي: حتى يتحول الفعل من كونه لازما، إلى فعل يتعدى إلى مفعول. و"نا" للتعظيم؛ لأن أمر تنزيل القرآن أمر عظيم لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى الواحد العظيم.

- لكن لماذا العدول في القرآن عن تعدية الفعل بالهمزة "أنزل" إلى تعديته بالتضعيف "نزل"؟

قيل: العدول عن تعدية الفعل بالهمزة "أنزل" إلى تعديته بالتضعيف"نزل"؛ لتقوية معنى الفعل، قال تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل) (آل عمران: ٣) فقوله تعالى (نزل عليك الكتاب) أهم من (وأنزل التوراة والإنجيل) للدلالة على أن نزول القرآن عظيم، وأنه أعظم من التوراة والإنجيل.

وقيل: العدول عن تعدية الفعل بالهمزة "أنزل" إلى تعديته بالتضعيف "نزل"؛ للدلالة على نزوله منجما، قال تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل) (آل عمران: ٣) فالقرآن نزل منجما، بينما التوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة.

أقول: قد يكون هذين القولين مقبولين في تفسير (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل)، وكذلك في تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله و الكتاب الذي أنزل من قبل ...) (النساء: ١٣٦)؛ وذلك لورود (نزل) و (أنزل) في آية واحدة، أو سياق واحد، بينما لا يكون مقبولا في كل آيات القرآن؛ لقوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) (الفرقان: ٣٢) فالكفار طلبوا أن ينزل القرآن جملة واحدة بفعل مضعف (نزل)، وهذا يرد أن التضعيف لتقوية المعنى تعظيما للقرآن، ويرد على أن التضعيف يعني نزول القرآن منجما؛ لأنهم طلبوا نزوله جملة واحدة (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة)

وقال تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (الزخرف: ٣١) فـ (نزل) ليس لتقوية المعنى تعظيما للقرآن.

ولو كانت التعدية بالتضعيف أقوى من التعدية بالهمزة، لكان الإنزال في قوله تعالى (ولو نزلناه على بعض الأعجمين) (الشعراء: ١٩٨) أقوى منه في قوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين) (الدخان: ٣) (إنا أنزلناه في ليلة القدر) (القدر: ١)، وهذا غير صحيح؛ لأن السياق في سورتي (الدخان) و (القدر) لتعظيم القرآن.

وقد استعرضت كل آيات القرآن التي ورد فيها الفعل "نزل" معدى بالهمزة والتضعيف، ولكني لم أحصل على نتيجة يطمئن إليها القلب، وإن كتب الله في العمر بقية فسأدرس هذه الآيات وفق سياقها، لعلي أقف

على فائدة ما قد يدلني عليها السياق.

- (ونزلنا) جاء الفعل ماضيا مع أن نزول الكتاب لم يكتمل؛ لأن المقصود بالكتاب هو القرآن، والقرآن هو كلام الله، أي: نزلنا عليك كلام الله.

إذن؛ يصدق تنزيل كلام الله على تنزيل آية، وقد نزل قبل هذه الآية آيات وآيات.

- ولكن لماذا جاء الفعل ماضيا في قوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب) بينما جاء فعلا مضارعا (ننزل) في قوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ...) (الإسراء: ٨٢)؟

جاء الفعل ماضيا في قوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب)؛ لأن الهدف من إنزال القرآن أن يكون (تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)، وهذا الهدف متحقق بنزول أول آية من القرآن، لأنها عندما نزلت إنما نزلت لأجل هذا الهدف.

بينما آيات الشفاء والرحمة لم يكتمل نزولها وقت نزول قوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ...) (الإسراء: ٨٢)، فجاء الفعل المضارع ليرشدنا إلى أن التنزيل ما زال مستمرا.

- (ونزلنا عليك الكتاب) ذكر الجار والمجرور (عليك) أي: يا محمد؛ تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك قدم ذكر الجار والمجرور؛ لأن السياق ابتداء إنما هو تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.

- (الكتاب) أي: القرآن، و"الكتاب" في أصله مصدر، نقول: كتب كتابا، وكتب كتابة، كقوله تعالى (وكل شيء أحصيناه كتابا) (النبأ: ٢٩) أي: كتابة، و (الكتاب) اسم للصحيفة مع المكتوب فيها.

ويطلق اسم "الكتاب" على القرآن وغيره، وإطلاق الكتاب على القرآن مجردا عن أي إضافة يدل على تعظيمه، فهو الكتاب الأعلى ولا كتاب غيره في مقامه.

- (تبيانا) مصدر على وزن تلقاء، وهو مفعول لأجله، وما بعده (وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) معطوف عليه، لأن القرآن نزل لأجل هذه الأشياء، أو أن (تبيانا) مصدر في موضع الحال، وهذا أيضا مقبول؛ لأن قوله تعالى (تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) يدل على حال القرآن.

وإن كنت أميل إلى أن (تبيانا) مفعول لأجله؛ قال تعالى (... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ...) (النحل: ٤٤) فاللام في (لتبين) للتعليل، وهذا معنى المفعول لأجله، فالذكر إنما أنزل لأجل التبيان.

- (تبيانا لكل شيء) أي: لكل شيء يحتاجه الناس في دينهم، لأن القرآن كتاب هداية، ففيه كل ما يتصل بالهداية، ومما لا يصح هو أن نطلب أي علم في القرآن بدعوى أنه تبيان لكل شيء، لأن هذا العموم مخصوص، كما لا يقبل قول القائل: إن ريح عاد دمرت الشمس والقمر والكواكب إلا مساكنهم الخالية

بدليل (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين) (الأحقاف: ٢٥) وإن كان قوله تعالى (تدمر كل شيء) عموما، لكنه عموم مخصوص بأن الريح التي أرسلت على عاد تدمر كل شيء تدمره الريح في قوم عاد، وكذلك قوله تعالى (تبيانا لكل شيء) أي من الأشياء التي نزل القرآن لبيانها من هداية الدين.

فعلم الخياطة ليس في القرآن؛ لأنه لا ارتباط له بالهداية، وهذا الأمر من الوضوح بمكان، ولولا أن كثيرا من الناس أخذ يبحث عن أصول علوم دنيوية في القرآن محتجا بهذه الآية لما علقت، وإنني لأشاهد في كل يوم باحثا يخاطب العامة عبر الفضائيات ليقول لهم: إن الآيات كذا وكذا أسست لعلم كذا وكذا، ويحمل الآيات من المعاني ما يستحيل أن يفهم منها.

وكذلك قوله تعالى (... ما فرطنا في الكتاب من شيء ...) (الأنعام: ٣٨) فالكتاب هنا على الراجح هو اللوح المحفوظ، لأننا لا نجد كل شيء في القرآن، وإن حاول بعض أهل العلم إثبات ذلك، فإن من المعلوم بداهة أن القرآن لا يحتوي على تفصيل كل شيء على الإطلاق، وسياق الآية هو (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) (الأنعام: ٣٨) وهو سياق يتكلم عن كل الداوب في الأرض وعن كل الطيور، وهل يحوي القرآن تفصيل كل هذه الأشياء؟!!

وإذا قلنا: إن الكتاب هو القرآن، فيكون المعنى: ما فرطنا في بيان أي شيء يخص الهداية.

- وقد احتج بعض الزائغين بقوله تعالى (تبيانا لكل شيء) على رفض السنة، بحجة أن القرآن فيه بيان كل ما يحتاج الناس في الدين.

فيقال لهؤلاء: نعم، إن القرآن بين كل ما نحتاجه في الدين، وبين لنا أن نطيع الرسول بما أمر، وننتهي عن ما نهى عنه وزجر؛ قال تعالى (... وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) (الحشر: ٧)، وقال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) (المائدة: ٩٢).

- (وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) وحمل الهداية على المعنى الواسع الذي يشمل المؤمنين والكفار هو الأولى؛ إذ لا مقيد كما في قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (البقرة: ٢)، وكذلك الرحمة، فحملها على المعنى الواسع أولى، فالقرآن رحمة للمؤمنين، وكذلك ينول الكفار من رحمة القرآن بما سن لنا من العدل والحق وغير ذلك، أما البشرى، فإنما هي للمسلمين الذين استسلموا لربهم وخضعوا له وعملوا الصالحات.

- روى الطبري عند تفسيره هذه الآية قولا لابن مسعود: أنزل في هذا القرآن كل علم، وكل شيء قد بين لنا في القرآن. ثم تلا هذه الآية، أي (... ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ...).
ولكن سند هذا الأثر عن ابن مسعود ضعيف؛ لأن فيه راو مبهم. ولو صح الأثر لكان المقصود من كلام ابن مسعود (كل علم، وكل شيء) أي مما يحتاجه الناس في دينهم؛ لما سبق من بيان معنى الآية، فلا حاجة للإعادة.." (١)

"إضافة إلى الأنهار الأخرى من العسل ومن اللبن ومن الماء، ويطوف عليهم للخدمة، يطوف على أهل الجنة يخدمونهم غلمان أرقى لهم، يطوف عليهم للخدمة غلمان لهم، ما قال: غلمانهم يطوف عليهم غلمانهم، يقول: يطوف عليهم لخدمتهم غلمان لهم أرقى؛ لأنه لو قال غلمانهم لاستصحب الإنسان ما كان هل في الدنيا من كان يخدمه في الدنيا يخدمه في الآخرة، ومن لا يخدم في الدنيا لا يخدم في الآخرة، لكن ﴿غلمان لهم﴾ [(٢٤) سورة الطور] يعني للجميع ليست للمخدوم في الدنيا دون غيره، غلمان للخدمة، خدمة في طلب جميع ما يشتهون، في إحضار جميع ما يشتهون.
وجاء في بعض الآثار أنه إذا نادى قال له ألف غلام على بابه: لبيك، لبيك، نعيم دائم لا تبلغه الأفهام، ولا تدركه الأوهام، نعيم لا يخطر على قلب بشر، وهناك كتاب اسمه -نسيت أول اسمه-، لكن في الرد على الخواطر الشيطانية من بعض الكتاب المعاصرين، ممن استولى على أفكارهم الشياطين قال: إنهم يستخدمون هؤلاء الغلمان في **الاستخدام** القبيح في الدنيا -نسأل الله العافية-، ويقولون: إنهم يتمتعون بهم في الآخرة، وهذا كلام باطل وهو في الدنيا قبيح فكيف بالآخرة؟ على كل حال هذا الكلام إنما يقال؛ لئلا يغتر به، وله عليه رد طيب اسمه: في الرد على فلان في خواطر شيطانية، أو في بعيد العهد عني الكتاب، لكنه قول شنيع نسأل الله السلامة والعافية، ولا يظن بهذا القول إلا أنه نسأل الله السلامة والعافية أنه ممن فتن بهذا العمل.." (٢)

"و (لا يشعرون) أي لا تدركون بالحواس ودلالة (لا يشعرون) في هذا الموضع أبلغ من أية دلالة أخرى مثل لا يعلمون لأن العلم متحقق بعد وجود شيء ما معروف في العقل وليس الشعور بشيء مادي، بل هو شيء معنوي دقيق كل الدقة كخبر ولادة موسى (- عليه السلام -) ، وكونه بين ظهراني قوم فرعون، وأما دلالة (يعقلون) هاهنا فقد تكفل بهما وببيانهما الراغب الأصبهاني إذ قال:

---

(١) التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني سامي القدومي ص/١٧٩

(٢) التعليق على تفسير الجلالين - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ١٨/١٣

" ولو قال في كثير مما جاء فيه (لا يشعرون) لا يعقلون لم يكن يجوز، إذ كان كثير مما لا يكون محسوسا قد يكون معقولا " ((١)) ، والشعور إحساس، والعقل معرفة ونحن نرى أن هذه الآيات كذلك، وهو يوافق ما ذهبنا إليه آنفا، لأن المعنى هو أن عدم شعورهم يعني انهم لم يحسوا بلهفتها عليه، ولو قيل: إنهم لا يعقلون لكان المعنى أنهم لا عقل لهم قط.

ونحن نجد أن قوله تعالى: ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾ ((٢)) يثير سؤالا هو: لماذا جاءت الصيغة القرآنية (يستصرخه) هكذا، ولم تجيء في **الاستخدام** أية صيغة أخرى مثل (يستنجده) ، أو (يستغيثه) ، أو (يستنصره) ؟

والجواب عن ذلك هو أن أية صيغة أخرى إذا ما وضعت موضع كلمة

(يستصرخه) لا يمكن أن تدل على المضمون الذي دلت عليه الصيغة القرآنية، فلو قلنا (يستنجده بالأمس) دل ذلك على طلب النجدة ولم يكن ذلك حال الرجل. ولو قلنا: (يستغيثه) لم يكن ذلك **الاستخدام** مناسبا، فطلب الغوث دعاء من قريب لبعيد، وليس ذلك واقع الحال، لأنهم كانوا جميعا في مكان واحد.

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن: ص ١٢ / ٢٣٠.

(٢) سورة القصص: الآية ١٨.." [1]

"واستخدام صيغ الماضي بكثرة في سورة القصص مثلما ورد في قصة موسى (- عليه السلام -) مثلا: ﴿علا في الأرض﴾ ((١)) ، ﴿وجعل أهلها شيعا﴾ ((٢)) ،

﴿فالتقطه آل فرعون﴾ ((٣)) ، ﴿وقالت امرأة فرعون﴾ ((٤)) ﴿وحرمنا عليه

المراضع﴾ ((٥)) ، ﴿ولما بلغ أشده﴾ ((٦)) ، ﴿ودخل المدينة﴾ ((٧)) ، مشعر في حد ذاته بأن الزمن الماضي مرتبط ارتباطا وثيقا بالزمن الحاضر لا يكاد ينفصل عنه أبدا، لأن ذلك **الاستخدام** لا يكاد يفارق ما مضى إلا لدلالة أخرى بقرينة أخرى، فقوله تعالى: ﴿علا في الأرض﴾ هو نفسه (يعلو) و (سيعلو) لما ضارع ولما استقبل في دلالته، وكذلك تنبه لهذه الدلالة الماضية الإمام الآلوسي ـ رحمه الله برحمته ـ فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ ((٨)) ، " (بالأمس) منذ زمان قريب، وهو مجاز شائع، وجوز حمله على الحقيقة، والجار والمجرور متعلق بـ (تمنوا) أو بمكانه، قيل: والعطف بالفاء التي تقتضي التعقيب في (فخسفنا) يدل عليه " ((٩)) .

---

(١) سورة القصص دراسة تحليلية محمد مطني ١٢٤/١

(١) سورة القصص: الآية ٤.

(٢) سورة القصص: الآية ٤.

(٣) سورة القصص: الآية ٨.

(٤) سورة القصص: الآية ٩.

(٥) سورة القصص: الآية ١٢.

(٦) سورة القصص: الآية ١٤.

(٧) سورة القصص: الآية ١٥.

(٨) سورة القصص: الآية ٨٢.

(٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي. ت ١٣٠٧ هـ. إدارة الطباعة المنيرية بمصر (د. ت) : ٢٠ / ١٢٤.." [١]

"وقوله تعالى: ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ ((١)) ، يدل في

(تمشي) وهو فعل مضارع تام على أن المشي استمر في النص، وهذه دلالة زمنية بليغة كل البلاغة تشعر بإعجاز النص القرآني.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ ((٢)) ، فقد توالت الأفعال المضارعة تواليا جعلها سنة إلهية خاصة بكل مجموعة من الناس في الماضي، والحاضر، والمستقبل.

وهذه الدلالات المضارعة تنبه لها الزمخشري رحمه الله فقال: " وجيء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية، ويؤول معناه إلى قولك: ولولا قولهم هذا " ((٣)) ، فجعل الزمخشري هذه الآية دالة على الزمن بكل دلالاته.

فقد قدمنا فيما مضى استعراضا موجزا يبرز مكامن دلالات الزمن في سورة القصص، لنبرهن على جمالية (**الاستخدام** القرآني) ليجعل منه نصا متحركا قابلا للعمل به في كل زمان ومكان.

(١) سورة القصص: الآية ٢٥.

(١) سورة القصص دراسة تحليلية محمد مطني ١٥٢/١

(٢) سورة القصص: الآية ٤٧.

(٣) الكشاف الزمخشري: ٣ / ١٨٣.." [1]

"اللغة: أهاب: أخاف، الصفاح: جمع صفيحة، وهي السيوف العراض، والإسعاد: الإعانة، اللمح: النظر الخفيف، والخلل: الفرجة بين الشيئين، والأستار: جمع ستر، الكلل: جمع كلة، وهي الستر الرقيق.

الإعراب: الواو: عاطفة، ولا: نا فية، وأهاب: فعل مضارع، والصفاح: مفعول به، والبيض: منصوب على الصفة للصفاح، تسعدني: فعل مضارع من أسعد، وهو مرفوع، باللمح: الباء هنا للاستعانة، من: هنا لابتداء الغاية، والكلل: الواو: عاطفة، وموضع يسعد في هذه الجملة وما بعدها في موضع الحال؛ لأنه قال: ولا أهاب الصفاح البيض في حالة إسعادها إياي باللمح.

المعنى: هذا كالبيت الذي تقدم، ومعناه إني لا أخاف السيوف البيض إذا كانت تساعدني بالتماحها من خلل الأستار، قال الأرجاني (١): (من المتقارب)

وفي الحي كل كليل اللحاظ ... يطالعنا من خصاص الكلل

يذيب الفؤاد بتعذيبه ... وأيسر أمر الهوى ما قتل

هذا قول أبي الطيب: أحلا وأيسر ما لاقيت ما قتلا (٢) ....

وفي بيت الطغرائي من البديع **الاستخدام**، وهو أن يكون للكلمة معنيان، فيؤتى بعدها بكلمتين، أو يكتنفانها، فيستخدم في كل واحدة منهما معنى مد ذينك المعنيين، ومثل /أرباب [٥٠ أ] البديع في هذا بقول أبي الطيب (٣): (من الطويل)

برغم شبيب فارق السيف كفه ... وكانا على العلات يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه ... عدوك قيسي وأنت يمان

فيماني له معنيان، أحدهما السيف، والآخر ضد قيس، ولم تزل العداوة بين قيس وأهل اليمن، وهكذا قول الطغرائي؛ لأنه ذكر الصفاح، وهي هنا مشتركة بين السيوف، وبين العيون مجازا، وقد غلب العرف عليها بين الشعراء، فصار حقيقة عرفية، فأمكن اعتبار الاشتراك، فقال: لا أهاب الصفاح البيض، فهو إلى هنا الحقيقة اللغوية، والسامع يظنه في ذكرها، ثم ترك ذاك المفهوم الأول، وأخذ في المفهوم الثاني فقال تسعدني باللمح من خلال الأستار والكلل، فاستعمل الصفاح في العيون، وهي الحقيقة العرفية، وهذا في غاية الغزل؛ لأنه يقول: أنا لا أهاب السيوف ووقوعها إذا كانت تسعدني على جراحي باللمح من فروج الأستار، أي ما

(١) سورة القصص دراسة تحليلية محمد مطني ١/١٥٤

السيوف غيرها. وما أحسن قول ابن التعاويذي (٤): (من البسيط)

---

(١) ديوانه (م)

(٢) صدر بيت من البسيط، وعجزه: والبين جار على ضعفي وما عدلا، ديوانه ١/ ٥٩، وفي الديوان: أحيا وأيسر، وليس أحلا

(٣) ديوانه ٢/ ٢٣٨.

(٤) ديوانه، ص ٤١٣، وفيه: مشاركة، وليس مشاكلة.." [1]

"عناصر الدرس

* قوله: "واللف والنشر **والاستخدام** ... أيضا وتجريد له أقسام".

* تعريف كل نوع: لغة، واصطلاحا، ومثال كل منها.

* قوله: "ثم المبالغة وصف يدعى ... بلوغه قدرا يرى ممتنعا".

* تعرف المبالغة، وأقسامها، ومثال كل نوع منها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد:

قال الناظم رحمه الله تعالى:

واللف والنشر **والاستخدام** أيضا وتجريد له أقسام

ثم المبالغة وصف يدعى بلوغه قدرا يرى ممتنعا

أو نائيا وهو على أنحاء تبليغ اغراق غلو جاء

مقبولا او مردودا التفريع وحسن تعليل له تنويع

واللف والنشر: ذكر في هذا البيت ثلاثة ألقاب من ألقاب الضرب الأول وهو المعنوي، قوله: واللف بالرفع معطوف على قوله: وعد من ألقابه المطابقة، أي: وعد من ألقابه المطابقة، واللف والنشر: هذا مركب وليس اللف لوحده لقبا، ولا النشر لوحده لقبا، وإنما هو بمجموع الطرفين.

واللف والنشر، أي: وعد من ألقابه اللف والنشر، واللف في اللغة: مصدر لف الشيء إذا جمعه، والنشر

---

(١) شرح لامية العجم للدميري، الدميري ص/٨٦

مصدر نشره إذا بسطه، إذا: جمع وبسط، اللف: هو الجمع، والنشر: هو البسط، فيجمع أولا، ثم بعد ذلك يبسط ما جمعه.

واللف والنشر اصطلاحا عند البيانيين: هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، فيذكر شيئا متعددا، يعني: له أفراد، إما أن يذكره على جهة الإجمال كدخوله تحت ضمير: قالوا، حينئذ جمع بين متعدد، أو على جهة التفصيل، بأن يذكره مفصلا: ((ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله)) [القصص:٧٣] ففصل .. جمع الليل والنهار، ثم بعد ذلك قال: لتسكنوا هذا راجع إلى الليل، والابتغاء هذا راجع إلى النهار، حينئذ جمع بين اثنين وهما مفصلين.

إذا: ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم بعد الجمع هذا هو اللف، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه، يعني: إحالة على ذهن السامع، السامع هو الذي يفهم بأن النشر إنما يكون تابعا للأول من اللف، والثاني يكون تابعا للثاني، أو أن يكون مشوشا ليس فيه ترتيب، وإنما يكون النظر إلى ذهن السامع.

وعرفه السيوطي في شرحه على عقود الجمان بقوله: " أن تذكر شيئين أو أشياء، إما تفصيلا بالنص على كل واحد "كما ذكرنا في المثال السابق: ((جعل لكم الليل والنهار)) [القصص:٧٣] فصل .. سمى الليل وسمى النهار، أو إجمالا، ((وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى)) [البقرة:١١١] قالوا: الواو هنا فيه إجمال، لأنه أراد به اليهود والنصارى، فذكر متعددا، لكنه كنى عنه بالضمير وهو الواو، أو إجمالا: بأن تأتي بلفظ يشتمل على متعدد، ثم تذكر أشياء على عدد ما ذكرته كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم، وتفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به لا أنك تنص عليه، هذه عبارة السيوطي رحمه الله تعالى في شرحه على عقود الجمان، حينئذ يكون النظر هنا بالإحالة إلى فهم السامع، هو الذي يرد هذا إلى ذاك، وإن كان قد يقع فيه شيء من اللبس، لكن الفطن لا يلتبس عليه شيء من ذلك البتة.." (١)

"على كل هذا يسمى: مشوش بفتح الواو عند البانيين، وهذا هو المشهور، وسماه التفتزاني: مختلط الترتيب، حينئذ ليس فيه ترتيب وإنما هو مختلط بمعنى: أن الأول قد يعود إلى الثاني وكذلك الثاني يعود للأول، والثالث يعود للثالث، ومثال هذا النوع قولك مثلا: هو شمس وأسد وبحر جوادا وبهاء وشجاعة، جوادا: هذا يعود للأخير البحر، وبهاء: هذا يعود للأول شمس، وشجاعة: هذا يعود للثاني وهو الأسد، وهذا مثال ذكره المرشدي في شرح عقود الجمان.

---

(١) شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، أحمد بن عمر الحازمي ١/٤٤

واختلف: هل الأفضل المرتب أو غيره؟ إذا عرفنا أن التفصيل على ثلاثة أنحاء: مرتب طردا، مرتب عكسا، مشوش لا مرتب لا طردا ولا عكسا، أي هذه الأنواع الثلاثة أفضل؟ هل الأفضل المرتب، أو غيره الشامل للمعكوس والمشوش؟ يعني: هل الأفضل الأول، أم الثاني والثالث؟ فالشلوبين على الأول أن المرتب هو أفضل، وابن رشيق وهو من البيانيين –وإن كان الشلوبين أكثر في النحو– على الثاني، يعني: غير المرتب المشوش المعكوس أفضل من المرتب، وقال الشيخ عز الدين بن جماعة: والحق عندي أن الأول يعني الشلوبين أراد لغة، يعني: فضل المرتب من جهة اللغة، والآخر الذي هو ابن رشيق أراد بلاغة، إذا: انفكت الجهة، وإذا انفكت الجهة حينئذ لا خلاف، إذا: ليس بينهم خلاف من جهة أن الأفضل هل هو المرتب أم غيره.

حينئذ إذا كان كذلك رجعنا إلى المشهور عند البيانيين: وهو أن المرتب طردا هو أحسن الأنواع الثلاثة، الذي هو الأول: ((ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله)) [القصص:٧٣] هذا أعلى الأنواع وهو أحسنها، وما ذهب إليه ابن رشيق على أن الثاني أفضل الذي هو المشوش المعكوس المراد به بلاغة، والأول أراد به لغة، فلم يتواردا على شيء واحد فلا اختلاف في الحقيقة بين المفضلين.

واللف والنشر: هذا ما يتعلق بهذا النوع.

والاستخدام، أي: وعد من ألقابه المطابقة **والاستخدام**، بالخاء المعجمة استفعال من الخدمة، سمي بذلك لأن الكلمة خدمت بمعنيين، كلمة واحدة لها معنيان، لفظ مشترك كما ذكرناه في التورية، إذا: لفظ مشترك يخدم معنيين، يعني: في تركيب واحد قد يراد بهذه الكلمة معنى من جهة إطلاقها أولا، وقد يراد به المعنى الآخر من جهة عود الضمير إليه، وهذا مر معنا في كلام المصنف كثيرا، إذا: هو استفعال من الخدمة، سمي بذلك لأن الكلمة خدمت المعنيين فجعل المعنى الذي لم يرد أولا تابعا في التركيب خدمة للمعنى المراد فرد إليه الضمير، كما ذكرنا الكلمة لها معنيان، تطلق هذه الكلمة مرادا بها أحد المعنيين ابتداء، ثم في أثناء التركيب يعود الضمير إلى المعنى الثاني.." (١)

"كيف توصلنا إلى المعنى الثاني الذي أطلقت الكلمة ابتداء ولم يرد؟ نقول: لأن المعنى الأول الذي أريد بهذا اللفظ قد خدم الثاني، يعني: كان موطئا ومقدمة للمعنى الثاني، ولذلك صح عود الضمير عليه، كذا قاله السبكي، وفيه أنهم جعلوا الفرق بينه وبين التورية .. إذا: ما الفرق بين **الاستخدام** و؟؟؟ كل منهما لفظ مشترك، وكل منهما يطلق ويراد به أحد المعنيين، إذا ما الفرق؟ وهذا في الجملة، والفرق بين **الاستخدام**

(١) شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، أحمد بن عمر الحازمي ٥/٤٤

وبين التورية أن التورية يراد بها أحد المعنيين في الظاهر، مع لمح الآخر في الباطن، **والاستخدام** يراد به كلاهما، إذا: أنت أطلقت في التورية اللفظ المشترك أردت به المعنى الظاهر، وأما المعنى الآخر فهو غير مراد أصلا، لم يقصده المتكلم بكلامه، وإن لاحظه المخاطب.

وأما **الاستخدام** فالمعنيان كلاهما مرادان في هذا التركيب، ففرق بينهما، **والاستخدام** يراد به كلاهما، اللهم إلا أن يكونا .. أو تكون الإرادة في **الاستخدام** وإن تعلقت بكليهما ليست على حد سواء، هكذا عبر المرشدي في شرحه.

وعرفه السكاكي بقوله: " إطلاق لفظ مشترك بين معنيين مراد به أحدهما، ثم يعاد عليه ضمير مراد به المعنى الآخر " إطلاق لفظ مشترك يراد به في أول الأمر أحد معنييه، ثم يعاد عليه ضمر ويراد به المعنى الآخر الذي لم يطلق ابتداء عليه، هذا يسمى: استخداما، أو –النوع الثان–: يعاد عليه ضميران مراد بكل واحد منهما واحد، يعني: يطلق اللفظ ويعود عليه ضمير واحد، أطلق ابتداء لمعنى وأعيد عليه الضمير للمعنى الآخر، هذه صورة.

الصورة الثانية: يطلق اللفظ لكلا المعنيين ويعاد عليه في التركيب ضميران، أحد الضميرين يعود إلى معنى، والضمير الآخر يعود إلى معنى لم يعد الضمير الأول عليه، هذه صورة ثانية للاستخدام.

وحقيقته أنه قسمان: الأول – على ما ذكرناه –: أن يطلق لفظ مشترك بين معنيين أو معان سواء كانت كلها حقيقية أو مجازية، أو مختلفة، ويراد بهذا اللفظ المشترك بعض معناه، يعني: أحد المعاني، ثم يعاد عليه ضمير راجع لهذا اللفظ المشترك، ونريد به المعنى الآخر، أي: الباقي، إن كان اللفظ ذا معنيين والضمير واحدا، والمعاني البواقي إن كان اللفظ ذا معان والضمير أكثر من واحد، هذه صورة.

كقول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

غضابا: جمع غضبان، فالسماء هنا .. إذا نزل .. السماء: أراد به المطر، رعيناه: الزرع، إذا: اللفظ نفسه أطلقه في أول الكلام لمعنى، ثم أعاد الضمير عليه بمعنى آخر، وهذا جائز .. بل هو من المحسنات البديعية، إذا نزل السماء، يعني: المطر، بأرض قوم رعيناه، أي: رعينا النبات، لماذا؟ لأن المطر سبب في إيجاد النبات، حينئذ يطلق السماء ويراد به النبات، والمعنى الذي أطلقه ابتداء أراد به المطر، حينئذ أعاد

الضمير إلى بعض المعنيين، فالسماء يراد به المطر، وهو المراد أولا من إطلاق هذا اللفظ، إذا نزل السماء، أي: المطر، والنبات وهو المراد بضميره، لقوله: رعيناه، يعني: الذي يرعى هو النبات.." (١)

"وكلا المعنيين مجاز له، والأول: من إطلاق المحل على الحال، والثاني: من إطلاق السبب على المسبب كما مر معنا هذا المثال في المجاز المرسل، وسوغ عود الضمير على النبات هنا وإن لم يتقدم له ذكر، تقدم ذكر سببه وهو السماء الذي أريد بها المطر، إذا: هذا النوع واضح بين وهو من جمال البلاغة بمكان، أن يطلق اللفظ ويراد به معنى ولا يمنع أن يكون له معنى آخر.

حينئذ إذا أعيد ضمير ما في نفس التركيب يعاد إلى المعنى الثاني الذي لم يطلق ابتداء.

الثاني من نوعي **الاستخدام**: إطلاق اللفظ المشترك، ويعاد عليه ضميران .. انتبه هنا! إطلاق اللفظ المشترك، ويعاد عليه ضميران، يراد بالضمير الأول معنى، وباقي المعنيين أو المعاني بالضمير الآخر، إذا: لا يكون فيه إطلاق لأحد المعاني في التركيب الأول، يعني: يطلق اللفظ المشترك ويراد به معناه كما هو، ثم إذا أعيد الضمير عليه وثم ضمير آخر ..

في هذا النوع عندنا ضميران، والقسم الأول فيه ضمير واحد، حينئذ يعود الضمير الأول على بعض ما دل عليه اللفظ المشترك، وباقي المعنى يعود عليه الضمير الثاني، ومثلوا له بقول الشاعر:

فسقى الغضا والساكنيه وإن همو شبوه بين جوانح وقلوب

الغضا: المراد به شجر من الأثل، يقولون: خشبه من أصلب الخشب .. شديد، وجمره يبقى زمانا طويلا لا ينطفئ، واحدته: غضاة، إذا: هو نوع من أنواع الشجر، فسقى الغضا والساكنيه وإن همو شبوه: من الشب .. النار، إذا: فسقى الغضا: هو نوع من أنواع الشجر، سقاه والساكنيه شبوه، الساكنيه: فيه ضمير، وشبوه: هذا فيه ضمير، الساكنيه يعود إلى ماذا، إلى نفس الشجر الغضا؟ إلى المكان، وشبوه: يعود إلى المكان أو لنفسه؟ نفسه، إذا: أطلق اللفظ الغضا ويراد به المكان، ويراد به الشجر نفسه، فأعاد الضمير بقوله: الساكنية إلى مكان الشجر، وأعاد الضمير الثاني شبوه إلى الشجر نفسه. فالضمير راجع من ساكنيه إلى الغضا باعتبار المكان، لأن الذي يسكن هو مكانه، يعني: تحته مثلا، ومن شبوه إليه إلى نفس الشجر أيضا باعتبار الشجر، والأول مجازي والثاني حقيقي.

وقال التفتزاني: " الضمير الأول للمكان الذي فيه شجر الغضا، والثاني للنار الحاصلة من شجر الغضا فكلاهما مجازي "، على كل: المراد به التمثيل للاستخدام، فالساكنيه الضمير عاد على الغضا بمعنى وهو

---

(١) شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، أحمد بن عمر الحازمي ٤٤/٦

مكانه، وشبوه الضمير عاد إلى الغضا كذلك باعتبار الشجر نفسه.

قال العصام: " وهذا القسم يستلزم القسم الأول لأنه لا يتحقق استخدام باعتبار الضميرين إلا ويتحقق باعتبار الضمير والاسم الظاهر "، يعني: هما متداخلان، هذا قول له.

والاستخدام أيضا: منصوب على المفعولية المطلقة، وفعله آض يئيض أيضا، يعني: نرجع رجوعا ثانيا لذكر ألقاب الضرب الأول وهو المعنوي، **والاستخدام** أيضا، يعني: نرجع ونذكر **الاستخدام** من ألقاب الضرب الأول المعنوي أيضا، آض يئيض أيضا فهو مفعول مطلق، لا يقال: آض بالرفع ولا بالخفض، إنما هو ملازم للنصب، كقولنا: سبحان .. أسبح سبحان، هذا مثله.." [1]

"وبهذا علم أن هذا القسم لا يختص بحال الخطاب كما نبه عليه السبكي وإنما خص بهذا الاسم لكونه أكثر استعمالا وورودا من غيره، لأنه ما قال: يا نفس اتق الله، يعني: خطاب كما قال بعض البيانيين، وإنما جاء هنا بضمير الغيبة ((يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها)) [النحل:١١١] إذا: ليس فيه خطاب، وهذا يستعمله كثير من الشعراء، ينتقي أو ينتزع من نفسه نفسا ثم يخاطبها بالأوامر والنواهي.

واللف والنشر **والاستخدام** أيضا وتجريد له أقسام

ثم المبالغة: ثم هذه للترتيب الذكري، ثم المبالغة، يعني: وعد من ألقابه المطابقة والمبالغة، فالمبالغة نوع من أنواع المحسنات البديعية المعنوية لا اللفظية، فهي من ألقاب الضرب الأول المعنوي، فهي من المحسنات المعنوية، ولكن المراد هنا المبالغة المقبولة، يعني: المبالغة نوعان: مبالغة مقبولة، ومبالغة مردودة مرفوضة، هذا النوع ليس من المحسنات بشيء، وليس هو المراد هنا، ولكن المراد هنا المبالغة المقبولة، لأن المردودة لا تكون من المحسنات.

وفي عد المبالغة من المحسنات رد على من ردها مطلقا، نعم بعض البيانيين رد المبالغة مطلقا ليست محسنات، لكن إذا قيدناها بالمقبولة حينئذ رددنا عليهم. أو في عدها من المحسنات رددنا عليهم، وفي تقييدها بالمقبولة رد على من قبلها مطلقا، حينئذ إفراط وتفريط، هناك من ردها بالكلية بدون تفصيل، وهناك من قبل المبالغة بدون تفصيل، والصحيح أن المبالغة على نوعين:

منها ما هو مرفوض مردود، وهذه ليست مقبولة، وليست من المحسنات البديعية.

ومنها ما هو مقبول وهو الذي يراد هنا.

وهي من حيث هي، يعني: إذا أردنا أن نعرف حينئذ لا نأتي نعرف المقبولة فحسب، وإنما نعرف المبالغة

---

(١) شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، أحمد بن عمر الحازمي ٤٤/٧

من حيث هي، ثم بعد ذلك ننظر في هذه الأوصاف التي ادعيت، ثم نقول: هذا الوصف والمبالغة فيه مقبولة، وهذا الوصف والمبالغة فيه مردودة، وحينئذ التعريف يكون شاملا لل‍مقبولة والمردودة، عرفها في الإيضاح بقوله: " أن يدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا " مستحيلا يعني: لا يدرك بالعقل، أو العقل يمنعه، أو مستبعدا: العقل لا يمنعه، لكنه محال أو ممنوع من جهة العادة، يعني: من جهة الوقوع.

أن يدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدا، يعني: قدرا كما قال الناظم، مستحيلا أو مستبعدا ليشمل النوعين، لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف، يعني فائدة ذلك: ألا يتوهم السامع أن الموصف قاصر في ذلك الوصف غير متناه فيه، يعني: لم يبلغ الغاية فيه، قد يكون الموصوف الذي يتصف بشيء ما، قد يكون بلغ الغاية فيه، إذا: هو متناه فيه، وقد يكون دون ذلك.

قد يرفع من كان دون ذلك إلى أنه وصل إلى المتناهي، وهذا الذي منه مقبول ومردود.

وتنحصر المبالغة في ثلاثة أقسام، هنا قال: ثم المبالغة، أي: المقبولة، ثم عرفها بقوله في النظم:

وصف يدعى ... بلوغه ق‍درا يرى ممتنعا ... أو نائيا، إلى هنا يختفي التعريف.." (١)

"إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه، إذا نزل السماء رعيناه، أراد بالسماء إذا نزل السماء يعني نزل المطر، ورعيناه أراد به النبات، السماء يطلق ويراد به القطر ويطلق ويراد به النبات لكنه مجاز، أراد بالسماء الغيث، وبضميره في رعيناه النبات، وكلا المعنيين مجاز. والثاني نحو ماذا؟ قوله: أتينا غيثا فرعيناه. أتينا غيثا يعني نباتا فرعيناه أي النبات، الأول مجازي والثاني حقيقي [نعم].

إذا **الاستخدام** يكون على نوعين: إيراد لفظ له معنيان، الأول يراد به معنى ثم بضميره معنى آخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما ثم بالآخر الآخر على التفصيل .. .

(والسوق) أي سوق معلوم مساق غيره، وهو ما يسمى بتجاهل العارف لنكتة كالمبالغة في المدح، يعني كأنه ما يعرف ويأتي بسلسال أو بسؤل أو نحو ذلك:

ألمع برق سرى ضوء مصباح ... أم ابتسامتها بالمنظر الضاحي

كأنه ما يدري، فيستفسر ألمع برق؟ يعني ما يدري هل هذه الابت‍س‍امة التي وقعت هل هي لمع برق؟ أم ضوء مصباح؟ أم هي ابتسامة؟ هو يدري أنها ابتسامة، لكن أراد أن يبالغ في المدح فيأتي بهذا البيت،

---

(١) شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، أحمد بن عمر الحازمي ١١/٤٤

وكقوله:

ليلاي منكن أم ليلى من البشر

وما أدري ولست أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء.

وهم رجال، يدري.

(والتوجيه)، (والتوجيه) وهو إيراد الكلام محتمل لوجهين مختلفين كقول من قال لأعور: ليت عينيه سواء، ليت عينيه سواء هذا يحتمل، يحتمل أنه أراد أن تكون الصحيح ها كأختها فيصير دعاء عليه ليت عينيه سواء، ويحتمل أن تكون العوراء كأختها الصحيحة فحينئذ يكون دعاء له، يسمى ماذا هذا؟ التوجيه: إيراد الكلام محتمل لوجهين مختلفين والسامع على حسب نيته.

(والتوفيق). التوفيق هذا يسمى الموافقة والتناسب والتواقيع أيضا، ويسمى مراعاة النظير: وهو جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد، يعني يجتمع أو يعطف شيئا على شيء بين متناسبين بينهما مناسبة، لكن لا يكون بينهما مضادة ﴿الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان﴾ ... [الرحمن: ٥ - ٦] إذا بينهما .. النجم هنا النبات الذي لا ساق له، والشجر معلوم الذي له ساق، هنا متناسبان الشمس والقمر كل منهما كوكب الأول يكون مضيئا في النهار، والثاني يكون مضيئا في الليل ... ﴿بحسبان﴾ جمع بينهما، والبحث وعبر عنه القزويني بالمذهب الكلامي يسمى المذهب الكلامي البحث: وهو إيراد حجة للمطلوب على مذهب أهل البحث. يعني على طريقة أهل البحث، يسمونهم أهل الكلام بأن تكون بعد تسليم المقدمات مستلزمة للمطلوب، يعني تطبيقا للقياس الذي مر معنا:

إن القياس من قضايا صورا ... مستلزما بالذات قولا آخرا." (١)

"فما حديثه؟ وما شأنه؟ وما دخلته؟ وما خبره؟ فقد بلغني أنك تغشاه وتجلس إليه، وتكثر عنده، وتورق له، ولك معه نوادر مضحكة، وبوادر معجبة. ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته به، وانكشف أمره له، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه وخافي مذهبه وعويص طريقته.

فقلت: أيها الوزير، هو الذي تعرفه قبلي قديما وحديثا بالتربية والاختبار **والاستخدام**، وله منك الأخوة القديمة والنسبة المعروفة.

قال: دع هذا وصفه لي.

---

(١) شرح مائة المعاني والبيان، أحمد بن عمر الحازمي ١٣/١٥

قلت: هناك ذكاء غالب، وذهن وقاد، ويقظة حاضرة، وسوانح متناصرة، ومتسع في فنون النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع للمقالات، وتبصر في الآراء والديانات، وتصرف في كل فن: إما بالشدو «١» الموهم، وإما بالتبصر المفهم، وإما بالتناهي المفحم.

فقال: فعلى هذا ما مذهبه؟

قلت: لا ينسب إلى شيء، ولا يعرف برهط، لجيشانه بكل شيء، وغليانه في كل باب. ولاختلاف ما يبدو من بسطة تبيانه، وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا، وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البيستي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني والعوقي وغيرهم، فصحبهم وخدمهم، وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية.

وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة: علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرستا وسموها رسائل إخوان الصفا وخل١ن الوفاء، وكتموا أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ولقنوها الناس، وادعوا أنهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء وجه الله عز وجل وطلب رضوانه ليخلصوا الناس من الآراء الفاسدة التي تضر النفوس، والعقائد الخبيثة التي تضر أصحابها، والأفعال المذمومة التي يشقى بها أهلها، وحشوا هذه الرسائل بالكلم الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق الموهمة.." (١)

"بالشهادة، ولا يعرف معرفة تزيل عنه التهم [١] ، فقابله بغليظ العقوبة ليرتدع غيره عن مثل دعواه، وأشهره شهرة يؤمن معها اشتباه، وينزجر عن كذبة ثانية.

واحتط في أمر المناكح حتى لا تصل أيم من الجماعة إلى دني، ولا يقع عليها عقد إلا لكفؤ وفي.

«١٠٢٢» - ومن تقليده الحج مضافا إلى نقابة الطالبيين: أما بعد، فان أمير المؤمنين برعايته الحرمات، ومحافظته على الموات [٢] ، وإيجابه حق من تأكدت له العصمة، وارتضيت منه الخدمة، وعرفت في الطاعة آثاره، وبليت في الموالاة أخباره، يعتقد رب صنيعته عندك، ومضاعفة نعمته عليك [٣] ، والانافة

---

(١) الإمتاع والمؤانسة أبو حيان التوحيدي ص/١٦٣

بك على أعلى رتب ذوي الأسباب الواشجة والانساب المتشابكة [٤] ، ولا سيما وقد جمعت إلى القربى اضطلاعا بالأعباء، وإلى الموالاة قياما بحق **الاستخدام** والاستكفاء، فلن يعدم أمير المؤمنين في ما يكله إليك، ويعتمد فيه عليك، رعاية الحق، وصلة الرحم، وصواب التدبير، وإصلاح المهم. والله يحسن لأمير المؤمنين الاختيار، ويمده بالتوفيق والصنع في مجاري الأقدار [٥] . ولما قلدك أمير المؤمنين النقابة على الطالبيين فبان له فيها محمود سيرتك، وظهر من أفعالك ما دل على سلامة سريرتك، رأى أمير المؤمنين من حق العادة التي عوده الله فيها الصلاح، وأجرى له فيها طائر النجاح، أن يزيدك فضلا وإحسانا، ولا يألوك إنعاما وامتنانا، ويستأنف بك من إعلاء [٦] الدرجة ورفع المرتبة ما يحمد به رأيك في الخدمة

---

[١] المختار: التهمة.

[٢] م: المودات.

[٣] المختار: لديك.

[٤] المختار: الشابكة.

[٥] س: الاقتدار.

[٦] م: علي.." (١)

"من الغصن، وأحلى شكلا من كل أنيق حسن، قد جمعت حسن المنظر والمخبر، وتملكت عنان العين والقلب، وإنما استعارت ذكاءك ومضاءك، وسربلت جمالك وبهاءك. إن قابلت الأبصار أعشت، وإن صافحت النفوس أصمت، وإن أرضيت ولت متنا كالدهان، وإن أسخطت اتقت بناب الأفعوان. وهي كريمة الوداد، أليمة الشماس، أمينة في السلم، مخوفة في الحرب، لا عيب لها غير أنها لا فلول بها، ولا آثار للأقران فيها. وأنى تقلها الضرائب، أو تثلمها الكتائب، وكل عضب عندها كهام، وكل ماض بالقياس اليها كليل. هيهات هي أصلب من ذاك معجما، وأصم منه عودا، وأبقى على القضم والخضم حدة، وأمضى على الهبر والحطم شدة، لم يكلها كرم النجار إلى صنعة القين، ولم يحوجها عتق الجوهر إلى إمهاء الحجر، ولا يزيدها اختلاف الأيام إلا إرهافا، ولا طول **الاستخدام** إلا مضاء ونفاذا. فإن رأيت يا سيدي أن تتفضل بقبولها، وتشرفها باستخدامها غير حامد لها ما ذكرته من ملائها ولا معتد بما وصفته من محاسنها، إذ كان الكهام يمضي بحدك، والعضب يفري بيدك، وتعرفني وصولها ووقوعها الموقع الذي اعتمدته بها،

---

(١) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ٣/٣٦٠

فعلت، إن شاء الله.

٤٧- وقديما غرت الهدايا وخدعت: أهدى الجنيد بن عبد الرحمن لأم حكيم بنت يحيى بن الحكم امرأة هشام بن عبد الملك قلادة فيها جوهر، وأهدى لهشام قلادة أخرى فولاه خراسان، ولم يكن الجنيد في موضع ذلك، وأنفذه إليها وحمله على ثمانية من البريد.." (١)

"فقال: إنا وفد العراق، لم نأتك لرغبة ولا رهبة، لأن الرعية قد أحضيت من بلادنا، وحصلت لنا بفضلك والرهبة قد أمناها بعد لك. قال: فما أنتم؟ قال: وفد الشكر، فقال: عمر الله أنت، فما أحسن منطقك، وانشد عمر رحمة الله عليه: [الطويل]

تعلم فليس المرء يولد عالما ... وليس أخا علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغيرا إذا التفت عليه المحافل

روي أن مصعب بن الزبير أخذ رجلا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه، فقال أيها الأمير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة فأتعلق بأطرافك، وأقول يا رب سل مصعبا فيم قتلني؟ فقال: أطلقوه، فقال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من عمر في حفظ، فقال أعطوه مائة ألف درهم، قال بأبي أنت، أشهدك أن لابن قيس الرقيات نصفها لقوله فيك: [الخفيف]

إنما مصعب شهاب من الله ... تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك رأفة ليس فيه ... جبروت يخشى، ولا كبرياء

يتقي الله في الأمور وقد أفل ... ح من كان شأنه الاتقاء

فضحك مصعب وقال: تلطفت، وإن فيك موضعا للصنيعة، وأمر له بمائة ألف درهم أخرى، ولابن قيس الرقيات بخمسين ألفا.

دخل رجل على خالد بن عبد الله القسري، في دية، فقال خالد: يا غلام هات ألف دينار، فأحضرت في كيس، فقال بعض جلساء خالد، فوالله ما رأى حاتم مثلها، فقال الرجل: حاتم، والله أكرم من أن يجتمع عنده مثلها، قال ابن المقفع: وجدت المودة بين الكرام، بمنزلة آنية الذهب، بطيء الانكسار، بطيء الانجبار.

---

(١) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ٢٥/٥

سئل أفلاطون عن الأصدقاء، فقال: نفس واحدة في أجساد متفرقة.
قال الاسكندر لأصحابه: أيما أفضل، العدل، أو الشجاعة؟ فقالوا: إذا استعمل العدل، استغني عن الشجاعة.
دخل على الاسكندر بطارقته فقالوا: أيها الملك قد بسط الله ملكك، فأكثر من النساء ليكثر ولدك، قال لا يحسن بمن غلب الرجال أن تغلبه النساء.
حكى الزبيريون أن امرأة عرضت لكثير عزة فقالت: أنت القائل: [الطويل]

فما روضة بالحزن طيبة الثرى ... تمج الندى جثجاثها وعرارها
ما حسن وجها أو ما عذب ريقة ... لعزة لما أتحفت بمرارها
لبعضهم: [الرمل]

صاح إن الدهر لا تعرفه ... فخذ الصفو ودع عنك الكدر
كمخطوب قد تصوبت لها ... وهي مثل الثمار ترمي بالشرر
خذل الإخوان فيها كلهم ... وأعان الله فيها ونصر
يروى أن عليا عليه السلام دخل على أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد البيعة، فقال أبو بكر: والله يا أبا الحسن، إن عصابة أنت فيها لمعصومة، وأمة أنت فيها لمرحومة، وإنا نخاف الله إذا غضبت، ونرجوه إذا رضيت، ولقد حط الله عن كاهلك، ما أثقل به ظهري، ولولا أني جذبت لهذا الأمر، لما أجبت إليه، وإنا إليك لمحتاجون، وبفضلك عالمون، وعلى الله في أحوالنا متوكلون.
في ذكر المعاريض: ساوم رجل رجلا في ناقة له، فقال له: كيف لبنها؟ قال احلب في أي إناء شئت، قال: وكيف سيرها؟ قال إذا رأيتها في الإبل عرفتها من غيرها، قال كيف ظهرها؟ قال افرش ونم، فقال فكيف حملها؟ قال: علي أحمل الحائط ما شئت فاشتراها فلم يجد شيئا من ذلك فاستقاله فأقاله.
وسئل ابن شبرمة عن رجل، فقال له: بين وقدم وشرف. يعني بيتا يسكنه، وقدما يمشي عيه وشرفه أدناه ومتكاه.
لبعض الشعراء: [الطويل]

وما الحلي إلا زينة لنقيصة ... يتمم حسنا حيث ما الحسن قصرا
فأما إذا كان الجمال موفرا ... لحسنك لم يحتج إلى أن يزورا

يروى أنه لما جاء إلى المهدي بالولاية، وهو جالس بين أصحابه سجدوا شكرا لله تعالى سبحانه، ما خلا عمارة بن حمزة بن ميمون: فقال له المهدي: ما بالك لا تسجد؟ فقال عمارة مقام شكر، وهو علي إن كنت معنا فطرت، وتركتنا، فقال فإن طرنا بك معنا، قال الآن طاب السجود وسجد.

قال المنصور لعمرو بن عبيد قد كثر ببابنا من يمت بالنصيحة، ويسأل **الاستخدام**، فقال يا أمير المؤمنين ابتلهم بالهوان، والحرمان، فمن شكا الهوان دون الحرمان، فاستخدمه، من شكا الحرمان دون الهوان فأعرض عنه، فإن من يكره الهوان، عزيز النفس، ومن صبر عليه فهو خسيس الهمة دنيء ومثله يستخدم.." (١)

"محنة تصفع ابن عمرو بن يحيى ... في دماغ الأعشى بنعل القطامي

باب

الاستخدام

اعلم أن **الاستخدام** هو إن يكون للكلمة معنيان فتحتاج إليهما فتذكرها وحدها تخدم للمعنيين، كمما قال الله سبحانه وتعالى: " لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى " والصلاة ههنا تحمل إن تكون فعل الصلاة أو موضع الصلاة، فاستخدم الصلاة بلفظ واحد لأنه قال سبحانه: " إلا عابري سبيل "، فدل على أنه أراد موضع الصلاة، وقال تعالى: حتى تعلموا ما تقولون فدل على أنه فعل الصلاة.

وأنشدوا للبحتري:

فسقى لغضا والساكنيه وإن همو ... شبوه بين جوانح وقلوب

فالغضى يحتمل أن يكون الموضع، ويحتمل أن يكون الشجر، فاستخدم المعنيين بقوله: والساكنيه، وبقوله: وإن هم شبوه.

ومن ذلك قول بعض العرب:

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

فالسماء تحتمل معنيين: المطر، والنبات، فاستخدم المعنيين بقوله: إذا نزل السماء يعني المطر ورعيناه، يعني النبات.." (٢)

---

(١) سفط الملح وزوح الترح ابن الدجاجي ص/٦٣

(٢) البديع في نقد الشعر أسامة بن منقذ ص/٨٢

"على الاستخدام المؤذن بتقويه وتكمله المنة. فإن أعطيت منه هواها، فطوبى لها وواها، وإلا فآها من المخافة وآها) .

ومن أخرى: (وعندي لابتعاده ما يضعف الجنان، ويضاعف الأشجانه، ويرنق العيش الصفو لو كان. ثم إنني مذ عرفت اللائمة، بمن فتر في الخدمة اللازمة، لتصديق الأنباء المتقادمة، أسقطت في يدي، واعتلجت الوساوس في خلدي، إشفاقا من أن أوسم بسوء معاهدة، أو يقال إن الكل خرط يد واحدة. على أنني قد كنت ابتدرت تلافي الغلط، واستدراك ما فرط، بما أصدرته مع القاصد الممتد إلى." (١)

"بكشف عددهم، واعتبار عددهم، وانتخاب خيلهم، واستجادة أسلحتهم، غير مجمر بعثا إذا بعثه، ولا مستكرهه إذا وجهه، بل يناوب بين رجاله مناوبة تريحهم ولا تمدهم، وترفههم ولا تئودهم؛ فإن في ذلك من فائدة الإجمام، والعدل في الاستخدام، زينا، فليسوبين رجال النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر، وبعد الصيت والذكر، وإحراز النفع والأجر، ما يحق أن يكون الولاة به عاملين، وللناس عليه حاملين، وأن يكرر في أسماعهم، ويثبت في قلوبهم؛ مواعيد الله تعالى لمن صبر ورابط وسامح بالنفس من حيث لا يقدمون على تورط غرة، ولا يحجمون عن انتهاز فرصة، ولا ينكصون عن تورد معركة، ولا يلقون بأيديهم إلى التهلكة، فقد أخذ الله ذلك على خلقه، والمرء أمين على دينه، وأن يريح العملة فيما يحتاج إليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها وبناء حصونها ومعاقلها، واستطراق طرقها ومسالكها، وإفاضة الأقوات والعلوفة فيها للمترتبين بها، والمترددين إليها، والحامين لها، وأن يبذل أمانة لمن طلبه، ويعرضه على من لم يطلبه، ويفي بالعهد إذا عاهد، وبالعقد إذا عاقد، غير مخفر ذمة، ولا جارح أمانة، فقد أمر الله تعالى بالوفاء، فقال عز وجل: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود

ونهى عن النكث؛ فقال عز من قائل:

فمن نكث فإنما ينكث على نفسه.

وأمره أن يعرض من في حبوس عمله على جرائمهم، فمن كان إقراره واجبا أقره، ومن كان إطلاقه سائغا أطلقه، وأن ينظر في الشرطة والأحداث نظر عدل وإنصاف، ويختار لها من يخاف الله ويتقيه، ولا يجابي ولا يراقب فيه، ويتقدم إليهم بقمع الجهال، وردع الضلال، وتتبع الأشرار، وطلب الدعار، مستدلين على أماكنهم، متوغلين إلى مكامنهم، متولجين عليهم في مظانهم، متوثقين ممن يجدونه منهم، منفذين أحكام الله تعالى فيهم، بحسب الذي يتبين من أمرهم، ويصح من فعلهم، في كبيرة ارتكبوها، وعظيمة احتقبوها،

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء العراق جـ ٤ المجلد الثاني ٢ العماد الأصبهاني ص/٦٤٥

ومهجة إن أفاظوها واستهلكوها، وحرمة إن استباحوها وانتهكوها؛ فمن استحق حدا من حدود الله المعلومة أقاموه عليه غير مخففين منه، وأحلوه به غير مقصرين عنه، بعد ألا يكون عليهم في الذي يأتونه حجة، ولا يعترضهم في وجوبه مشبهة، فإن الواجب في الحدود أن تقام بالبينات، وأن تدرأ بالشبهات، فأولى ما توخاه رعاة الرعايا فيها ألا يقدموا عليها مع." (١)

"على يد السكاكي في كتابه المشهور، مفتاح العلوم، الذي نظم دراسة البلاغة، وقنن لها، وقسمها إلى علومها، وحدد مباحث كل فن منها.

٢- وكذلك كان ابن الأثير كاتبا من كتاب الدواوين، كتب للقاضي الفاضل في دولة صلاح الدين، كما كتب لأولاد صلاح الدين من بعده، والذي يعرف أساليب الكتابة في ذلك العصر الذي عمل فيه ابن الأثير يعرف أنها كانت تمتاز امتيازا ظاهرا بلزوم السجع واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع واستخدام معاني الشعر وألفاظه في كتابه الرسائل، بحل الأبيات السائرة والحكم المأثورة، حتى كادت الرسائل تكون شعرا منثورا، والاقتباس من كلام البلغاء، وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعراء، ولما نبه شأن القاضي الفاضل أراد أن يحاكي كتاب المشارقة في البديع، فزاد عليهم وأربى، وجاراهم في التزام السجع والجناس والطباق، وزاد عليهم أن استعمل في رسالة كل أنواع البديع التي كانت فاشية وقتئذ في الشعر، كالتورية **والاستخدام** والتلميح وغيرها، وأكثر من حل المنظوم، والاقتباس من الآيات، وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال، وأمعن في التشبيه والاستعارة حتى جاءت معاني رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها.

وقد كانت هاتان الناحيتان عظيمتا الأثر في ابن الأثير، وفي إدركه لمعنى البيان، كما تصوره في المثل السائر.

تكلم ابن الأثير في خطبة كتابه عن أهمية علم البيان، وذكر أن منزلته في تأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام.

ويبدو من أول كلامه أنه رجل كثير الاعتداد بنفسه، والتباهي بعلمه، وكثيرا ما جره هذا الاعتداد إلى انتقاص غيره من الباحثين فيما بحث فيه، فقد ذكر أن الذين ألفوا في البيان من قبله ألفوا كتبا، وجلبوا ذهبا، وحطبوا حطبا، وما من تأليف إلا وقد تصفحه، وعلم غثه وسمينه، ثم لم يجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت محيي الدين عبد الحميد ابن الأثير، ضياء الدين ١/ ٢١٨

"الموازنة" للآمدي، وكتاب "سر الفصاحة" للخفاجي، والـكتاب الأول هو الذي حظي بإعجابه، لأنه – كما يقول: أجمع أصولا وأجدى محصولا، مع أن المناسبة بين." (١)

"استخدامهم، ويتصرف في سياستهم بين رفق من غير ضعف، وخشونة في غير عنف، مثيبا لمحسنهم ما زاد بالإثابة في حسن الأثر، وسلم معها من دواعي الأشر، ومتغمدا لمسيئهم ما كان التغمد له نافعا، وفيه ناجعا، فإن تكررت زلاته، وتتابعت عثراته، تناولته من عقوبته بما يكون له مصلحا، ولغيره واعظا، وأن يختص أكابرهم وأماثلهم وأهل الرأي والخطر منهم بالمشاورة في الملم، والاطلاع على بعض المهم، مستخلصا مخايل صدورهم بالبسط والإدناء، ومستشحذا بصائرهم بالإكرام والاحتباء، فإن في مشاورة هذه الطبقة استدلالا على مواقع الصواب، وتحرزا عن غلط الاستبداد، وأخذا بمجامع الحزامة، وأمنا من مفارقة الاستقامة، وقد حض الله –عز وجل– على الشورى حيث قال لرسوله –صلى الله عليه وسلم: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ ١.

وأمره بأن يصمد بما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين، ورباط المرابطين، ويقسم لها قسما وافرا من عنايته، ويصرف إليها طرفا بل شطرا من رعايته، ويختار لها أهل الجلد والشدة، وذوي البأس والنجدة، ممن عجمته الخطوب، وعركته الحروب، واكتسب دربه بخدع المتنازلين، وتجربة بمكايد المتقارعين، وأن يستظهر بكشف عددهم، واعتبار عددهم، وانتخاب خيلهم، واستجادة أسلحتهم، غير مجمر٢ بعثا إذا بعثه، ولا مستكرهه إذا وجهه، بل يناوب بين رجاله مناوبة تريحهم ولا تمدهم، وترفههم ولا تئودهم، فإن في ذلك من فائدة الإجمام، والعدل في **الاستخدام** زينا، فليسو بين رجال النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر، وبعد الصيت والذكر، وإحراز النفع والأجر، ما يحق أن يكون الولاة به عاملين، وللناس عليه حاملين، وأن يكرر في أسماعهم، ويثبت في قلوبهم، مواعيد الله تعالى لمن صبر ورابط، وسامح بالنفس، من حيث لا يقدمون على تورط غرة، ولا يحجمون عن انتهاز فرصة، ولا ينكصون عن تورد معركة، ولا يلقون بأيديهم إلى التهلكة، فقد أخذ الله ذلك على خلقه، والمرء أمين على دينه.

---

١ سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٢ التجمير: حبس الجيش في أرض العدو.." (٢)

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت الحوفي ابن الأثير، ضياء الدين ١٨/١

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت الحوفي ابن الأثير، ضياء الدين ٢٣٦/١

"والمثل السائر لابن الأثير الجزري، والإقناع للصاحب ابن عباد، وبديع أبي إسحاق الأجدابي، وبديع شرف الدين التيفاشي، وهو آخر من ألف فيه تأليفا في غالب ظني، وجمع ما لم يجمعه غيره لولا مواضع نقلها كما وجدها ولم ينعم النظر فيها، وبعض الأبواب التي تداخلت عليه. وإذا وصلت إلى بديع ابن منقذ وصلت إلى الخبط والفساد العظيم، والجمع من أشتات الخطإ وأنواعه من التوارد والتداخل، وضم غير البديع والمحاسن إلى البديع، كأنواع من العيوب، وأصناف من السرقات، ومخالفة الشواهد للتراجم، وفنون من الزلل والخلل يعرف صحتها من وقف على كتابه

وأنعم النظر فيه، لا جرم أني لم أعتد بكتابه في عدة ما وقفت عليه من ذلك، وإن كنت قلما رأيت منها كتابا خلا عن موضع نقد، بحسب منزلة واضعه من العلم والدراية، فمن قليل ومن كثير، وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا من عصمة الله من أنبيائه، صلوات الله عليهم وسلامه والسعيد من عدت سقاطته، " وما أبرئ نفسي " ولا أدعي سلامة وضعي دون أبناء جنسي، غير أني توخيت تحرير ما جمعته من هذه الكتب جهدي، ودققت النظر حسب طاقتي، فتحرست من التوارد، وتجنبت التداخل، ونقحت ما يجب تنقيحه، وصححت ما قدرت على تصحيحه، ووضعت كل شاهد في موضعه، وربما أبقيت اسم الباب وغيرت مسماه إذ رأيت اسمه لا يدل على معناه، إلى أن جمعت جميع ما في هذه الكتب من الأبواب على ما قدمت من الشرائط، فكان ما جمعته من ذلك ستين بابا فروعا بعد ما قدمته من الأصول، وهي: الاحتراس، والموازبة براء مهملة، والترديد، والتعطف، والتفويف، والتسهيم، والتورية، والتوشيح، **والاستخدام**، والتغاير، والطاعة والعصيان، والتسميط، والمماثلة، والتجزئة، والتسجيع، والترصيع، والتصريع، والتشطير، والتعليل، والتطريز، والتوشيح، والاشتراك، والتلفيف، والعكس، والإغراق، والغلو، والقسم، والاستثناء والاستدراك، وجمع المختلفة والمؤتلفة، والتوهيم، والاستطراد، والتكميل، والمناسبة، والتفريع، والتكرار، ونفي الشيء بإيجابه، والإيداع، والاستعانة والموازنة بزاي معجمة، والتذييل، والمشاكلة، والمواردة، والتهذيب، وحسن النسق، وبراعة التخلص، والانسجام، والحل، والعقد، والتعليق، والإدماج والازدواج، والاتساع، والمجاز، والإيجاز، وسلامة الاختراع من الاتباع، وحسن الإتباع، وحسن البيان، والتوليد، والتنكيت، والاتفاق، والإغراب، والطرفة. وأنعم النظر فيه، لا جرم أني لم أعتد بكتابه في عدة ما وقفت عليه من ذلك، وإن كنت قلما رأيت منها كتابا خلا عن موضع نقد، بحسب منزلة واضعه من العلم والدراية، فمن قليل ومن كثير، وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا من عصمة الله من أنبيائه، صلوات الله عليهم وسلامه والسعيد من عدت سقاطته، " وما أبرئ نفسي " ولا أدعي سلامة وضعي دون أبناء جنسي، غير أني توخيت

تحرير ما جمعته من هذه الكتب جهدي، ودققت النظر حسب طاقتي، فتحرست من التوارد، وتجنبت التداخل، ونقحت." (١)

"ما يجب تنقيحه، وصححت ما قدرت على تصحيحه، ووضعت كل شاهد في موضعه، وربما أبقيت اسم الباب وغيرت مسماه إذ رأيت اسمه لا يدل على معناه، إلى أن جمعت جميع ما في هذه الكتب من الأبواب على ما قدمت من الشرائط، فكان ما جمعته من ذلك ستين بابا فروعا بعد ما قدمته من الأصول، وهي: الاحتراس، والموارية براء مهملة، والترديد، والتعطف، والتفويف، والتسهيم، والتورية، والتوشيح، **والاستخدام**، والتغاير، والطاعة والعصيان، والتسميط، والمماثلة، والتجزئة، والتسجيع، والترصيع، والتصريع، والتشطير، والتعليل، والتطريز، والتوشيح، والاشتراك، والتلفيف، والعكس، والإغراق، والغلو، والقسم، والاستثناء والاستدراك، وجمع المختلفة والمؤتلفة، والتوهيم، والاستطراد، والتكميل، والمناسبة، والتفريع، والتكرار، ونفي الشيء بإيجابه، والإيداع، والاستعانة والموازنة بزاي معجمة، والتذييل، والمشاكلة، والمواردة، والتهذيب، وحسن النسق، وبراعة التخلص، والانسجام، والحل، والعقد، والتعليق، والإدماج والازدواج، والاتساع، والمجاز، والإيجاز، وسلامة الاختراع من الاتباع، وحسن الإتباع، وحسن البيان، والتوليد، والتنكيت، والاتفاق، والإغراب، والطرفة.

وأضفت هذه الأبواب الفروع إلى تلك الثلاثين الأصول فصارت الفذلكة تسعين بابا، ورأيت الأجدابي قد ذكر من محاسن القافية أربعة أبواب منها بابان هما باب واحد سماهما بتسميتين غير مطابقتين لمعناهما، فجعلتهما بابا واحدا على حكم ما أخذت به نفسي من حذف المتداخل، وسميته." (٢)

"المتقدمين وكثرتها في أشعار المحدثين، وخصوصا شعراء العجم العصريين كالأرجاني وأمثاله، وأما البيت الثاني فإنه أبدع من البيت الأول، إذ أخرجه مخرج التعليل، للإنكار الذي وقع في عجز البيت الأول، وجاء فيه مع التعليل تنكيت حسن مدمج في تجنيس الازدواج، فإن قوله إذا ما استقلت وإذا استقل تجنيس ازدواج، والنكتة في ترجيح استقلت على أخواتها فيما يقوم مقامها إشارته بها إلى أن الزوج يبعد بالزوجة عن أهلها ووطنها، فيكون ذلك أشد تأنيبا له على تزويجه، وأدعى لندامته على ذلك، وكان من الاتفاق الحسن أن الرجل يماني القبيلة والبلد، والمرأة شامية، فحصل الاتفاق مدمجا في **الاستخدام**، فإنه استعمل في هذا البيت احتمالي كل لفظة من قوله: شامية ويمان، وختم البيت بالتوشيح، وهو دلالة معنى صدر البيت على

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع ص/٩١

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع ص/٩٢

قافيته، فجاء في البيت سبعة أضرب من البديع: وهي التعليل، والاتفاق، والاستخدام، وتجنيس الازدواج في استقلت واستقل والإدماج والتنكيت، والتوشيح.

وما رأيت لعربي ولا لعجمي مثل تورية وقعت للقاضي عياض صاحب الشفا في تعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم وصاحب الإكمال في شرح مسلم، وغيرهما في بيتين وصف فيهما صيغة نادرة أنشد فيهما الفقيه الإمام الحافظ المتقن العلامة زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري نفع الله به، وبلغه من خير الدارين كما بلغه." (١)

"باب الاستخدام

وهو أن يأتي المتكلم بلفظة لها معنيان، ثم يأتي بلفظتين تتوسط تلك اللفظة بينهما، ويستخدم كل لفظة منهما لمعنى من معنى تلك اللفظة المتقدمة، وربما التبس الاستخدام بالتورية الضا من كون كل واحد من البابين مفتقرا إلى لفظة لها معنيان.

والفرق بينهما أن التورية استعمال أحد لمعنيين من اللفظة، وإهمال الآخر، والاستخدام استعمالهما معا.

ومن أمثلته قول البحتري كامل:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم ... شبوه بين جوانح وقلوب

فإن لفظة الغضا محتملة الموضع والشجر والسقيا الصالحة لهما، فلما قال والساكنية استعمل أحد معنيي اللفظة، وهو دلالتها بالقرينة على." (٢)

"الموضع، ولما قال: شبوه: استعمل المعنى الآخر، وهو دلالتها بالقرينة أيضا على الشجر.

وفي الكتاب العزيز من الاستخدام قوله تعالى: " لكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت "، فإن لفظة كتاب يراد بها الأمد المحتوم، والكتاب: المكتوب، وقد توسطت بين لفظتي أجل ويمحو، فاستخدمت أحد مفهوميها وهو الأمد، واستخدمت يمحو لمفهوم الآخر، وهو المكتوب والله أعلم.." (٣)

"والرقة «١» - من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. وتوفى السلطان الملك الكامل والده، والأمر على ذلك.

ثم كان من أخباره مع الخوارزمية، ومفارقتهم له، ومحاصرة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ له بسنجار،

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع ص/٢٦٩

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع ص/٢٧٥

(٣) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع ص/٢٧٦

واستنصاره بالخوارزمية وعودهم إلى خدمته، وهرب بدر الدين لؤلؤ– ما قدمناه.

وملك بعد ذلك دمشق من الملك الجواد– كما تقدم. ولما ملك دمشق، راسل عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل– صاحب بعلبك– والتمس منه مساعدته على قصد الديار المصرية، وانتزاعها من أخيه الملك العادل. وشرط له أنه إذا فتح الديار المصرية تكون له، وتكون دمشق للصالح إسماعيل. فأجابه إلى ذلك، وشرع فى الاستعداد **والاستخدام** والاحتشاد.

فاتصل ذلك بالملك العادل ووالدته، فكتبا إلى الملك الصالح إسماعيل، وكتب إليه بعض الأمراء المصريين، وهم يصرفون رأيه عن مساعدة الملك الصالح أيوب، وحسنوا له أخذ دمشق. فاتفق الصالح إسماعيل، وصاحب حمص على مخالفة الملك الصالح نجم الدين.

وخرج الملك الصالح أيوب من دمشق فى شهر رمضان سنة ست وثلاثين وستمائة، وقصد نابلس– وهى فى جملة مملكة الملك الناصر داود، صاحب الكرك– فاستولى عليها وعلى بلادها– وذلك فى شوال من السنة.

وتوجه الملك الناصر داود إلى الديار المصرية– كما تقدم.." (١)

"بما معناه أن الملك الصالح إسماعيل محب فى السلطان، وقد استخدم واحتفل، وهو على عزم القدوم إلى السلطان. فتصل هذه البطايق المزورة إلى الملك الصالح أيوب، فلا يشك أنها صحيحة. فعند ذلك أرسل الملك المسعود الى أبيه ببعلبك، وقد طابت نفسه ووثق [أن عمه] معه.

فلما حصل ولده عنده، سار من بعلبك، وسار صاحب حمص من حمص، وتوافوا بجبل قاسيون. وكان جملة من استخدم الملك الصالح إسماعيل ألف فارس وأحد عشر ألف راجل. واستخدم صاحب حمص أربعة آلاف راجل. وتقرر بينهما أن يكون ثلثا دمشق وأعمالها للملك الصالح إسماعيل، والثلث لصاحب حمص. وكان الصالح إسماعيل قد أفسد بعض أمراء الصالح أيوب. كل ذلك والأمير ناصر الدين القيمرى يطلع عليه، ويطالع به الملك الصالح أيوب، وهو لا يلتفت إليه، ولا يرجع إلى نصحه.

ذكر استيلاء الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب– على دمشق

قال: ولما تكامل للملك الصالح ما أراد من **الاستخدام** والاحتشاد، ووافقه صاحب حمص– الملك المجاهد أسد الدين شيركوه– راسل الأمير ناصر الدين القيمرى النائب بقلعة دمشق، وبذل له عشرة آلاف

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٢٥٨/٢٩

دينار على تسليم القلعة. فوافقه على ذلك، ووقع منه بموقع، لأنه كان قد كرر نصائحه لمخدومه الملك الصالح- نجم الدين أيوب- وحذره، فما رجع إليه، وأجا؟؟؟

بما تقدم ذكره. فحمله ذلك على موافقة الملك الصالح عماد الدين، وتفرر." (١)

"الكرك نصارى، وأن المسلمين بها قليل، وأن هذا القدر «١» يؤدى إلى ظهور كثرتهم للغريب، وما أشبه هذه الأعذار. فاستقر ذلك بالكرك والشوبك إلى الآن «٢» .

وأخبرنى الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصورى فى سنة إحدى وسبعمائة وهو يؤمئذ أستاذ الدار السلطانية وشاد الدواوين بدمشق، قال: ركبت فى الموكب مع الأمير جمال الدين آقش الأفرم، نائب السلطنة بها، فمر بنا طائفة من أهل الذمة، بالأقمشة النفيسة والعمائم اللانس «٣» . قال: فشق ذلك على كونهم لم يتميزوا بعلامة. فذكرت ذلك لنائب السلطان، وقررت معه أن يأمر بتغيير هيأتهم، وأن تلبس النصارى العمائم الزرق، واليهود العمائم الصفر، والسامرة «٤» العمائم الحمر. وتقرر أن يطالع فى ذلك، فورد مثال السلطان بذلك، قبل وصول المطالعة إليه، ووافق تاريخ تلبيسهم بالديار المصرية، التاريخ الذى حدثت نائب السلطان فيه بسببه. ولما منعوا من **الاستخدام** بالديار المصرية، أسلم جماعة كثيرة من أعيانهم، لأجل مناصبهم. فاستمروا بعد إسلامهم على ما كانوا عليه «٥» .." (٢)

"الدين أنص الجمدار [١] والأمير سيف الدين أغرلو [٢] من عسكر حماه، ومن انضم إليهم، وتوجهوا فى ألف فارس وخمسمائة فارس لا يزيد على ذلك وساقوا فى البرية إلى مكان يسمى عرض لقصد هذه الطائفة من التتار، فتوافوا بها- وعدة التتار عشرة آلاف من المغل [٣]- فلما شاهدهم التتار أطلقوا من كان معهم من التركمان وحريمهم ومواشيهم؛ ليشغلوا العسكر بهم، فلم يعرج العسكر عليهم، وحملوا على التتار حملة رجل واحد، واقتتلوا أشد قتال فنصر الله جيش الإسلام، وقتلوا من التتار خلقا كثيرا، وفر من بقى منهم، وذلك فى عاشر شعبان من هذه السنة، وكانت هذه الوقعة مقدمة النصر، واستشهد فى هذه الوقعة الأمير سيف الدين أنص الجمدار، ومن أمراء دمشق. وحضر إلى دمشق جماعة أسروا من أعيان التتار فى يوم الخميس منتصف شعبان. هذا ما كان بالشام.

ذكر توجه السلطان الملك الناصر من الديار المصرية

بالجيوش الإسلامية إلى الشام، والوقعة بمرج الصفر [٤] ، وانهزام التتار.

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٢٦٠/٢٩

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٤١٩/٣١

قد ذكرنا اهتمام السلطان واحتفاله وما رسم به من **الاستخدام**، ثم جرد العساكر من مدنه [٥] يتلو بعضها بعضا، فوصلوا إلى دمشق. فأول من وصل منهم الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير حسام الدين لاجين الرومى والأمير سيف الدين كراى المنصورى، والأمير ركن الدين بيبرس الدوادار ومضافيهم فى يوم الأحد ثامن عشر شعبان. ثم وصل الأمير بدر الدين بكتاش

---

[١] الجمدار: هو الذى يتولى إلباس السلطان أو الأمير ثيابه، مركب من كلمتين فارسيتين «جاما» بمعنى الثوب، و «دار» بمعنى ممسك، وأكثر ما يكون الجمدارية من الصبيان الملاح المرد، ويتحلون بالملابس المزركشة أكثر مما تتحلى النساء (معيد النعم ص ٣٥) .

[٢] كذا فى الأصول وفى السلوك ١: ٩٣١، ٩٣٢ «غزلوا» و «أغرلوا» فى النجوم الزاهرة ٨: ١٥٨ «أغزلو العادلى» .

[٣] المغل: هم المغول وهم التتار (النجوم الزاهرة ٨: ٣١٧ هامش) .

[٤] مرج الصفر: ضبطها محقق السلوك ١: ٦٠ بتشديد الصاد وضمها وفتح الفاء، وهو أحد المروج الواقعة حول مدينة دمشق. وانظر معجم البلدان ٤: ٤٨٨.

[٥] فى الأصول «من مدينة» والمثبت يقتضيه السياق.." (١)

"واستهلت سنة ست وسبعمائة

فى هذه السنة فى شهر المحرم عزل الأمير علم الدين سنجر الجاولى [١] أستاذ الدار من وظيفته وقطع خبزه وسفره إلى دمشق بغير إقطاع وذلك لتغير حصل من الأمير ركن [٢] الدين عليه ثم أنعم عليه بعد وصوله إلى دمشق بإمرة طبلخاناه [٣٩] .

وفيها عزل الصاحب سعد الدين عطايا [٣] من الوزارة فى الشهر المذكور وصودر على مائة ألف درهم خرجت فى ديوان البيوت السلطانية فى مدة نظره، فحمل من ذلك الى بيت المال ثمانين ألف درهم وسومح بما بقى وأفرج عنه ولزم داره ولما عزل فوضت الوزارة لتاج الدين بن سعيد الدولة الناظر وألبس التشريف السلطانى على كره منه وجلس فى المجلس إلى آخر النهار وقام وتوجه إلى بيته بعد العصر ومنع من لهم عادة بالركوب فى خدمة الوزير من الركوب معه ولما وصل إلى داره حضر قضاة القضاة للسلام عليه وتهنئته بالوزارة فلم يأذن لهم فى الدخول، وخرج غلامه إليهم وإلى من حضر ببابه فقال:

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٢٨/٣٢

من كان له حاجة فليطلع إلى القلعة. فانصرفوا من غير اجتماع به، وهرب هو في تلك الليلة واختفى وأعاد خلعة الوزارة واستمر فى اختفائه إلى أن رسم بإعفائه واستقراره على عادته وكان الحامل له على ذلك والذى أوجب له كراهة الوزارة أنه توهم من الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة كراهة ذلك فخاف عاقبته وكان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار شديد الاعتناء به وفوضت الوزارة بعد ذلك للصاحب ضياء الدين أبى بكر بن عبد الله النشائى، وكان أحد [٤] النظار فلم يكن له الوزارة إلا مجرد التسمية والمعلوم [٥] وما عدا ذلك من الأمر والنهى **والاستخدام** والعزل فهو لتاج الدين بن سعيد الدولة لا يخرج عن إشارته ورضى بذلك.

---

[١] له ترجمة فى الدرر الكامنة ٢: ٢٢٦، والدليل الشافعى ١: ٣٢٤، والنجوم الزاهرة ١٠: ١٠٩.

[٢] هو الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير البرجى، كان من مماليك المنصور قلاوون، وترقى حتى تولى السلطنة سنة ٧٠٨ هـ ولقب بالملك المظفر حين تولى عن الملك الناصر محمد بن قلاوون. وقتل سنة ٧٠٩ هـ وسيرد ذلك كله فى هذا الجزء- انظر كذلك ترجمته فى الدرر الكامنة لابن حجر ج ١ ص ٥٠٢- ٥٠٧ ترجمة رقم ١٣٧٣.

[٣] هو سعد الدين محمد بن محمد بن عطاء الله الشهير بابن عطايا (حسن المحاضرة للسيوطى ٢: ٢٢٣).

[٤] كذا فى ك، وف. وفى ص «أحد نظار النظار» .

[٥] فى ك «العلوم» والمثبت من ص، ولعل المقصود به راتب الوظيفة.." (١)

"والمذهب الكلامى، وحسن التعليل، والالتفات، والتمام، والاستطراد، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتأكيد الذم بما يشبه المدح، وتجاهل العارف، والهزل الذى يراد به الجد، والكنايات، والمبالغة، وإعتاب المرء نفسه، وحسن التضمين والتلميح، وإرسال المثل، وإرسال مثلين، والكلام الجامع، واللف والنشر والتفسير، والتعديد- ويسمى سياقة الأعداد- وتنسيق الصفات، والإيهام- ويقال له: التورية- والتخييل، وحسن الأبتداءات، وبراعة التخليص، وبراعة الطلب وبراعة المقطع، والسؤال والجواب، وصحة الأقسام، والتوشيح، والإيغال، والإشارة والتذييل، والترديد، والتفويف، والتسهيم، **والاستخدام**، والعكس، والتبديل والرجوع، والتغاير، والطاعة والعصيان، والتسميط، والتشطير، والتطريز، والتوشيع والإغراق، والغلو، والقسم،

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٣٢/١٢٢

والأستدراك، والمؤتلفة والمختلفة، والتفريق المفرد والجمع مع التفريق، والتقسيم المفرد، والجمع مع التقسيم، والتزاوج، والسلب والإيجاب والاطراد، والتجريد، والتكميل، والمناسبة، والتفريع، ونفى الشيء بإيجابه والإيداع «١» ، والإدماج، وسلامة الاختراع، وحسن الاتباع، والذم فى معرض المدح والعنوان، والإيضاح، والتشكيك، والقول بالموجب، والقلب، والتندير، والإسجال بعد المغالطة، والافتنان، والإبهام، وحصر الجزئى وإلحاقه بالكلى، والمقارنة والإبداع، والانفصال، والتصرف، والاشتراك، والتهكم، والتدبيج، والموجه وتشابه الأطراف. هذا مجموع ما أورده منها، واستشهد «٢» عليه بأدلة، وأورد أمثلة سنشرح منها ما يكتفى به اللبيب، ويستغنى به اللبيب «٣» .." (١)

"يقتضى أن يكون [بعده «١»] :

وكنت دجى الليل فيه الهلالا

ومن ذلك قول البحترى:

وإذا حاربوا أذلوا عزيزا

يحكم السامع بأن تمامه:

وإذا «٢» سالموا أعزوا ذليلا

وكذلك قوله:

احلت دمى من غير جرم وحرمت ... بلا سبب يوم اللقاء كلامى

فليس الذى حللته بمحلل

يعرف السامع أن تمامه:

وليس الذى حرمته بحرام.

وأما **الاستخدام**

– فهو أن يأتى المتكلم بلفظة لها معنيان، ثم يأتى بلفظتين يستخدم كل لفظة منهما فى معنى من معنى تلك «٣» اللفظة المتقدمة، وربما التبس **الاستخدام** بالتورية من كون كل واحد من البابين «٤» مفتقرا إلى لفظة لها معنيان، والفرق بينهما أن التورية استعمال أحد المعنيين من اللفظة، وإهمال الآخر، **والاستخدام**

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٧/٣٦

استعمالها معا، ومن أمثلته قول البحترى:

فسقى الغضى والساكنيه وإن همو ... شبوه بين جوانح وقلوب." (١)

"مله؛ والله يوزعه شكر هذا الافتقاد «١» على البعاد، ولا يخله من هذا الرأى الجميل الذى هو ملجأ الاستناد؛ وعقد الاعتقاد؛ والخادم لا ينفك متطلعا لأخبار المولى فترده مفضلة ومجمله، ومفصلة ومجمله؛ ويعرف منها ما يعرف به موقع اللطف بالمولى فى أحواله، ومكان النجح فى آماله؛ وأنه بحمد الله فى نعمة منه- لا غير الله ما به منها، ولا صرفها عنه ولا صرفه عنها- فيجدد لله الشكر والحمد، ويبلغه ما يبلغه منها المراد والقصد؛ ونسأل الله ألا يخلى الدولة الناصرية منه ناصرا لسلطانها، وعينا لأعيانها؛ وسيفا فى يد الإسلام يناضل عن حقه، وفرعا شريفا يشهد مرآه بشرف عرقه؛ والرأى أعلى فى إجرائه على ما عود من هذا الإنعام، وزيادته شرفا بالاستنهاض- إن صلح له- **والاستخدام**.

ومن جواب آخر: ورد كتاب المجلس- أدام الله واردات الإقبال على آماله، و [لا] سلبت «٢» الأيام نعمتى جميله وإجماله، ولا انحط قدر بدره عن درجتى تمامه وكماله، وأحسن جزاءه عن ميثاق «٣» الفضل الذى نهض باحتماله- ووقفت منه على ما لا يجد الشكر عنه محيدا، وآنست «٤» به القلب الذى كان وحيدا، وعددت يوم وصوله السعيد عيدا، ووردت منه بئرا معطلة «٥» وحللت قصرا مشيدا؛ ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وتلك الغاية ليست فى وسعى، ولا تعلم نفس إلا ما طرق سمعها، وتلك المحاسن ما طرق مثلها سمعى، ولا تتناول يد إلا ما وسعه ذرعها، وهذه الأوابد الأباعد ما طالها ذراعى ولا استقل بها ذرعى.." (٢)

"...

= بالاستعارة التخييلية، فيجب أن يؤول على أن المراد "وجعل نسبة ما هو على الاستعارة بالكناية غير الكائنة في المجاز العقلي، وأما الواقعة فيه فنسبة شبيه بالإنبات إليه قرينة".. وأجيب: بأن ما اشتهر عنه محمول على الاستعارة بالكناية غير الكائنة في المجاز العقلي وأما الواقعة فيه فالقرينة فيه قد تكون أمرا محققا، فما اشتهر عنه غير كلي، ويدل على ذلك أنه نفسه صرح في بحث المجاز العقلي بأن القرينة قد تكون أمرا محققا كما في أنبت الربيع البقل. وقول السكاكي: المكنية "هي أن تذكر المشبه وتريد المشبه

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ١٤٣/٧

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٣٩/٨

به بواسطة قرينة، وهي أن تنسب إليه شيئا من اللوازم المساوية للمشبه به"، يريد "بالمساوية" التي تصدق حيث صدق وتكذب حيث كذب.

٢ ويستلزم أن لا تصح الإضافة في نحو قولهم: فلان نهاره صائم وليله قائم، أي؛ لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه، وإضافة الشيء إلى نفسه لا تصح، فكل تركيب أضيف فيه الفاعل المجازي إلى الفاعل الحقيقي كما في المثالين السابقين تكون –على هذا– الإضافة فيه غير صحيحة، لبطلان إضافة الشيء إلى نفسه اللازمة من كلامه؛ لأن المراد بالنهار حينئذ فلان نفسه، ولا شك في صحة هذه الإضافة ووقوعها قال تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ ، وقال الشاعر:

فنام ليلي وتجلى همي.

وهذان المثالان أظهر؛ لأن "نهاره صائم" يمكن المناقشة فيه بأن الاستعارة إنما هي في ضميره المستتر لا في "نهاره" على **الاستخدام** المعروف في علم البديع. لكن المناقشة في المثال ليست من أدب العلماء – قال الدسوقي في "نهاره صائم": إضافة الشيء إلى نفسه إنما توجد إذا كان المراد "بالنهار" وضمير "صائم" واحدا، وأما إذا ارتكب **الاستخدام** وجعل الضمير في "صائم" راجعا إلى النهار. لا بالمعنى الأول وهو الزمان، بل بمعنى الشخص، فلا يلزم إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأن الاستعارة إنما هي في الضمير المستتر في صائم لا في نهاره.

٣ وأن لا يكون الأمر بالإيقاد على الطين في إحدى الآيتين وبالبناء فيهما لهامان مع أن النداء له فيكون الأمر له أيضا فلا يجوز تعدد المخاطب في كلام واحد أو جمعه أو عطفه.

قال الدسوقي: قيل إن هذا الإلزام إنما يتوجه على السكاكي إذا كان المسند مستعملا في معناه الحقيقي، وله أن يمنع ذلك مدعيا أن معنى "ابن" هو أمر بالبناء "وأوقد لي ياهامان" هو أمر بالإيقاد، فصح أن =." (١)

"من تلك الجهة والحيثية بل من حيث تفسيرهما وذكر أقسامهما، وقد يجاب عن هذا بأن تصور حقيقتهما يدرك معه بسهولة ما يذكر في علم المعاني من كيفية الاستعمال للمطابقة لمقتضى الحال؛ لأنه إذا علم أن المجاز يفيد تأكيد الملابسة علم أنه لا يعدل إليه عند اقتضاء المقام لذلك التأكيد مثلا فكأنه ذكر ولم يصرح به لوضوحه.

الحق مع السكاكي في عدهما من علم البيان، وما قيل عن عدهما في المعاني تكلف محض، ولابن

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة القزويني ، جلال الدين ١/١٠٠

السبكي رأي غريب في توجيه حجة السكاكي في عدهما من البيان، قال: جعلهما السكاكي في علم البيان؛ لأنه كان ينكر هذه الحقيقة وهذا المجاز فلذلك ذكرهما ثم.

٣- المجاز والحقيقة العقليان وصف للإسناد مطلقا سواء كان خبريا أو إنشائيا ولهذا قال الخطيب "ثم الإسناد منه حقيقة عقلية إلخ" فأتي بالاسم الظاهر دون الضمير -وإن كان المحل للضمير حيث كان السياق أن يقول ثم منه- لئلا يتوهم عوده على الإسناد المقيد بالخبرى في قوله "أحوال الإسناد الخبري، وارتكاب **الاستخدام** في الكلام خلاف الأصل"، ولا يرد أن المعرفة إذا أعيدت بلفظ المعرفة كانت عين الأولى فما لزم على الإتيان بالضمير لازم على الإتيان بالاسم الظاهر؛ لأنا نقول ليس هذا كليا بل مقيد بما إذا خلا عن قرينة المغايرة. ومما يدل على أن المراد الإسناد مطلقا الأمثلة الآتية من نحو: ﴿يا هامان ابن لي صرحا﴾ . وليس المراد خصوص الخبري كما قد يتوهم من كون البحث في الإسناد الخبري.

والحقيقة والمجاز العقليان يقتضي ذكرهما في الإسناد الخبرى وجعلهما وصفا للإسناد مطلقا -إنشائيا كان أو خبريا- اختصاصهما بالإسناد التام؛ لأن الإنشاء والإخبار وصفان له. مع أنهما لا يختصان بالإسناد التام بل يكونان في الإسناد الناقص كما في إسناد المصدر للفاعل وللمفعول به مثل أعجبني ضرب زيد وجري النهر وأعجبني إنبات الله البقل أو إنبات الربيع البقل.." (١)

"ولولا خوف الإطالة، وأني لم أضع هذه الأوراق لهذا، لأتيت بالشواهد على ذلك. لتعلم أيها الواقف على كتابي هذا أن ابن الأثير رحمه الله ما أتى بطائل، ولا رقت بكلامه أنفاس الأسحار ولا برود الأصائل، وأنه لو تأخر وجوده إلى هذا العصر علم أن قوله ليس بحجة، وأن قطره يغرق في مثل هذه اللجة، وأن الناس قد بلغوا محط الرحال وهو إلى الآن في الدلجة.

وما أحسن قول مجاهد الخياط يهجو أبا الحسين الجزار:

أبا الحسين تأدب ... ما الفخر بالشعر فخر

وما تبللت منه ... بقطرة وهو بحر

وإن أتيت ببيت ... وما لبيتك قدر

لم تأت بالبيت إلا ... عليه للناس حكر

وقد وضعت كتابا في التورية وسمته فض الختام عن التورية **والاستخدام** فإن أردت أن تكشف عن ماهية ذلك وتقف على محاسنه، فقف عليه، لعله يكون فيه لك زبدة، أو تجد فيه على ما ترونه نجدة.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة القزويني ، جلال الدين ١/١٢٤

ثم قال من فصل يذكر فيه الحمى: ولهذا صارت الأدوية في علاجها ليست بأدوية، وأصبحت أيام نحرها في الناس غير مبتدئة بأيام تروية.

أقول: ليس في السجعة الأولى طائل وهي كلام فارغ. وأما الثانية فما فيها غير التورية بيوم التروية للنحر، وليس في ذلك أمر كبير.

وما أحسن قول الجزار:

إني لمن معشر سفك الدماء لهم ... دأب، وسل عنهم إن رمت تصديقي

تضيء بالدم إشراقا عراصهم ... فكل أيامهم أيام تشريق

وأما أبيات المتنبي في الحمى فما لأحد مثلها في حسنها. منها:

وزائرتي كأن بها حياء ... فليس تزور إلا في المنام

بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي

يضيق الجلد عن نفسي وعنها ... فتوسعه بأنواع السقام

إذا ما فارقتني غسلتني ... كأنا عاكفان على حرام

كأن الصبح يطردها فتجري ... مدامعها بأربعة سجام

وحذا السراج الوراق حذوه فقال:

وزائرتي وليس بها احتشام ... تزور ضحى وتطرق في المنام

بها عهر وليس لها عفاف ... عن الشيخ الكبير ولا الغلام

إذا طرقت أعاذ الله منها ... سلوت عن الكرائم والكرام

لها في ظاهري حر وبرد ... بقلبي والفتور ففي العظام

تلهوج نارها لحمي طعاما ... وتشرب من دمي صرف المدام

وأصوات الغناء لها أنيني ... فما تنفك من هذا المقام

تضاجعني على ضعفي وشيبي ... وقد أعييت ربات الخيام

إذا ما فارقتني غسلتني ... لأني قد وصلت إلى حمامي

وما أحسن قول أمهدوست الديلمي:

وزائرة تزور بلا رقيب ... وتنزل بالفتى من غير حبه

تبيت بباطن الأحشاء منه ... فيطلب بعدها من عظم كربه

وتمنعه لذيذ العيش حتى ... تنغصه بمطعمه وشربه
أتت لزيارتي من غير وعد ... وكم من زائر لا مرحبا به
وقول ناصر الدين حسن بن النقيب:
أقول لنوبة الحمى اتركيني ... ولا يك منك لي ما عشت أوبه
فقالت: كيف يمكن ترك هذا ... وهل يبقى الأمير بغير نوبه
وقد ظرف مجير الدين محمد بن تميم في قوله، وقد حم النور الإسعردي:
أخفوا شماتتهم لدي وأقبلوا ... في زي مقروح الفؤاد كليم
قالوا بأن النور حم فقلت لا ... يس حول النور من حم
هكذا تكون مقاصد أهل الأدب وتورياتهم وأوصافهم، ليس كما قال ابن الأثير الأدوية في علاجها ليست أدوية.
وأقوال الناس في المليح المحموم مشهورة فلا حاجة إلى ذكرها. وكنت في وقت قد كتبت إلى بعض الأصحاب كتابا أشكو فيه الحمى. من ذلك: وينهي لا بل يشكو حاله التي ليس له منها بدل، وآلامه التي كلمت أعضاءه فلا يطيق جلده قطع ذاك الجدل، وحماه التي يلدغه منها عقرب وترميه قوس فليت جسمه مع ذلك حمل، واتصال رشح عرقه الذي لا يقال مع بحره سآوي من الصبر الجميل إلى جبل، فأين قولهم لقيت منها عرق القربة، ممن لقي منها غرق الكربة.." (١)

"يقول العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن عبد الظاهر أن أبا الحجاج يوسف ما برح لأهل الصلاح ميمما، وله جودة صناعة استحق بها أن يدعى قيما، كم له عند جسد من من جسيم، وكم أقبل مستعملوه تعرف في وجوههم نضرة النعيم، وكم تجرد مع شيخ صالح في خلوة، وكم قال ولي الله يا بشراي لأنه يوسف حين أدلى في حوض دلوه، كم خدم من العلماء والصلحاء إنسانا، وكم ادخر بركتهم لدنيا وأخرى فحصل من كل منهم شفيعين مؤتزرا وعريانا، كم شكرته أبشار البشر، وكم حك رجل رجل صالح فتحقق هنالك أن السعادة لتلحظ الحجر، قد ميز بخدمة الفضلاء أهله وقبيله، وشكر على ما يعاب به غيره من طول الفتيلة، كم ختم تغسيل رجل بإعطائه براءته يستعملها ويخرج من حمام حار، فاستعملها وخرج فكانت له براءة وعتقا من النار، كم أوضح فرقا، وغسل درنا مع مشيب فكان الذي أنقى فما أبقى، تتمتع الأجساد بتطيبيه لحمامه بظل ممدود وماء مسكوب، وتكاد كثرة ما يخرجه من المياه أن يكون كالرمح أنبوبا على أنبوب،

(١) نصرة الثائر على المثل السائر الصفدي ص/٨٠

كم له بينة حر على تكثير ماء يزول به الاشتباه، وكم تجعدت فباءت كالسطور في كل حوض فقل هذا كتاب الطهارة باب المياه، كم رأس انشدت موساه حين أخرجت من تلاحق الإنبات خضرا:

ولو أن لي في كل منبت شعرة ... لسانا يبث الشكر كنت مقصرا

أقول: ليس يخفى ما في هذا الكلام من التورية والاستخدام وحل الأبيات والحديث وغيره، ولولا خوف الإطالة لذكرت ذلك.

وما أحسن قول النصير الحمامي وألطفه:

لي منزل معروفه ... ينهل غيثا كالسحب

أقبل ذا العذر به ... وأكرم الجار الجنب

وقوله أيضا:

وكدرت حمامي بغيبتك التي ... تكدر من لذاتها كل مشرب

فما كان صدر الحوض منشرحا بها ... ولا كان قلب الماء فيها بطيب

وكتب يستدعي إلى حمامه:

من الرأي عندي أن تواصل خلوة ... لها كبد حرى وفيض عيون

تراعي نجوما فيك من حر قلبها ... وتبكي بدمعي فارح وحزين

غدا قلبها صبا عليك وأنت إن ... تأخرت أضحى في حياض منون

وللناس في مدح الحمام وذمها أشياء مليحة ليس هذا موضع ذكرها خوف الإطالة.

أمثلة على الألغاز الحسان

ومناقشة الفرق بين اللغز والتعريض

قال: ومما سمعته من الألغاز الحسان التي تجري في المحاورات، ما يحكى عن عمر بن هبيرة وشريك النميري. وذلك أن عمر كان سائرا على برذون له، وإلى جانبه شريك النميري، فتقدمه شريك في المسير فصاح به عمر: اغضض من لجامها. فقال: أصلح الله الأمير، إنها مكتوبة. فتبسم عمر ثم قال له: ويحك لم أرد هذا. فقال له شريك: ولا أنا أردته.

وكان عمر أراد قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فأجابه شريك بقول الآخر:

لا تأمنن فزاريا خلوت به ... على قلوصك واكتبها بأسيار

الفرق بين اللغز والتعريض

أقول: ليس هذا وأمثاله من الإلغاز في شيء، لأن اللغز هو أن تذكر شيئا بصفات يشاركه فيها غيره، فيرجع الذهن في ذلك إلى حيرة لا يدري مصرفها إلى أي متصف منهما بتلك الصفات، لكونها تصدق من جهة وتكذب من أخرى. واشتقاقه من اللغيزي، وهي حفر يحفرها اليربوع تحت الأرض، ويجعلها متشعبة يمنة ويسرة ليخفي أمره على من يقصده، فإذا طلبه في واحد منها خرج من آخر.

ألا ترى أن السامع إذا سمع قول القائل:

جارية جاءت من الهند ... يحثها السير إلى القصد

لها بنات لسن من جنسها ... في حدهم جزن عن الحد

لهم قرون ولها حافر ... وذاك من أغرب ما أبدي

وأعجب الأشياء أولادها ... يكلمون الناس في المهد." (١)

"فهل جيد العجم مثل جيد العرب. كوصف امرئ القيس في الخيل، والنابغة في الاعتذار، وزهير في المدائح، والأعشى في الخمر؟ أو كجيد جرير والفرزدق والأخطل وبشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبي نواس وديك الجن والحسين بن الضحاك والمتنبي وأبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز وأبي فراس وغيرهم وإلى هذا العصر، وما بين ذلك من الشعراء الذين تغرق قطرات العجم في لججهم، حتى إنه يقول: إن ذلك كله جيد لا يعاب. هل يستويان مثلا في الجودة من حيث هي:

ألم تر أن السيف ينقص قيمة ... إذا قلت إن السيف أمضى من العصا

وإنما قل الجيد في الشعر، لأن البلغاء وعلماء الأدب انتقوا الجيد العالي الذي يكون نهاية في الفصاحة والبلاغة، وجعلوه أنموذجا ومثالا يحذى، على ما قرروه بقوة فكرهم وصحة انتقادهم. فكان ذلك الجيد في الطبقة العليا. ولا جرم أن الساقط من الشعر أكثر من العالي عند أئمة البلاغة، وإلا فعلى الحقيقة، الذي يعده أرباب البلاغة من ساقط الشعر يكون جيدا عند غيرهم غير معيب، إلا ما هو ساقط إلى الغاية. وهذه النكتة هي العلة في قلة الجيد من الشعر.

ومن أين في شعر العجم ما في شعر العرب من المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه والتورية **والاستخدام** والجناس، على اختلاف كل نوع من هذه الأنواع وتشعب أقسامه. إلى غير ذلك من أنواع البديع وهو ما

---

(١) نصرة الثائر على المثل السائر الصفدي ص/٨٤

يقارب المائة نوع. هيهات ما بينهما صيغة أفعل.
وذكر الحصري في زهر الآداب أن أعرابيا قال لشاعر من أهل الفرس: الشعر للعرب، وكل من يقول الشعر منكم، فإنما نزا على أمه رجل منا. انتهى.
وقد أنصف ابن خلف في قوله: وللعرب بيت وديوان، وللعجم قصر وإيوان وأما دعواه أن الشاعر لا يحسن في الأكثر، فالعذر في ذلك ظاهر. لأنه في ضائقتين شديدتين إلى الغاية. وهما: الوزن، ولزوم الروي الواحد. والناثر غير مضطر إلى شيء منهما، بل هو مخلى ونفسه، إن شاء أتى بسجعتين على حرف واحد، وإن شاء على أكثر، وإن شاء أتى بالسجعة على عشرين كلمة، أو على أقل إلى كلمتين. ولو أتى الكاتب برسالة مطولة على حرف واحد في سجعه، وعدد مخصوص من كلمات السجع، لكان حاله حال الشاعر، بل كان كلامه أسمج وأثقل على الأسماع والقلوب، لأن الشعر يروجه الوزن، ولا كذلك النثر. فحينئذ لا يصلح هذا أن يكون فضيلة في النثر على النظم.
وكيف ولم يزل للشعر ماء ... يرف عليه ريحان القلوب
وليكن ها هنا آخر ما أردته من الكلام على المثل السائر وقد سامحته في كثير سقطه فيه ظاهر.
على أنني لا أنكر ما له فيه من الإحسان، والنكت التي هي لعين هذا الفن إنسان فإنه لم يأل جهدا في التوقيف الذي وقفه، ولم يقصر في التثقيف الذي ثقفه.
وقد نبه على محزات هذا الفن، وأشار إلى اقتناص ما شرد منه وما عن. وإذا اتفق للكاتب أو الشاعر مراجعة المثل السائر والفلك الدائر وهذه الأوراق، فلا مرية في أن ذلك يفيده فوائد جمة، ويتنبه لموارد الخطأ فيجتنبها، ويتيقظ لمواقع الحسن فينتجعها.
وقد أهديتها لك وهي عندي ... على الأيام من أزكى الهدايا
ولله الحمد أولا وآخرا، والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين والسلام.." (١)

"مثلى، أظهر فيها من شهد ألفاظه وجواهر معانيه ما حلا وحلى، ولم يدع للحلي في بهجتها محلا، وأحسن التذييل والترشيح «١» والتهكم عليه، من غير التفات لما أهمله ولم يتعرض إليه؛ وعادت المعاني تأوي من حسن تصرفه إلى ركن شديد، وتحوي بشبا «٢» أقلامه كل ما رامه من تأبيد التأييد؛ وتلقي مقاليدها منه إلى ملي بحسن التحيل والتحول في نظمه ونثره، وتحكم لمن حكم له بكمال وصفه ووصف كماله بأنه نسيج وحده وفريد عصره؛ وأجرى في حلبة البديع جياد أقلامه فحاز قصب الرهان، وأصفى لها

---

(١) نصرة الثائر على المثل السائر الصفدي ص/٩٧

موارد النفس فارتوت واستخرجت من ظلماته جواهر البيان، ونطقت بما هو المألوف من غرائب حكمه الحسان؛ وتأملتها فوجدتها قد أجاد فيها براعة المطلع، وبالغ في تحسين المنزع «٣» والمقطع، ودخل جنان الجناس فاجتنى من قطوفها الدانية ما راق، واطردت له أنهارها فاستطرد منها في أعلى الطباق؛ وقابل وجوه حورها أحسن المقابلة، آمنا فيها من الاشتراك والمماثلة، وأوضح الفروق بين التورية والإبهام، والتوجيه **والاستخدام**، وأبان في التتميم نقص أبي تمام، وأوجب في إبهامه عقد الخناصر على نظمه، وفوض بنزاهته التسليم له وطلب سلمه، ولم يقنع بما فيه الاكتفاء من التذييل والتذنيب، بل أتى في الاستدارك على من تقدمه بالعجب العجيب، معتمدا في تكميل مقاصده الاقتصار والإيجاز، ولو ادعى الإعجاز على الحقيقة لا المجاز لجاز؛ وتحققت أن ليس له في هذا الفن مقاو ولا مقاوم، ولا مساو ولا مساوم، فكم جلب من بحر براعته درة أشرقت في ليالي الفترة المسودة، وكم حلب من ثدي يراعته درة «٤» لها ألف زبدة، وكم بلغ الناظر من وصف بيانه مجمع." (١)

"تكررت زلاته، وتتابعت عثراته؛ تناوله من عقوبته بما يكون له مصلحا، ولغيره واعظا. وأن يختص أكابرهم وأماثلهم وأهل الرأي والخطر منهم بالمشاورة في الملم «١» ، والإطلاع على بعض المهم؛ مستخلصا نخائل «٢» قلوبهم بالبسط والإدناء، ومستشحذا بصائرهم بالإكرام والأحتفاء: فإن في مشاورة هذه الطبقة استدلالا على مواقع الصواب، وتحرزا من غلط الاستبداد، وأخذا بمجامع الحزامة، وأمنا من مفارقة الاستقامة؛ وقد حض الله تعالى على الشورى حيث قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين

«٣» .

وأمره بأن يعمد «٤» لما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين، ورباطات المرابطين، ويقسم لها قسما وافرا من عنايته، ويصرف إليها طرفا بل شطرا من رعايته؛ ويختار لها أهل الجلد والشدة، وذوي البأس والنجدة: ممن عجمته الخطوب، وعركته الحروب؛ واكتسب دربة بخدع المتناوبين «٥» ، وتجربة بمكايد المتقارعين؛ وأن يستظهر بتكثيف عددهم، واختيار عددهم؛ وانتخاب خيلهم، وإستجادة أسلحتهم؛ غير مجمر «٦» بعثا إذا بعثه، ولا مستكرهه إذا وجهه؛ بل يناوب بين رجاله مناوبة تريحهم ولا تملهم؛ وترفههم ولا تؤودهم: فإن في ذلك من فائدة الإجمام؛ والعدل في **الاستخدام**؛ وتنافس رجال النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٢٢٧/١

والنصر، وبعد الصيت والذكر، وإحراز النفع والأجر؛ ما يحق على الولاة أن يكونوا به عاملين «٧» ، وللناس عليه حاملين. وأن يكرر على أسماعهم، ويثبت." (١)

"غير مخالفين؛ فمن أحمدته منهم وعلمت نهضته فأجره على عادته ورسمه، ومن كان بخلاف ذلك فاستبدل به وامح من الخدمة ذكر اسمه؛ فلا يد مع يدك، ولا عدول عن مقصدك؛ **والاستخدام** في هذا الامر قد أسند إليك ورد، وكونه من جهة غيرك أغلق بابه وسد؛ فلا تصرف فيه إلا لمن صرفته، ولا خدمة إلا لمن استخدمته.

وتأكيد القول عليك لا يزيدك حرصا، والمعرفة بهمتك وخبرتك تغنيك عن أن توصى؛ والذي تقدم ذكره في هذا السجل إرهاف لحدك، وإعلاء لجدك، وإطلاع لكوكب سعدك؛ والله يتولى تأييدك وتوفيقك، ويوضح إلى الخير سبيلك وطريقك؛ فاعلم هذا واعمل به، وطالع مجلس النظر بأمور خدمتك، وما تحتاج إلى عمله في جهتك. إن شاء الله عز وجل.

وأما السجلات المكتتبة بالوظائف الديوانية، فكما كتب به بعض كتابهم بولاية ديوان المرتجع «١» :

لسني الدولة وجلالها، ذي الرياستين، أبي المنجى سليمان بن سهل بن عمران.

أما بعد، فإنه من حسنت آثاره في مناصحات الأئمة الخلفاء، وارتفع محله في طاعتهم عن الأنظار «٢» والأمثال والأكفاء، وظهرت بركات أفعاله فيما يتولاه ظهور الشمس ليس بها من خفاء، وباهى بتدبيره كل ما يباشره من أمر خطير قدره،." (٢)

"وأمينه، وعقده وثمينه، السيد الأجل الذي غدت آراؤه للمصالح كوافل، وأذكى للتدبير عيون حزم غير ملتفتات عنه ولا غوافل، وأطلع من السعد نجوما غير غوارب ولا أوافل، وقام بفرائض النصائح قيام من لم يجوز فيها رخص النوافل، وتحدثت بأفعاله رماحه في المحافل فما راعت الجحافل.

ولما مثل بحضرة أمير المؤمنين أجمل ذكرك وأطابه، وقصد بك غرض الاصطناع فأصابه، واستمطر لك الإنعام الغدق السحاب فأجابه، ووصف ما أنت عليه من شهامة شهدت وشهرت، وصرامة تظاهرت وظهرت، وكفاية برعت وفرعت، ونزاهة استودعت الأمانة فرعت، ومناصحة انفردت بوصفها، وتحلت واسطة عقد صفها، وجهاد لم يزل به القرآن مغريا، والصعب المقاد مذعنا والخطب عابيا «١» في قيادها مدعيا، وقرر لك **الاستخدام** في زم الطائفة فأمضى تقريره، واستصاب تدبيره، وخرج أمره إليه بأن يوعز إلى ديوان

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٩/١٠

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٦٥/١٠

الإنشاء بكتب هذا السجل وإيداعه ما تهتدي به، وتعمل بتأديبه؛ فتقلد ما قلدته من ذلك عاملا بالتقية فإنها الحجة والمحجة، والجنة، والمدد السليم، والمربح القويم، والنعمة والنعيم، يقول الله سبحانه في كتابه الحكيم: وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى

«٢» ؛ فانهض بشروط هذا الزم نهوضا يؤدي عنك من النصح مفروضا، ويجعل لك كل يوم كتاب شكر مفضوضا، وسس هذه الطائفة بما يوليها دواعي الوفاق، ويحميها من عوادي الافتراق، واجهد في منافعها مجتلبا، ولأخلاف درها محتلبا، وانتصب لاستشفاف أحوالهم وتعهدها وملاحظة أفعالهم وتفقدها؛ فمن ألفيته إلى فرائض الخدمة مسرعا، وبنوافلها متطوعا، وبكرمه عما يشينه مترفعا، شحذت بصيرته بالتكرمة، ورشحت همته للتقدمة، ومن وجدته لتلك الصفات الزائنة مخالفا وللصفات الشائنة مؤالفا، ولنفسه عما يرفعها صارفا،." (١)

"ما يفسح آمالها في الآجال، ويوثقها بدرور الأمثال) «١» ، فإنهم أمراء الحروب، وكفاة الخطوب، الذين يجاهدون عن الحوزة، ويرامون عن الدولة، وافرض لهم من الإكرام، وتام الاهتمام، ما تقتضيه مكانتهم في الدولة، وموضعهم من الخدمة، وتكفل أوساطهم بالرعاية، واصرف إليهم شطرا موفورا من العناية، وألحق من برز منهم وتقدم، ونهض وخدم، بنظرائه وأمثاله، وساو بينه وبين أشكاله، وتعهد أطرافهم بملاحظتك، وتفقدهم بسياستك؛ وخذهم بلزوم السير الحميدة، والمذاهب السديدة، والتوفر على ما يرهف عزائمهم، ويؤيد أيديهم، ولا تفسح لأحد من هذه المذاهب في مخالطة العوام ولا مشاركة التجار والاحتراف، ووكل بهم من النقباء من يتلي سيرهم، وينهي إليك أخبارهم: فمن علمته قد اجترأ إلى نسخ المذهب، فتناوله بأليم الأدب، واحضضهم على الإدمان في نقل السلاح، والضرب بالسيف، والمطاعنة بالرمح، والإرماء عن القوس، وميز من م ه ر واستقل، وقصر بمن ضجع وأخل، فهم كالجوارح التي ينفعها التعليم والإجراء، ويضرها الإهمال والإبقاء؛ وفي صرفك الاهتمام إليهم ما يزيد في رغبة ذي الهمة العلية، ويبعث المعروف في النفس الدنية، وأن تطالبهم بالاستعداد، وارتباط الخيول الجياد، والاستكثار من السلاح الشاك والجنن، وليكن ما تطالبهم بإعداده من هذه الأصناف على حسب الفروض من العطاء، ولا ترخص لأحد في الاقتناع بما لا يليق بمنزلته، والرضا بما يقع دون ما يعتده أماثل طبقته. ومن مات من هذه الطائفة وخلف ولدا يتيما فضمه إلى أمثاله، وانظر في حاله، ووكل به من يفقهه في دينه، ويعلمه ما لا غنى به عن تعليمه من كتاب الله وسنته، ومن يهذبه في الخدمة ويعلمه العمل بآلاتها، والتنقل في حالاتها، ويطلق له من إنعام أمير المؤمنين

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٦٩/١٠

ما يقوم بكلفتها ولوازمها، وخذ كل من تقدمهم بخدمها والجري على عادتها في النهوض بما يستنهض به، ولا يفسح لها في التثاقل عنه، وسو بينهم في **الاستخدام**، ولا تخص قوما دون قوم بالترفيه والإجمام؛ فإن في ذلك إرهافا لعزائمهم، وتقوية." (١)

"رقبة، وأطعم أرباب الاستحقاقات في يوم ذي مسغبة، وساعف بتيسير المعلوم كل كاتب ذي متربة «١» ، حريصا على أن يغني الديوان بوفره، وتغني حداة التجار بشكره، وعلى أن يقوم رجال **الاستخدام** في المهمات بنصره، وعلى أن تساق بفضي قلمه الأموال أحسن سوق، وعلى أن يكون لأهل الرحبة من إحسانه «مالك» ومن جدوى تدبيره «طوق» ؛ والله تعالى يوضح في المصالح منهاجه، ويعلي على رؤوس الأوصاف تاجه.

توقيع بنظر جعبر «٢» قبل أن تنقل إلى عمل حلب، من إنشاء ابن نباتة، كتب به «لهبة الله بن النفيس» ؛ وهو:

رسم بالأمر- لا زالت المناصب في دولته الشريفة تستقبل هبة الله بشكرها، ونتائج الذكر النفيس بمقدمات نشرها وبشرها- أن يرتب.........: لكفاءته التي اشتهرت، وأمانته التي طهرت فظهرت، ومباشرته التي ضاهت نجوم السماء إذا زهرت، ونجوم الأرض إذا أزهرت، وأنه الذي جرب عزمه فزكا على التجريب، ورقي في مطالع التدريج والتدريب، ونص حديث اجتهاده المقرب فكان سابقا على النص والتقريب، وأن هذه البقعة المباركة ممن أطاب التاريخ خبرها، وقص سيرها، وحمد صاحبها العقيلي من قديم أثرها، وعرف بركتها لما استسقى بها من السماء على لسان بعض الحيوان مطرها.

فليباشر هذا الثغر المحروس بكفاءة باسمة، وعزمة كالحسام لأدواء الأمور حاسمة، ورأي للنجاح حسن الاستصحاب، وتثمير كما ملأ الرحبة." (٢)

"يحتاج إلى إصلاح وترميم وعمارة، ويحرران أمر ذلك تحريرا، ويجتهدان في إصلاح ما يجب إصلاحه وترميم ما يجب ترميمه، والمطالعة بما كشفاه وما اعتمداه.

- فصل:

يتقدمان بعرض حواصل القلعة المنصورة، والخزانة المعمورة، ويحققون ما بها من الأموال والغلال والذخائر والحواصل، ويعملون بذلك أوراقا محررة، ويسيرون نسختها إلى الباب الشريف.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٤١١/١٠

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٤٠٧/١٢

- فصل:

يتقدمان بعرض مقدمي رجال القلعة، وأرباب الجامكيات «١» والرواتب بها، ويحرران أمر مقرراتهم: من جامكية وجراية، ويجريان في صرف ذلك على العادة الجارية المستقرة.

- فصل:

يستوضحان من الأمير عز الدين والأمير علم الدين المنصرفين عن المصالح المختصة بهذه القلعة وعن أمورها، جليلها وحقيرها، فإنهما قد أحسنا في ذلك التدبير، وأجملا التأثير، وسلكا أجمل مسلك، ويهتديان بما يوضحانه لهما من المصالح والمهمات ليكون دخولهما في هذا الأمر على بصيرة.

- فصل:

يكون أمر النيابة والحكم العام في القلعة المنصورة، وتنزيل الرجال واستخدامهم وصرف من يجب صرفه- للأمير سيف الدين باسطي بمشاركة الأمير عز الدين في أمر الرجال **والاستخدام** والصرف، ويكون أمر النيابة راجعا للأمير سيف الدين باسطي والحكم فيها له، ويكون أمر ولاية القلعة للأمير عز الدين، ويجريان في ذلك على عادة." (١)

"من أهل الذمة؛ وكيف؟ وفي الكتاب المشحون بالكذب والمين، شهادة سعد بن معاذ وكان قد توفي قبل ذلك بأكثر من سنتين، وشهادة معاوية بن أبي سفيان، وإنما أسلم عام الفتح بعد خيبر سنة ثمان؛ وفي الكتاب المكذوب أنه أسقط عنهم الكلف والسخر، ولم تكن على زمان خلفائه الذين ساروا في الناس أحسن السير.

ولما اتسعت رقعة الإسلام، ودخل فيه الخاص والعام، وكان في المسلمين من يقوم بعمل الأرض وسقي النخل، أجلى عمر بن الخطاب اليهود من خيبر بل من جزيرة العرب حتى [قال] «١» : «لا أدع فيها إلا مسلما» .

وفي شهر رجب سنة سبعمائة وصل إلى القاهرة المحروسة وزير صاحب المغرب حاجا، فاجتمع بالملك الناصر «محمد بن قلاوون» ، ونائبه يومئذ الأمير سلار، فتحدث الوزير معه ومع الأمير بيبرس الجاشنكير في أمر اليهود والنصارى، وأنهم عندهم في غاية الذلة والهوان، وأنهم لا يمكن أحد منهم من ركوب الخيل ولا **الاستخدام** في الجهات الديوانية، وأنكر حال نصارى الديار المصرية ويهودها بسبب لبسهم أفخر الملابس، وركوبهم الخيل والبغال، واستخدامهم في أجل المناصب، وتحكيمهم في رقاب المسلمين، وذكر

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ١٠٧/١٣

أن عهد ذمتهم انقضى من سنة ستمائة من الهجرة النبوية، فأثر كلامه عند أهل الدولة، لا سيما الأمير بيبرس الجاشنكير، فأمر بجمع النصارى واليهود، ورسم أن لا يستخدم أحد منهم في الجهات السلطانية، ولا عند الأمراء، وأن تغير عمائمهم، فيلبس النصارى العمائم الزرق، وتشد في أوساطهم الزنانير، ويلبس اليهود العمائم الصفر ويدقوا... «٢» في البيع في إبطال ذلك فلم يقبل منهم، وغلقت الكنائس بمصر والقاهرة، وسمرت أبوابها، ففعل بهم ذلك، وألزموا بأن لا يركبوا إلا الحمير، وأن." (١)

"يخرج كم من أكمامه يعرف بفرد الكم ويشير إلى زمام القصر وزمام بيت المال الواقفين بباب المجلس، فيرفع كل منهما جانب الستر فيظهر الخليفة جالسا على سرير الملك مستقبل القول بوجهه، ويستفتح القراء بالقرآن، ويدخل الوزير المجلس ويسلم بعد دخوله، ثم يقبل يدي الخليفة ورجليه، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع ويقف ساعة زمانية، ثم تخرج له مخدة عن الجانب الأيمن من الخليفة ويؤمر بالجلوس إليها، ويقف الأمراء في أماكنهم المقررة لهم، فصاحب الباب واسفهسلار من جانبي الباب يمينا ويسارا، ويليهم من خارجه ملاصقا للعتبة زمام الآمرية والحافظية وباقي الأمراء على مراتبهم إلى آخر الرواق، وهو إفريز عال عن أرض القاعة، ثم أرباب القضب «١» والعماريات يمنة ويسرة كذلك، ثم الأماثل والأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة، ويقف مستندا بالقدر الذي يقابل باب المجلس نواب الباب والحجاب، فإذا انتظم الأمر على ذلك، ف أول ماثل للخدمة بالسلام قاضي القضاة والشهود المعروفون **بالاستخدام** فيجيز صاحب الباب القاضي دون من معه فيسلم على الخليفة بأدب الخلافة، بأن يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة، ويقول بصوت مسموع: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» يتخصص بهذا الكلام دون غيره من أهل السلام، ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمامهم، وبالأشراف الطالبيين نقيبهم، فتمضي عليهم كذلك ساعتان زمانيتان أو ثلاث، ثم يسلم عليه من خلع عليه بقوص أو الشرقية أو الغربية أو الإسكندرية، ويشرفون بتقبيل العتبة، وإذا دعت حاجة الوزير إلى مخاطبة الخليفة في أمر، قام من مكانه وقرب منه منحنيا على سيفه، ويخاطبه مرة أو مرتين أو ثلاثا، ثم يأمر الحاضرون بالانصراف فينصرفون، ويكون آخرهم خروجا الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله. فإذا خرج إلى الدهليز الذي ترجل فيه، ركب." (٢)

""كيف أخل، في كتابه المسمى بفض الختام عن التورية **والاستخدام**، بذكر علاء الدين ابن المظفر الكندي الشهير بالوادعي، وهو أشهر من "قفا نبك" في نظم التورية، بل هو امرؤ قيسها وكنديها".

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٣٧٧/١٣

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء القلقشندي ٥٧٣/٣

ولو كان ابن حجة، قد أخل بذكر المتنبي في كتابه هذا، لما كان لنا عليه مأخذ، وإنما نأخذ عليه ذكره له والتجني عليه، مع محاولته الخبيثة في إيهام القارئ بأنه هو، أي ابن حجة، من أنصاره ومريديه، بينما يبدو لنا أنه يغمطه حقه ويجور عليه في الحكم، حين نراه يتجاهل سبقه إذ يقول في معرض حديثه عنه وعن الطغرائي: "انظر إلى محاسن هذين الفحلين إلى الغاية التي تمثلا بها ... وتأخر سوابق الأفهام عن معرفة السابق منهما إلى الغاية".

كما أننا نرى أن ابن حجة يحاول، في مكان آخر، التغطية والتعمية على القارئ، بإخفاء بغضه، وربما حسده، للمتنبي، مع الغمز الخفي من قناته فيقول: "وقد عن لي أن أجمع هنا ما حلا بذوقي من أمثال أبي الطيب المتنبي، وإن كان فيها ما ولده من شعر أبي تمام".

فإن في هذا الكلام ما يفهم منه أن المتنبي كان عيالا على غيره من الشعراء، وفي هذا ما فيه من غمز من قناة هذا الشاعر الفحل، مع أن هذا لم يقل به غير ابن حجة، إذ المعروف بين الباحثين والنقاد أن الكثيرين من الشعراء هم عيال على المتنبي، ويقصر الكثيرون منهم عن التحليق في سمائه.

ومهما يكن من أمر صاحب "الخزانة" فإننا لا يمكن أن نغمطه حقه وجهده في كتابه الموسوعي "خزانة الأدب" إذ إنه يبقى خزانة حقيقية للأدب. لا غنى عنها للباحث الأديب والمتأدب، بل تكاد تكون فريدة في عصرها، وفي غزارة مادتها وتنوعها.

بيروت في ٨/ ٦/ ١٩٨٦م.

عصام شعيتو." (١)

"واتصل بخدمة المحمودي، أمير دمشق، ثم قدم بصحبته هاربا من طرابلس الشام، إلى القاهرة، بعد أن عضته حرب الثغور بأنيابها، ووصل إليها سنة اثنتين وثمانماية للهجرة، وبقي فيها حتى توفي الملك المؤيد، حيث تسلط عليه، بعده، جماعة من شعراء عصره، لأنه كان ظنينا بنفسه وبشعره، مزريا بغيره من الشعراء، فراحوا يقذعون في هجائه، حتى أن أحدهم قال فيه:

زاد ابن حجة بالإسهال من فمه ... وصار يسلح منثورا ومنظوما

وظن أن قد تنبا في ترسله ... لو صح ذلك قطعا كان معصوما

وما زالوا به يضايقونه، حتى خرج من مصر، عائدا إلى مسقط رأسه حماة، حيث مات فيها سنة سبع وثلاثين وثمانماية للهجرة، ودفن في تربة باب الجسر.

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ١٣/١

مؤلفاته:

لابن حجة مجموعة لا بأس بها من المؤلفات، إن دلت على شيء فإنما تدل على سعة اطلاعه وغزارة إنتاجه، وعلى طول باعه في النظم والتأليف.

وقد عد له صاحب الأعلام الكثير من المؤلفات، منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط، نذكر منها:

- خزانة الأدب وغاية الأرب، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وهو عبارة عن شرح المؤلف للبديعية التي كان أنشأها في مدح الرسول الكريم، معارضا فيها كلا من الشيخ صفي الدين الحلي والشيخ عز الدين الموصلي، ملتزما فيها بذكر النوع البديعي، وقد طبع طبعة أولى وهذه هي طبعته الثانية.
- ثمرات الأوراق، وهو عبارة عن مجموعة محاضرات، "مطبوع".
- كشاف اللثام عن التورية **والاستخدام**.
- حديقة زهري "مطبوع".
- قهوة الإنشاء، في مجلدين ضخمين "مخطوط".
- بروق الغيث أو شرح لامية العجم.
- بلوغ المرام من سيرة ابن هشام "مخطوط".
- بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد.
- الثمرات الشهية من الفواكه الحموية، وهو من النظم "مخطوط".
- تأهيل الغريب "مطبوع".
- أمان الخائفين من أمة سيد المرسلين.
- وله ديوان شعر بديع.." (١)

"ففي طلعة شمس التورية هنا ما يغني عن النظر إلى زحل الجناس ولقد أحسن من قال:

انظر إلى صور الألفاظ واحدة ... وإنما بالمعاني تعشق الصور

والجناس من صور الألفاظ، وممن وافق على ذلك علامة عصره الشهاب محمود، وقال: إنما يحسن الجناس إذا قل، وأتى في الكلام عفوا، من غير كد ولا استكراه ولا بعد ولا ميل إلى جانب الركة١، ولا يكون كقول الأعشى.

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني ... شاو مشل شلول شلشل شول٢

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ١٦/١

ولا كقول مسلم بن الوليد:

شلت وشلت ثم شل شليلها ... فإني شليل شليلها مشلولا٣

ولا بأس به في مطالع القصائد، إن تعذر على الناظم أن يركبه تورية، فإنه نوع متوسط، بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع، كما قرره مشايخه، كالتورية **والاستخدام** والاستعارة والتشبيه، وما قارب ذلك من أنواع البديع. وحكي عن ابن جني: أن الأصمعي كان يدفع قول العامة إذا قالوا هذا يجانس هذا إذا كان من شكله، ويقول ليس بعربي خالص. وقال ابن رشيق صاحب العمدة: هو من أنواع الفراغ. وقلة الفائدة، ومما لا يشك في تكلله. وقد كثر منه هؤلاء الساقة المتعقبون في نظمهم ونثرهم حتى برد ورك "انتهى كلامه". ولم يحتج إليه، بكثرة استعماله، إلا من قصرت همته عن اختراع المعاني التي هي كالنجوم الزاهرة في أفق الألفاظ، وإذا خلت بيوت الألفاظ من سكان المعاني تنزلت منزلة الأطلال البالية، وما أحلى قول الفاضل هنا:

إنما الدار قبل بالسكان ... ثم بعد السكان بالجيران

فإذا ما الأرواح شردها الحت ... ف فماذا يراد بالأبدان

وكان الشيخ صلاح الدين الصفدي يستسمن ورمه ويظنه شحما، فيشبع أفكاره منه ويملأ بطون دفاتره، ويأتي فيه بتراكيب تخف عندها جلاميد الصخور، كقوله غفر الله له:

---

١ الركة: الركاكة: وهي ضعف البناء اللغوي.

٢ شاو: الذي يشوي اللحم. مثل شلول شلشل شول: كلها ألفاظ ذات معنى واحد وهو الخفيف السريع في عمله.

٣ شلت: الأولى بمعنى نسجت. والثانية بمعنى: رميت ولم تستعمل، شل: أرسل. شليلها: الذي نسجها: شليل شليلها: بمعنى أنني مغرم بالذي نسجها، مشلولا: لا حركة له.." (١)

"مما يؤيد قولي أنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله، ويعجبني هنا قول الشيخ زين الدين عمر بن الوردي رحمه الله تعالى:

إذا أحببت نظم الشعر فاختر ... لنظمك كل سهل ذي امتناع

ولا تقصد مجانسة ومكن ... قوافيه وكله إلى الطباع

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ١/٥٥

وكان الأسعد بن مماتى أيضا، ممن لم يجعل الجناس له مذهبا في نظمه، وما أحلى ما قال:

طبع المجنس فيه نوع قيادة ... أو ما ترى تأليفه للأحرف

ومن غريب ما يحكى: أن الشيخ صلاح الدين الصفدي، مع تهافته على الجناس والتزامه بما صنفه في جنسه وأنواعه، زاحم ابن مماتى في لفظ بيته ومعناه فقال:

ألا إن من عانى القريض بطبعه ... يقود فأرسله لمن صد واحتشم

ألم تره إن قال شعرا مجانسا ... يؤلف ما بين الحروف إذا نظم

فانظر كيف أخذ المعنى وغالب الألفاظ، ولم يتمكن من نظم ذلك إلا في بيتين، أتى فيهما بكثرة الحشو مع قلة الأدب على أهله، فإن الأسعد أثبت القيادة لطبع المجنس، والشيخ صلاح الدين أثبت الحكم المذكور لمن يعاني نظم الشعر، وقد طال الشرح وتعين الكلام على الجناس، لأن الشروع فيه يلزم لأجل المعارضة لمن تقدمني من ناظمي البديعيات.

أما هذا النوع فإنه ما سمي جناسا إل لمجيء حروف ألفاظه من جنس واحد، ومادة واحدة، ولا يشترط فيه تماثل جميع الحروف، بل يكفي في التماثل ما تعرف به المجانسة. وأما اشتقاق الجنس فمنهم من يقول: التجنيس، هو تفعيل من الجنس، ومنهم من يقول: المجانسة، المفاعلة من الجنس أيضا، إلا أن إحدى الكلمتين، إذا تشابهت بالأخرى، وقعت١ بينهما مفاعلة الجنسية. والجناس مصدر جانس، ومنهم من يقول: التجانس، التفاعل من الجنس لأنه مصدر تجانس الشيئان، إذا دخلا في جنس واحد، ولما انقسم أقساما كثيرة وتنوع أنواعا عديدة، تنزل منزلة الجنس الذي يصدق على كل واحد من أنواعه، فهو حينئذ جنس، وأنواع: التام والمحرف والمصحف والملفق، وهلم جرا. كما أن البديع جنس وأنواعه: الجناس واللف والنشر والاستعارة والتورية **والاستخدام** وغير ذلك من أنواع البديع، وأما حدود أنواع الجناس، فقد اختلفت

---

١ في الأصل وقع وما أثبتناه أصح "الشارح".." (١)

"ذكر **الاستخدام:**

واستخدموا العين مني وهي جارية ... وقد سمحت بها أيام عسرهم

الاستخدام هو استفعال من الخدمة، وأما في الاصطلاح فقد اختلفت العبارات في ذلك على طريقين:

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ١/٥٧

الأولى طريقة صاحب الإيضاح ومن تبعه، ومشى عليها كثير من الناس، وهي أن **الاستخدام** إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين، ثم تعيد عليه ضميرا تريد به المعنى الآخر، أو تعيد عليه، إن شئت، ضميرين تريد بأحدهما أحد المعنيين وبالآخر المعنى الآخر، وعلى هذه الطريقة مشى أصحاب البديعيات والشيخ صفي الدين الحلي والعميان والشيخ عز الدين، وهلم جرا. الثانية: طريقة الشيخ بدر الدين بن مالك رحمه الله تعالى، في المصباح، وهي أن **الاستخدام** إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، ثم يأتي لفظ يفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الآخر المعنى الآخر، ثم إن اللفظين قد يكونان متأخرين عن اللفظ المشترك، وقد يكونان متقدمين، وقد يكون اللفظ المشترك متوسطا بينهما، والطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد وهو استعمال المعنيين، وهذا هو الفرق بين التورية **والاستخدام**، فإن المراد من التورية هو أحد المعنيين، وفي **الاستخدام** كل من المعنيين مراد.

ونقل الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى "بفض الختام عن التورية **والاستخدام"**، ما يؤكد هذا، فإنه قال: المشترك، إذا لزم استعماله في مفهوميه معا، فهو **الاستخدام**، وإن لزم في أحد مفهوميه في الظاهر، مع لمح الآخر في الباطن، فهو التورية.

ومنهم من قال: **الاستخدام** عبارة عن أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين اشتراكا أصليا، متوسطة بين قرينتين تستخدم كل قرينة منهما معنى من معنيي تلك اللفظة.." (١)

"فإنه قال: شرط علماء البديع أن يكون اشتراك لفظة **الاستخدام** اشتراكا أصليا والنظر هنا في اشتراك لفظة الغضى، فإنه ليس بأصلي، لأن أحد المعنيين منقول من الآخر، والغضى في الحقيقة الشجر وسموا الوادي غضى، لكثرة نبتة فيه، وقالوا جمر الغضى لقوة ناره، فكل منقول من أصل واحد، ولم يرد في كتب المؤلفين غير هذين البيتين، وقول أبي العلاء:

قصد الدهر من أبي حمزة الأواب ... مولى حجى وخدن اقتصاد١

وفقيها أفكاره شدن للنعم ... ـمان ما لم يشده شعر زياد٢

فالنعمان يحتمل هنا أبا حنيفة رضي الله عنه، ويحتمل النعمان بن المنذر ملك الحيرة، فإن الزمخشري صنف كتابا في مناقب أبي حنيفة سماه "شقائق النعمان في حقائق النعمان" وأما أبو العلاء، فإنه أراد بلفظ النعمان أبا حنيفة، وأراد بالضمير المحذوف ابن المنذر ملك الحيرة وزياد هنا هو النابغة، وكان معروفا بمدح النعمان بن المنذر، وهذا يصح على طريقة ابن مالك، فإن فقيها يخدم أبا حنيفة، وشعر زياد يخدم النعمان

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ١١٩/١

بن المنذر، ولا يصح على مذهب صاحب الإيضاح؛ فإن ضمير يشده لم يعد على واحد منهما، لأن شرط الضمير في **الاستخدام** أن يكون عائدا على اللفظة المشتركة، ليستخدم بها معناها الآخر، كما قال البحتري في شبوه، فهذا الضمير عائدا إلى الغضى، وهذا جعل الضمير في يشده غير عائد على اللفظة المشتركة التي هي النعمان، فصار طيب الذكر الذي يشيده زياد لا يعمل لمن هو، لأن المضير لا يعود على النعمان، اللهم إلا أن يكون التقدير، ما لم يشده له، فيعود الضمير على النعمان بهذا التقدير. انتهى.

وما أحلى قول بعض المتأخرين، مع عدم التعسف، والسلامة، من النقد، وصحة الاشتراك الأصلي، وهو:

وللغزالة شيء من تلفته ... ونورها من ضيا خديه مكتسب

وأنا بالأشواق إلى معرفة الناظم، وهذا النوع، أعني **الاستخدام**، قل من البلغاء من تكلفه وصح معه بشروطه، لصعوبة مسلكه وشدة التباسه بالتورية، وقد تقدم ما أوردنا فيه من النقد على بيتي البحتري وأبي العلاء، وهو أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية،

---

١ الأواب: الذي يرجع عن ذنبه ويتوب سريعا – الحجى: الذي يوثق به – خدن: خدين تجمع على أخدان: وهم الأصحاب.

٢ شذن: من شاد يشيد: يبني.." (١)

"وأحلى موقعا في الأذواق السليمة، ولكن قل من ظفر منه بسلامة التخلص من علق النقد، وصعد من غور التعسف إلى نجد السهولة، قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في كتابه المسمى ب"فض الختام عن التورية **والاستخدام**": ومن أنواع البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية **والاستخدام** الذي تقف الأفهام حسرى١ دون غايته عند مرامي المرام:

نوع يشق على الغبي وجوده ... من أي باب جاء يغدو مقفلا

لا يقرع هضبته فارع٢، ولا يقرع بابه قارع، إلا من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب، ويجري ريحها بأمره رخاء حيث أصاب، على أن المتقدمين ما قصدوه جملة كافية، ولا شعروا به لما شعروا أنه دخل معهم في بيت تحت قفل قافيه، وأما المولدون من الشعراء، كالفرزدق وجرير ومن عاصرهما وخاض معهما لجة بحر البلاغة، فلم يرد أحد منهم ورد هذا الغدير، وأما الذين تفقهوا من بعدهم في الأدب، وتنبهوا لتخلل طرقه بالطلب، فربما قصدوا بعض أنواع البديع، فجادت إذ جاءت، وفاتت مرة أخرى وأخرى فاءت٣، وقد قصد

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ١٢١/١

أبو تمام كثيرا من الجناس، وفتح أبوابه، وشرع طرقه للناس.

وأما التورية **والاستخدام** فما تنبه لمحاسنهما، وتيقظ وتحرى وتحرر وتحفد٤ وتحفظ إلا من تأخر من الشعراء والكتاب، وتضلع من العلوم وتطلع من كل باب، وأظن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى هو الذي ذلل منهما الصعاب، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب، حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصره، وخفقت رياحهم بالإخلاص في نصره، كالقاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك، ومن انخرط معه في هذا السلك، ولم يزل هو ومن عاصره على هذا المنهج، في ذلك الأوان، ومن جاء بعدهم من التابعين بإحسان، إلى أن جاء بعدهم حلبة أخرى، وزمرة تترى٥، فكلهم يرمون في هذا الإحسان عن قوس واحدة، وينفقون من مادة هي في الجود معن بن زائدة، ويصلون المقطوع بالمقطوع فلا تخلو فيه كلمة فائتة من فائدة، وغالب شعرهم على هذا النمط، وأكثره درر أسماع متى تلتق تلتقط، كأبي الحسين

١ حسرى: أصابها العياء والتعب.

٢ فارع: مصعد.

٣ فاءت: رجعت إلى الصواب.

٤ تحفد: أسرع.

٥ تترى: تالية.." (١)

"الجزار والسراج الوراق والنصير الحمامي والحكيم شمس الدين بن دانيا والقاضي محي الدين بن عبد الظاهر، فهؤلاء هم الفحول الذين جدوا، بعد القاضي الفاضل، إلى هذه الغاية ورفعوا راية هذا النوع، وكان كل منهم عرابة تلك الراية، تسابقوا جيادا، والديار المصرية لهم حلبة، وتلاحقوا أفرادا، وهم في شرف هذا الفن من هذه النسبة.

وجاء من شعراء الشام جماعة، تأخر عصرهم وتأزر نصرهم ولأن في هذا النوع هصرهم وبعد حصرهم، فيما أرادوه، كما زاد حصرهم كل ناظم تود الشعرى١ لو كانت له شعرا، ويود الصبح لو كان له طرسا والغسق مدادا، والنثرة٢ نثرا، منهم شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة، والأمير مجير الدين بن تميم، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، ومحي الدين بن قرناص، وشس الدين بن محمد العفيف، وسيف

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ١٢٢/١

الدين بن المشد. ثم إن الشيخ صلاح الدين قال في آخر هذا الفصل: وهؤلاء معهم جماعة يحضرني ذكرهم عند شعرهم، ويعز علي أن لم أرهم على تكاثرهم لفوات عصرهم، وكأني بقائل يقول: لقد أفرطت في التعصب، لأهل مصر والشام على من دونهم من الأنام، وهذا باطن باطل، وعدوان وحمية لأنطانك وما جاورها من البلدان، فالجواب: إن الكلام في التورية **والاستخدام** لا غير، ومن هنا تنطقع المادة في السير، ومن ادعى أنه يأتي بدليل وبرهان، فالمقياس بيننا والشقراء والميدان.

وقد رجح صاحب يتيمة الدهر شعراء الشام على شعراء العراق، وقال: إنهم حازوا قصبات السبق عليهم في حلبة السباق، فإنهم قوم جبلت طباعهم على اللطافة، وطبعت جبلتهم على الكيس٣ والظرافة. انتهى كلام الشيخ صلاح الدين الصفدي.

قلت: واتصل هذا الحديث القديم، بالشيخ جمال الدين بن نباتة، فأينع فرعه النباتي بغصنه ووريقه، واستعبد التورية **والاستخدام** في سوق رقيه، فمن استخداماته ما أرانا من استخدام البحتري عيب الوليد، وقلنا بعده في استخدام أبي العلاء ليس على الأعمى حرج، فإنه مشى على الحس في ظلمة التعقيد، واستخدام الشيخ جمال الدين الموعود به، قوله فمن قصيدة رائية امتدح بها النبي –صلى الله عليه وسلم:

إذا لم تفض عيني العقيق فلا رأت ... منازله بالقرب تبهى وتبهر

وإن لم تواصل عادات السفح مقلتي ... فلا عادها عيش بمغناه أخضر ٤

---

١ الشعرى: كوكب نير يطلع عند شدة الحر.

٢ النثرة: مجموعة من النجوم في صورة السرطان.

٣ الكيس: اللباقة في التصرف.

٤ السفح: انهمار الدمع.." (١)

"انظر أيها المتأمل، إلى صحة الاشتراك بين **الاستخدامين**، وانسجام البيت الأول مع البيت الثاني، وسيلان الرقة لذا القطر النباتي، والتشبيب المرقص بالمنازل الحجازية، والغزل الذي يليق أن تصدر به المدائح النبوية، ولعمري إنه مشى على طريق صاحب الإيضاح فزاده إيضاحا، ولو دعي إلى عروس الأفراح زاده أفراحا، وهذه القصيدة، التي ظفرت منها بهذين **الاستخدامين**، محاسنها غرر في جباه القصائد، ولأنواع البديع بها صلة ومن أبياتها عائد، منها:

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، ابن حجة ١٢٣/١

سقى الله أكتف الغضى سائل الحيا ... وإن كنت أسقى أدمعا تتحدر

وعيشا نضى عنه الزمان بياضه ... وخلفه في الرأس يزهو ويزهر١

تغير ذاك اللون مع من أحبه ... ومن ذا الذي يا عز لا يتغير

وكان الصبا ليلا وكنت كحالم ... فوا أسفي والشيب كالصبح يسفر٢

يعللني تحت العمامة كتمه ... فيعتاد قلبي حرة حين أحسر٣

وينكرني ليلي وما خلت أنه ... إذا وضع المرء العمامة ينكر

ومنها:

وغيداء أما جفنها فمؤنث ... كليل وأما لحظها فمذكر٤

يروقك جمع الحسن في لحظاتها ... على أنه بالجفن جمع مكسر

يشف وراء المشرفية خدها ... كماشف من دون الزجاجة مسكر٥

خليلي كم روض نزلت فناءه ... وفيه ربيع للنزيل وجعفر٦

وفارقتها والطير صافرة بها ... وكم مثلها فارقتها وهي تصفر٧

ومنها في وصف الناقة:

ورب طموح العزم أدماء جسرة ... يظل بها عزمي على البيد يجسر٨

طوت بذراعي وخدها شقة الفلا ... وكف الثريا في دجى الليل يشبر٩

---

١ نضن: خلع ونزع.

٢ يسفر: يبدو ويظهر.

٣ أحسر: أكشف.

٤ كليل: مريض، ومرض الجفون من صفات الجمال عند الحسان.

٥ شف: رق حتى بدت الأشياء من خلاله.

٦ الجعفر: النهر، وتجمع على جعافر.

٧ صافرة: مغردة أو أصابها الصفار وهو الجوع - وتصفر: أي خالية من صفر.

٨ الأدماء: السمراء وهي من صفات الناقة – الجسور: القوية – يجسر: يجرؤ.

٩ الوجد: نوع من السير، يشير: يقيس بشبره والشبر ما بين طرفي الإبهام والخنصر.." [(١)]

"ومد جناحي طلها ألف الضحى ... فشدت كما شد النعام المنفر ١

بصم الحصى ترمي الحداة كأنما ... تغار على محبوها حين يذكر ٢

إذا ما حروف العيس خطت بقفرة ... غدت موضع العنوان والعيس أسطر

فلله حرف لا ترام كأنها ... لوشك السرى حرف لدى الشد مضمر

وعارض الشيخ جمال الدين بن نباتة جماعة نسجوا على منواله في عصره، لكن الذوق السليم يشهد أنهم كانوا خلاصة قطره٣ وهذا الشرح هو جامعهم الكبير، وإذا ذكرت فيه نظائرهم، فاعلم أنه ليس له فيهم نظير.

نرجع إلى **الاستخدام** وشواهده وإيراد أبيات البديعيات فيه، فبيت صفي الدين قوله:

من كل أبلج واري الزندي يوم قرى ... مشمر عنه يوم الحرب مصطلم٤

وبيت العميان:

إن الغضى لست أنسى أهله فهم ... شلوه بين ضلوعي يوم بينهم٥

أقول لو عاش البحتري ما صبر للعميان على هذه السرقة الفاحشة، فإنهم أخذوا لفظه ومعناه، وضميره وما اختشوا من الحرب، ولا سلموا من النقد. وبيت عز الدين:

والعين قرت بهم لما بها سمحوا ... واستخدموها من الأعدا فلم تنم

قوله: والعين قرت بهم لما بها سمحوا، في غاية الحسن، فإنه أتى **بالاستخدام** وعود الضمير في شطر البيت، مع الانسجام والرقة واستخدامه في العين الناظرة وعين المال، وأما قوله في الشطر الثاني: واستخدموها من الأعدا فلم تنم، ما أعلم ما المراد به، فإنه **الاستخدام** في العين، التي هي الجارحة، قد تقدم، والذي يظهر لي أن اضطراره إلى تسمية النوع ألجأه إلى ذلك، وبيت بديعيتي:

واستخدموا العين مني فهي جارية ... وكم سمحت بها أيام عسرهم

فالتورية في جارية بعدما استخدموها، لم يوجد في سوق الرقيق مثلها، والعود بالضمير مع تمكن القافية وعدم التكلف والحشو، لا يخفى على أهل الذوق السليم، فإن قافية مصطلم، في بيت صفي الدين تمجه الأذواق. انتهى الكلام على **الاستخدام**

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ١٢٤/١

١ مد جناحي ظلها ألف الضحى: أي أصابها الحر.

٢ الحداة: جمع مفرده الحادي وهو الذي يحدو الإبل في سيرها يحثها على الإسراع.

٣ خلاسة قطره: أي أخذوا منه من خلص وهي أخذ خلسة وخفية.

٤ الأبلج: الذي بعد ما بين حاجبيه، دلالة على عزيمته، وارى الزندي: هكذا في الأصل. والذي نراه واري الزند: معلم الزند – القرى: الإطعام وقت الحاجة، مصطلم: أي مقطع الأذنين.

٥ شلوه: أرسلوه، وقد وردت هذه في بيت البحتري السابق: شبوه بمعنى: أشعلوه وأضرموه.." (١)

"كأني بمتأمل نظر في رسم كتابة هذا الزجل، فأنكره لبعده عن رسم الألفاظ المعربة الخالية من اللحن، ويعذر في ذلك، لأنه ليس له إلمام بمصطلح رسمه؛ ومن رسمه على غير هذا الطريق لم ينفذ له مرسوم، فإنه يؤديه إلى خطأ وزنه، وعراف لحنه. ومصنفه، أبو بكر بن يحيى بن قرمان الوزير، قال في خطبته: وقد جردته من الإعراب، تجريد السيف من القراب. ولم يطلب من الزجل غير عذوبة ألفاظه وغرابة معانيه. انتهى.

ومن التواجيه اللطيفة في الطب، ما اتفق أن بعض الملوك خرج لقتال أعدائه، فأيده الله بنصره، فطلب كاتب إنشائه ليكتب على الفور حكاية الحال، فتعذر وجوده في ذلك الوقت، فطلب طبيبه وأمره بالكتابة بسرعة، وكان الطبيب حاذقا فكتب موجها في صناعته: أما بعد فإنا كنا مع العدو في حلقة كدائرة البيمارستان٣، حتى لو رميت مبضعا لم يقع إلا على قيفال٤، ولم يكن إلا كجس نبضة أو نبضتين، حتى لحق العدو بحران عظيم. فهلك بسعادتك يا معتدل المزاج. وكان أبو الحسين الجزار ونصير الدين الحمامي وسراج الدين الوراق لم يخرجوا عن هذا النوع في غالب نظمهم، ويأتي الكلام على ذلك في مواضعه من باب التورية، وأما توجيه أسماء أنواع البديع فهو نسيج وحده، وواسطه عقده وما ذاك إلا أنه رسم لي بإنشاء توقيع المقر الأخوي الزيني، عبد الرحمن بن الخراط الشافعي، أحد أعيان العصر في الأدب، بكتابة السر بثغر طرابلس، وأنا منشئ ديوان الإنشاء الشريف الميدي بالديار المصرية، فقصدت التوجيه بالأنواع المذكورة لتحصل الملاءمة ومراعاة النظير بذلك، فإن صاحب التوقيع من المتميزين على كلا الحالين بحسن الأدب، فمن ذلك قولي في فصل التعدية، وبعد فمنهل إنعامنا الشريف قد حلينا لأهل الأدب مورده، لتصير عقود إنشائنا بجواهر منثوره منضده، وتطلع كل براعة باستهلالها في أشرف الطالع، وتسكن النزاهة طباق البديع للمقابلة فيتنزه الناظر و السامع، ويقوم **الاستخدام** بما يجب عليه من واجب الخدمة، ويزيل الاقتباس بنوره

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ١٢٥/١

عن أهلته كل ظلمة، وتجول خيول الاستطراد في رد العجز على صدره، ويحصل لأهل الأدب في زماننا تمكين فيظهر الافتتان في نظمه ونثره، ويصير لفقه المذهب الكلامي في أيامنا الشريفة ترشيح ومماثلة ومناسبة، ويبرز في توشيح التسليم من غير اعتراض مناقضة ومواربة، ويجنح العصيان إلى الدخول تحت الطاعة، ويسمع القول بموجبه من غير مراجعة في كل براعة، ويزول التجاهل بالعارف، ويصير التسجيع والموازبة عند إيجازه بالمواقف.

---

١ البيمارستان: المستشفى "فارسية معربة".
٢ القيفا: الوريد الذي في جانب العضد "معربة".." (١)

"فهرس الموضوعات:

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ٣١٦/١

"قال حذاق الأدب تراكيب التورية، في هذا البيت بالنسبة إلى ديباجة المتأخرين وطلاوة ألفاظهم، وزخارف بيوتهم تستحق قول القائل:

وما مثله إلا كفارغ حمص ... خلي من المعنى ولكن يفرقع

لأن هذا النوع، أعني التورية، ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب، ولعمري إنهم بذلوا الطاقة في حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب، فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة، وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول، ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول، ومما يؤيد قولي هذا، قول الشيخ صلاح

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ٤٧٩/١

الدين الصفدي -رحمه الله تعالى- في ديباجة كتابه المسمى: "بفض الختام عن التورية **والاستخدام**".

ومن البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية **والاستخدام**، فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غايته عن م رامي المرام.

نوع يشق على الغبي وجوده ... من أي باب جاء يغدو مقفلا

لا يفرع هضبته فارع١، ولا يقرع بابه قارع، إلا من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب، وتجري ريحها بأمره رخاء حيث أصاب.

وقال الزمخشري، وهو حجة في هذا العلم: ولا نرى بابا في البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله، وكلام نبيه -صلى الله عليه وسلم- وكلام صحابته -رضي الله عنهم أجمعين- فمن ذلك قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ٢ لأن الاستواء على معنيين، أحدهما، الاستقرار في المكان، وهو المعنى القريب المورى به، الذي هو غير مقصود؛ لأن الحق تعالى وتقدس منزه عن ذلك، والثاني الاستيلاء والملك وهو المعنى البعيد المقصود الذي وري عنه بالقريب المذكور. انتهى. ومنه قول النبي -صلى الله عليه وسلم- حين سئل في مجيئه عند خروجه إلى بدر فقيل لهم: ممن أنتم؟ لم يرد أن يعلم ال سائل فقال: "من ماء". أراد أننا مخلوقون من ماء، فورى عنه بقبيلة يقال لها ماء. ومنه ما روي عن النبي، صلى الله عليه وسلم: أنه قال: "لا يزال المنام طائرا حتى يقص فإذا قص وقع". ففي الكلام توريتان: لفظة طائر، ولفظة يقص، ويحتمل أيضا أن يكون في لفظة وقع تورية ثالثة. ومنه قول أبي بكر -رضي الله عنه- في الهجرة، وقد

---

١ فرع: الهضبة علاها.

٢ طه: ٢٠/ ٥.." (١)

"مضارعه يسخو، ويسخو من ذوات الواو فلا يجوز أن يكون سخينا فعلا على هذا التقدير، فالإجماع عند أهل اللغة أنه يقال: سخا يسخا وسخا يسخو، وهذا مذهب الجوهري في الصحاح، وعلى هذا التقدير، فاشتراك التورية في سخينا صحيح ممكن من الوجهين. انتهى.

وكشف أيضا عن قناع التورية في شعره النابغة الذبياني بقوله:

خيل صيام وخيل غير صائمة ... تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما١

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، ابن حجة ٢/٤٠

أراد بالصيام ههنا القيام، وورى بقوله: تعلك اللجما، عن الصيام.

وأورد السكاكي، في المفتاح، للعرب من هذا الباب.

حملناهم طرا على الدهم بعدما ... خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

أراد بالحمل على الدهم، تقييدهم، وأوهم بالركوب على دهم الخيل.

قلت: وقبل المتنبي أيضا بزمن طويل قال أبو نواس:

فتنت قلبي محببة ... وجهها بالحسن منتقب٣

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى: "بفض الختام عن التورية **والاستخدام**" امتحنت، ببيت أبي نواس جماعة ممن حاضرتهم وذاكرتهم وعاطيتهم كئوس الأدب وعاشرتهم، فبعضهم استخرج منه النكتة، وبعضهم لم أجد له إليها لفتة.

وقال البحتري:

ووراء تسدية الوشاح ملية ... بالحسن تملح في القلوب وتعذب٤

الشاهد في قوله: تملح، فإنه يحتمل أن يكون من الملوحة التي هي ضد العذوبة، وهو المعنى القريب المورى به، ويحتمل أن يكون من الملاحة وهو المعنى البعيد المورى عنه، وقد تقدم من لوازمه على جهة التبيين قوله: ملية بالحسن.

---

١ العجاج: الغبار، اللجم: جمع لجام وهي حديدة توضع في فم الحصان أو الفرس حتى تسهل السيطرة عليه.

٢ الدهم: جمع أدهم: القيود، والمصائب، والخيول السوداء اللون، الطعان: القتال.

٣ منتقبة: لابسة نقابا وهو الحجاب.

٤ ملية بالحسن: كثيرة الحسن.." (١)

"**والاستخدام**". وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم، وتأزر نصرهم، ولأن في هذا النوع هصرهم١ وبعد حصرهم، كل ناظم تود الشعرى٢، لو كانت له شعرا، ويتمنى الصبح لو كان له طرسا والغسق مددا والنثرة٣ نثرا، ما حلا من بنات فكره خودا٤ إلا شاب لحسنها الوليد، وسيرها في الآفاق وبين يديها من النجوم جوار٥ ومن الشعراء عبيد، كالشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة، والأمير

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، ابن حجة ٢/٤٢

مجير الدين بن تميم، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، ومحيي الدين بن قرناض الحموي، وشمس الدين محمد بن العفيف، وسيف الدين بن المشد. وقال الشيخ صلاح الدين في أواخر ديباجة كتابه المذكور. ومع هؤلاء جماعة يحضرني ذكرهم عند شعرهم، ويعز علي إذ لم أرهم على تكاثرهم لفوات عصرهم. وتلطف بقوله بعد ذلك: ولا تقل أيها الواقف على هذا التأليف، لقد أفرطت في التعصب لأهل مصر والشام، على من دونهم من الأنام، وهذا باطل ودعوى عدوان، وحمية لأوطانك ومن جاورها من البلدان. فالجواب أن الكلام في التورية لا غير، ومن هنا تنقطع المادة في السير، ومن ادعى أنه يأتي بدليل وبرهان. فالمقياس بيننا والشقراء٦ والميدان. انتهى كلام الشيخ صلاح الدين الصفدي.

قلت: قد تقدم وتقرر أن التورية عند علماء هذا الفن بمنزلة الإنسان٧ من العين، وسموها في البلاغة سمو الذهب على العين٨، وقد ثبت أن خواطر المتقدمين كانت بها شحيحة، وأفكارهم لا تقصد مظانها٩ وإن كانت سليمة صحيحة، لكنها ربما وقعت لهم عفوا من غير مرام١٠، فنقول إنها رمية من غير رام. وقد علم أن المتأخرين من الفاضل إلى من فضل بعدهم نور مشكاتها١١، والمتفكهين في أدواح الأدب بثمراتها، فإذا جليت عرائس أفكارهم على اختلاف أنواع التورية لا يمل المتأمل، اللهم إلا أن يكون سيف

---

١ هصرهم: غمزهم.

٢ الشعرى: كوكب نير يطلع في الجوزاء في شدة الحر.

٣ النثرة: مجموعة من النجوم في صورة السرطان تشكل المنزلة الثامنة من منازل القمر.

٤ الخود: الفتاة الحسناء.

٥ جوار: جمع جارية: وهي الخادمة.

٦ الشقراء: الفرس.

٧ الإنسان: إنسان العين، بؤبؤها.

٨ العين: ما ضرب نقدا من الدنانير.

٩ مظانها: أماكنها التي يصعب الوصول إليها.

١٠ مرام: مطلب.

١١ المشكاة: مكان وضع المصباح أو القنديل.." (١)

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ٤٤/٢

"ذهنه كليلا[1] فيقول إنه من هذا الفن متنصل[2]، فإن هذه العرائس لم تبرز لمتأمل إلا من خدور هذا الكتاب، وإذا طلبها من غيره توارت عنه بالحجاب، فإذا سرح المتأمل طرفه وأمسى في كل واد من محاسنها يهيم، وتنوعت حلاوات أنواعها لذوقه السليم، جردت سيف العزم وأقمت لكل نوع حدا، ونظمت له من أنواع التورية وأقسامها في سلك هذا النوع عقدا، فإن الشيخ صفي الدين الحلي لم يذكر في شرح بديعيته نوعا من أنواع التورية، ولا قسما من أقسامها، بل ذكر حد التورية الذي أجمع الناس عليه وقال: هي أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين قريب وبعيد، فيذكر لفظا يوهم القريب إلى أن يجيء بقرينة يظهر منها أن مراده البعيد.

قلت: ومن أين يعرف الطالب من هذا الحد التورية المجردة، والتورية المرشحة وقسميها، والمبنية وقسميها، والمهيأة وأقسامها.

وكذلك العلامة زكي الدين بن أبي الأصبح، لم يذكر في كتابه المسمى "بتحرير التحبير" نوعا من أنواعها ولا قسما من أقسامها، مع أن كتابه ما وضع في هذا الفن له نظير، بل قال: التورية، وتسمى التوجيه، وهي أن يكون الكلام يحتمل معنيين، فيستعمل المتكلم أحد احتماليه ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله.

وأما صاحب التلخيص فإنه قال، مشيرا إلى البديع: ومنه التورية، وتسمى الإيهام أيضا، وهي أن يطلق لفظ له معنيان، قريب وبعيد، وهي ضربان: مجردة ومرشحة. ولم يزد على هذا القدر شيئا.

وإذا أردت ما وعدت بإيراده من طلاوة المتأخرين في التورية، شرعت في الكلام على أنواعها وأقسامها، ليسير ركب الأدب في طرقها المتشعبة بدليل، ويصير لديباجة هذا النوع تفصيل، وقد قدمت ذكر الفاضل ومن فضل بعده، في باب **الاستخدام**، ولكن لم يمكن اختصارهم في باب التورية، فإنهم فرسان حلباتها، وأجل من سكن غريب نظمه بأبياتها، وكل ما أوردته لهم ولغيرهم من التورية في غير بابه، تعين نظم شمله هنا، ليجتمع كل غريب بأقاربه وأنسابه. فمن مخترعات القاضي الفاضل في التورية قوله من مديح قصيدة طائية، وهي نكتة لم تختل في صدر غيره، وهو:

أما الثريا فنعل تحت أخمصه ... وكل قافية قالت لذلك طا[3]

---

[1] كليلا: غير قاطع.

٢ تنصل: تخلص، نفى إسهامه.

٣ طا: أي طأ. أمر من وطأ.." (١)

"ومنه قوله وأجاد:

ورياض وقفت أشجارها ... وتمشت نسمة الصبح إليها

طالعت أوراقها شمس الضحى ... بعد أن وقعت الورق عليها١

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى: "بفض الختام عن التورية **والاستخدام**"١، لما وقف على هذين البيتين نكتة التوقيع، هنا، أليق بابن عبد الظاهر، لكن طلع واطلع عليه البدر، وحفظ سره لما أضاعه ذلك الصدر، ومنه قوله:

وحديقة مطلولة باكرتها ... والشمس ترشف ريق أزهار الربا٢

يتكسر الماء الزلال على الحصى ... فإذا جرى بين الرياض تشعبا

ومن هنا أخذ الشيخ برهان الدين القيراطي فقال من قصيدة:

وكأن ذاك النهر فيه معصم ... بيد النسيم منقش ومكتب٣

فإذا تكسر ماؤه أبصرته ... في الحال بين رياضه يتشعب

ويعجبني قوله من قصيدة كلها غرر، ولولا خشية الإطالة لأوردتها بكمالها:

وتنبهت ذات الجناح بسحرة ... بالواديين فنبهت أشواقي

ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن ... يعقوب والألحا١ن عن إسحاق

قامت تطارحني الغرام جهالة ... من دون صحبي بالحمى ورفاقي

أني تباريني جوى وصبابة ... وكآبة وأسى وفيض مآقي٤

وأنا الذي أملى الجوى من خاطري ... وهي التي تملي من الأوراق

ومنه قوله:

هلم يا صاح إلى روضة ... يجلو بها العاني صدا همه

نسيمها يعثر في ذيله ... وزهرها يضحك في كمه

ومنه قوله:

أدر كئوس الراح في روضة ... قد نمقت أزهارها السحب

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ٢/٤٥

١ الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة.

٢ مطلولة: أصابها الطل وهو الندى.

٣ مكتب: مجمع أو مخطط.

٤ مآقي: جمع مؤق وهو مكان خروج الدمع من العين.." (١)

"ومن لطائفه قوله:

لئن صرفت وحاشا ... ك فالدنانير تصرف

وما اعتقلت كريما ... إلا وأنت مثقف

ومن لطائفه قوله:

الحمد لله في حلي ومرتحلي ... على الذي نلت من علمي ومن عملي

بالأمس كنت إلى الديوان منتسبا ... واليوم أصبحت والديوان ينسب لي

ومن لطائفه قوله:

لعبت بالشطرنج مع شادن ... رشاقة الأغصان من قده١

أحل عقد البند من خصره ... وألثم الشامات من خده

تورية الشامات رخصها المتأخرون بعد سيف الدين بن المشد. وممن أخذها الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال:

أفديه لاعب شطرنج قد اجتمعت ... في شكله من معاني الحسن أشتات٢

عيناه منصوبة للقلب غالبة ... والخد فيه لقتل النفس شامات

انتهى ما تخيرته ووعدت بإيراده في باب التورية. من كلام هذه العصابة، التي مشت تحت العصائب الفاضلية، وصار لها من بعده في نظم التورية أعظم روية، وقدمت إمامهم الذي صلت الجماعة خلفه، وهو القاضي الفاضل وبعده القاضي السعيد ابن سنا الملك، والشيخ سراج الدين الوراق، وأبو الحسين الجزار، ونصير الدين الحمامي، وناصر الدين حسن بن النقيب، والحكيم شمس الدين بن دانيال، والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وهذه "هي" الفرقة التي تقدمت بعد الفاضل بالديار المصرية. وأما الفرقة الشامية فإمام جماعتها الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة، وبعده مجير الدين بن تميم،

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ٨٨/٢

وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، ومحيي الدين بن قرناص الحموي، وشمس الدين بن العفيف، وسيف الدين بن المشد.

ولكن عجبت من الشيخ صلاح الدين الصفدي كيف أخل في كتابه المسمى: "بفض الختام عن التورية **والاستخدام**" بذكر الشيخ علاء الدين على بن المظفر الكندي الشهير بالوداعي، وهو اشهر من قفا نبك، في نظم التورية، بل هو امرؤ قيسها وكنديها، وإذا

---

١ الشادن: الغزال.

٢ أشتات: متفرقات.." (١)

"ذكر شرف نسبها فإنه علويها، وانتقل من حلب إلى دمشق المحروسة، وعاصر الجماعة المذكورين، ومولده سنة أربعين وستمائة، ووفاته سنة ست عشرة وسبعمائة، فكانت مدة حياته ستا وسبعين سنة. ومولد السراج الوراق سنة خمس عشرة وستمائة، ووفاته سنة خمس وتسعين وستمائة، فكانت مدة حياته ثمانين سنة. ومولد أبي الحسين الجزار سنة إحدى وستمائة ووفاته سنة اثنتين وسبعين وستمائة، فمدة حياته إحدى وسبعون سنة. ووفاة نصير الدين الحمامي لسنة اثنتي عشرة وسبعمائة. ووفاة ناصر الدين بن النقيب سنة سبع وثمانين وستمائة. ووفاة الحكيم بن دانيال سنة عشر وسبعمائة. ومولد محيي الدين بن عبد الظاهر سنة عشرين وستمائة، ووفاته سنة اثنتين وتسعين وستمائة، فمدة حياته اثنتان وسبعون سنة. ومولد شيخ الشيوخ الأنصاري سنة ست وثمانين وخمسمائة، ووفاته سنة إحدى وستين وستمائة، فمدة حياته خمس وسبعون سنة. ووفاة مجير الدين بن تميم سنة إحدى وثمانين وستمائة. ووفاة بدر الدين يوسف الذهبي سنة ثمانين وستمائة. ومولد شمس الدين بن العفيف سنة اثنتين وستين وستمائة، ووفاته سنة سبع وثمانين وستمائة، فمدة حياته خمس وعشرون سنة. ومولد سيف الدين بن المشد سنة اثنين وستمائة ووفاته سنة خمس وخمسين وستمائة. فمدة حياته ثلاث وخمسون سنة. وجل القصد من ذلك، تحقيق الواقف على هذا الشرح، إن علاء الدين الوداعي عاصر الجماعة أو غالبهم، وقد تقدم قولي في باب التوجيه، إن الشيخ علاء الدين الوداعي سبك التورية في قوالب لم يسبقه أحد من هذه الجماعة إليها، ولا سقط فكره عليها.

ومع علو قدر الشيخ جمال الدين بن نباتة، وهو الذي مشت ملوك الأدب قاطبة، بعد الفاضل، تحت أعلامه، تطفل على موائد نكت الوداعي ومعانيه، وعلى الأنواع الغريبة من تواريه. وأوردت هناك من هذا

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، ابن حجة ٢/١٠٧

القدر نبذة، ولكن تعين إيرادها هنا كاملة لأنها حق من حقوق التورية، وصل في تقدمه إلى غير مستحقه بحيث إن الطالب إذا أراد أن يفرد هذا النوع، أعني التورية، كان بإفراده فريدا، وعقدا نضيدا. وكلما أوردته من أنواع التورية في غير بابه، عزمت على نظم شمله هنا ليجتمع كل غريب بأقاربه وأنسابه، وقد عن لي أنني إذا فرغت من هذا الشرح أن أفراد بابا للتورية **والاستخدام**، أجعلهما مصنفا مفردا، وأسميه: كشف اللثام عن وجه التورية **والاستخدام**، فإن الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه، لم يشف القلوب بترتيبه، ولا تفقه في بديعه وغريبه.

فمن موائد الوداعي التي تطفل الشيخ جمال الدين بن نباتة عليها قوله من قصيدة:

أثخنت عينها الجراح ولا إث ... م عليها لأنها نعساء

زاد في عشقها جنوني فقالوا ... ما بهذا فقلت بي سوداء." (١)

"ولكن وجدت هذا النوع الذي نحن بصدده أحلى في الأذواق، وأوقع في القلوب، وعلى سننه مشى أصحاب البديعيات، فألغيت أيضا ما اخترعه ابن أبي الأصبع، رحمه الله.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي على هذا النوع في وصف الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين:

ما روضة وشع الوسمي بردتها ... يوما بأحسن من آثار سعيهم١

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين في بديعيته قوله:

ما الدوح تفريعه بالزهر متسق ... نظما بأطيب من تعريف ذكرهم

وبيت بديعيتي أقول فيه عن الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين:

ما العود إن فاح نشرا أو شدا طربا ... يوما بأطيب من تفريع وصفهم

هذا البيت فيه نوع التفريع، الذي هو القصد هنا، والتورية بتسميته، **والاستخدام**، ومرعاة النظير، وفيه الانسجام، والتمكين، والله أعلم.

---

١ وشح: زين وزخرف. الوسمي: مطر الربيع.." (٢)

"(تلك ماذية وما لذباب السيف والصيف عندها من نصيب ...) // الخفيف //

فاستخدم لفظ الذباب في معنييه الأول طرف السيف والثاني الطائر المعروف

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي، ابن حجة ١٠٨/٢

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي الحموي ، ابن حجة ٣٨٧/٢

ولابن جابر الأندلسي فيه

(في القلب من حبكم بدر أقام به ... فالطرف يزداد نورا حين يبصره)

(تشابه العقد حسنا فوق لبته ... والثغر منه إذا ما لاح جوهره) // البسيط //

ومن ظريف الاستخدام قول السراج الوراق

(دع الهويني وانتصب واكتسب ... واكدح فنفس المرء كداحه)

(وكن عن الراحة في معزل ... فالصفع موجود مع الراحة) // السريع //

استخدم الراحة في معنييها الأول من الاستراحة والثاني من اليد

وبديع قول الصفى الحلى

(لئن لم أبرقع بالحيا وجه عفتي ... فلا أشبهته راحتي في التكرم)

(ولا كنت ممن يكسر الجفن في الوغى ... إذا أنا لم أغضضه عن رأي محرم) // الطويل //

ومن الاستخدامات البديعة قول ابن نباتة المصري يمدح النبي صلى الله عليه وسلم

(إذا لم تفض عيني العقيق فلا رأت ... منازله بالقرب تبهى وتبهر)

(وإن لم تواصل عادة السفح مقلتي ... فلا عادها عيش بمغناه أخضر) // الطويل //

ومنها

(سقى الله أكناف الغضا سائل الحيا ... وإن كنت أسقي أدمعا تتحدر)." (١)

"أعلم أن الأيام والأجرام والبروج والكواكب والأجسام والدوائر متطابقة التأليف متوافقة التكييف قد تربعت جهة وريحا وأقطابا وطبعا، وتشعبت قوى وجوانب ونقصا وزيادة إلى غير ذلك فمثالها في الانسان اثنا عشر مخرجا عينان وأذنان وقم ومنخران وسرة وثديان وسبيلان قد قيست بالبروج ونفس بالشمس إذ لا تزيد ولا تنقص وعقل بالقمر في قبول الحالتين والخمس الحواس بالخمس البواقي وهكذا إلى درج في العروق ومفاصل بالجو زهرات والكلم خدمة بلسان الشرع ملائكة ولسان الحكمة نفوس وعقول مجردة، وفرع أهل الرياضة والروحانيات والارصاد على ذلك الاستخدام واستنزال الكواكب وتكليمها والطيران إليها وتحريك الجمادات إلى غير ذلك مما بسطناه في كتبنا الحكمية وجارينا فيه أهل كل فن على مقتضى قواعدهم مما لا يليق بهذا المحل وهل ذلك إلا قوة عاشقية فليعتبر أولوا الأبصار وليتذكر أولو الألباب فسبحان من أوجد ذلك واستغنى عنه واتر فيه ومنه لا تغيره الأزمان ولا تفنيه الأوقات ولا يعجزه اختلاف

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص أبو الفتح العباسي ٢٧١/٢

الأكوان.

الباب الخامس

في تتمات يفتقر إليها الناظر في هذا الكتاب

ويحسن موقعها عند أولي الألباب

فذلك هو المشروع الجامع لما ذكر في المصارع وينحصر في فصول مختلفة وإن كانت في الجنس مؤتلفه.

فصل

في تحقيق معنى الحسن والجمال

وما استلطاف في ذلك من الأقوال

الأصل في المحاسن والمطلوب عند العقلاء في كل المواطن إنما هو إصلاح السرائر وتهذيب البواطن لا الظواهر وإنا ضم إصلاح الظاهر إلى ما ذكر طلبا لتحصيل الكمال ودلالة في الأغلب على الاعتدال ويتم الأول بتحسين المقاصد وإصلاح العقائد وقصر القلب على عتبات الحق في ذلك المواقف مستمدا بالمراصد مستعدا للأوامر الالهية وتلقى ما في تلك الصحائف وذلك كما قال محقق المقول ومهذب الفروع والأصول وجامع المراتب الباطنة والظاهرة، وقطب دائرة الكائنات في الدنيا والآخرة.

إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب وصلاحه استعداده لقبول ما يجب فعله وترك ما يجب تركه وذلك متعذر إلا بعد الأخذ بالحظ الأوفر من أمهات الأخلاق، وهي الحكمة والشجاعة والمروءة والعدالة، فإنها لهذا المورد كالاخلاط للمزاج افراطا واعتدالا، وخير الأمور سلوك الاعتدال للسلامة من الافراط والتفريط اللاحقين لكل من هذه كالتهور والجبن ولازم مما ذكرنا التخلق بالعفاف والزهد والصدق والورع والتسليم إلى غير ذلك وعد قوم العفة أصلا بدل المروءة لأنها تندرج في العدالة وبعض المتصوفة جعلى التسليم أصلا أيضا، وبالجملة فهذه الخصال الداعية إلى حفظ ما به النظام من النفس والعقل والعرض والمال، فإن المتخلق بها محال أن يقنع منه قتل أو أخذ ما يزيل عقله أو زنا أو تناول غير ما هو له فهذه أصول السياسة ونظام المدنية وموضع بسطها الحكمة بل ملازمة الشريعة المطهرة فقد أغنت عنها فهذه الأخلاق التي لا أجدر من وصف المتخلق بها بالحسن والجمال.

وأما المحاسن الظاهرة اللائق ذكرها بهذا المحل وإليها إشارة المترسمين، وفيها غالب النثر والنظم. فالعبارات عنها كثيرة، والألفاظ فيها غزيرة، قال بعضه الحسن الصريح ما استنطق بالتسبيح أو هو تناسب الخاتمة واعتدال البشرة وصفاء المادة أو مركب من الوضاءة والتناسب والصباحة.

وقيل الحسن بياض اللون وسواد الشعر وكل منهما شطره، والصباحة كالملاحة، والبياض والجمال ما أخذ بالبصر أو هو السمن اشتقاقا من اسم الشحم.

والصحيح أنه معنى لا يدرك ويختلف باختلاف الأشخاص ودقة الأنظار وصحة التأدي إلى الأفكار وهذا معنى قوله الحسن ما زين الزينة واستحسن دونها وإلى ذلك كله أشرت بقولي:

جميلة الأوصاف لطيفة منظر ... مليحة عطف طاب منها المغارس

يدق عن الألباب إدراك حسنها ... وجلت فزلت عن علاها المقايس

منعمة لم تلبس الوشي زينة ... ولكن أحبت أن تزان الملابس

غرست بلحظي الورد في وجناتها ... ومن دمي المسفوك تسقي الغرائس

وجئت لأجني ما غرست فصدني ... من الجفن أسياف هناك وحارس." (١)

"الكواكب، إشارة إلى هذا الخلاف الواقعي المعروف بين الفريقين حملنا كلامه على العموم.

فإن قلت: فهلا جعلت الضمير في قوله: والأشبه أنها ذاتية راجعا إلى البعض بنوع من **الاستخدام**. قلت: لا يخفى ما فيه من البعد والتعسف فإن التعبير عن اختيار شق ثالث غير معروف أصلا بمثل هذه العبارة يشبه الرطانة كما يشهد به الذوق السليم.

فإن قلت: يمكن حمل كلامه ابتداءا على بيان الخلاف في البعض أعني الخمسة المتحيرة وتخصيصه نقل الخلاف بالخلاف بالبعض ليس بمعنى: أنه لا خلاف في غيرها حتى يكون كاذبا في دعواه، إذ الخلاف في الكل يستلزم الخلاف في البعض.

قلت: عدم وجدان طريق إلى إثبات ذاتية أنوار الكل إنما يصلح وجها لتخصيص الدليل بالبعض، لا لنقل الخلاف في البعض، والقول: بأنه غير كاذب في هذا النقل، لأن الخلاف في الكل يستلزم الخلاف في البعض، كلام مموه لا يحسن صدوره عن ذي روية، إذ المحذور ليس لزوم كذب العلامة في هذا النقل، بل لزوم كون كلامه حينئذ كلاما مرذولا شديد الفجاجة، كثير السماجة، ونظيره أن يقول بعض الطلبة: اختلف المعتزلة والأشاعرة في أفعال العباد هل هي صادرة عنهم حقيقة أو كسبا؟ والأصح الأول، فيقال له: يا هذا الخلاف إنما هو في كل أفعالهم، فكيف نقلته في بعضها؟ فيجيب: بأن الخلاف في الكل يستلزم الخلاف في البعض، وإنما نقلت الخلاف في البعض لأني لم أجد طريقا إلى إثبات صدور الكل حقيقة، وهذا كلام لا يرتاب ذو مسكة في تهافته وسخافته، ومفاسد الكلام غير منحصرة في كونه كاذبا، بل كثير

---

(١) تزيين الأسواق في أخبار العشاق داود الأنطاكي ص/١٥١

من مفاسده لا يقصر في الشناعة عن كذبه.

فإن قلت: في كلام العلامة شواهد كثيرة دالة على أن كلامه مختص بالخمس المتحيرة، منها قوله: فإن قيل: هذا إنما يصح في الكواكب التي تحت الشمس، وأما في العلوية إلى آخره، فإن المتبادر من العلوية في مصطلحهم هو ما فوق الشمس، من السيارات لا جميع ما فوقه، منها ومن الثوابت، ومنها أن كلامه هذا مذكور في ذيل بيان خسوف القمر واستفادة نوره من الشمس، وحيث أنه من السيارة فيناسبه ذكر أحوالها لا أحوال بقية الكواكب ومنها أن قوله بعيد هذا المبحث: اختلفوا في أنه هل للكواكب لون؟ والأكثر على أن الأظهر ذلك مثل كمودة زحل ودرية المشتري والزهرة وحمرة المريخ وصفرة عطارد وفي الشمس خلاف، وأما في القمر فلونه ظاهر في الخسوف، لا ريب أنه بيان للاختلاف في ألوان السيارات فقط كما يشهد له التمثيل بها فيكون ما قبله بيانا للاختلاف في أنوارها فقط أيضا، إذ لواحق الكلام تدل على أن المراد من سوابقه ذلك.

ومنها قوله: فإن قيل: أحد الكواكب غير الشمس هو الذي يعطي الباقية الضوء، قلنا: إن كان من الثوابت لرؤي الكوكب القريب منه هلاليا ونحوه دائما إلى آخره، إذ لو كان مراده." (١)

"قالوا في أعداد المتحابة واستدركوا ذلك على إقليدس، وقالوا فاته ذلك ولم يذكره وهي المأتان وعشرون عدد زائد أجزائه أكثر منه، وإذا جمع كانت أربعة وثمانين ومأتين بغير زيادة ولا نقصان والمأتان وأربعة وثمانون عدد ناقص أجزاؤه أقل منه، وإذا جمعت كانت جملتها مأتين وعشرين، فلكل من العددين المتحابين أجزاء مثل آخر.

فالمأتين والعشرون لها نصف وربع وخمس وعشر ونصف عشر وجزء من أحد عشر وجزء من اثنين وعشرين وجزء من أربعة وأربعين وجزء من خمسة وخمسين وجزء من مائة وعشرة وجزء من مأتين وعشرين وجملة ذلك من الأجزاء البسيطة الصحيحة مأتين وأربعة وثمانين.

والمأتان والأربعة والثمانون ليس لها إلا نصف وربع وجزء من أحد وسبعين وجزء من مأة واثنين وأربعين وجزء من مأتين وأربعة وثمانين فذلك مأتان وعشرون فقد ظهر بهذا المثال تحاب العددين، وأصحاب العدد يزعمون أن ذلك خاصية عجيبة في المحبة مجرب.

للحبتري

وإذا الزمان كساك حلة معدم ... فالبس له حلل النوى وتغرب

---

(١) الكشكول البهاء العاملي ٤٩/١

أبو الطيب

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وللنفس أخلاق تدل على الفتى ... أكان سخاء ما أتى أم تساخيا؟

خلقت الوفا لو رحلت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا ... إلى عصره إلا نرجى التلاقيا

ما فيه صنعة **الاستخدام**

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

قال الصفدي للقاضي زين الدين وقد أنشده بعض شعراء العصر بيتا له يجمع استخدامين، فاستخدم هو أربعة شعر:

ورب غزالة طلعت بقلبي وهو مرعاها ... نصبت لها شباكا من نضار ثم صدناها

وقالت لي وقد صرنا إلى عين قصدناها ...." (١)

"بذلت العين فاكحلها بطلعتها ومجراها

ومعنى **الاستخدامات** الأربعة: بذلك الذهب فاكحل عينك بطلوع عين الشمس ومجرى العين الجارية من الماء.

قال الجنيد: العشق ألفة رحمانية وإلهام شوقي أوجبها الله تعالى على كل ذي روح، ليحصل به اللذة العظمى التي لا يقدر على مثالها إلا بتلك الألفن، وهي موجودة في النفس، مقدرة مراتبها عند أربابها، فما أحد إلا عاشق لأمر يستدل به على قدر طبقة من الخلق، ولذلك كان أشرف المراتب في الدنيا مراتب الذين زهدوا فيها، مع كونها معاينة، ومالوا إلى الآخرة مع كونها مخبرا لهم عنها بصورة لفظ. لمجير الدين محمد بن تميم كتبها على وردة وأرسلها إلى معشوقه:

سيقت إليك من الحدائق وردة ... وأتتك قبل أوانها تطفيلا

طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت ... فمها إليك كطالب تقبيلا

وسقيم الجفون أودعه الله ... بذاك السقام سرا خفيا

غلبت مقلتاه قلبي عشقا ... وضعيفان يغلبان قويا

للشيخ العلامة تقي الدين ابن دقيق العبد:

---

(١) الكشكول البهاء العاملي ٣١٦/١

كم ليلة فيك وصلنا السرى ... لا نعرف الغمض ولا نستريح
واختلف الأصحاب ماذا الذي ... يزيل من شكواهم أو يريح
فقيل تعريسهم ساعة ... وقيل بل ذكراك وهو الصحيح

قال الصفدي: انظر إلى هذا النظم، ما ألطف تركيب ألفاظه وما أحلاه. وكونه استعمل طريق الفقهاء في البحث في ذكر اختلاف الأصحاب، وأنه قيل كذا وقيل كذا وقلت كذا وهو الصحيح، كأنه إمام الحرمين وقد ألقى درسا في مسألة فيها خلاف بين الأصحاب، وقد رجح ما رآه هو عنده من الدليل، وما رأيت أحسن من هذا بيتا وهو يصف أحوالهم في السري. ومشاقهم في التعب ويشاورهم فيما بينهم، وما أشار به كل منهم على إزالة ما نالهم من العناء وأدخل فيه ذكر الممدوح، ونص على تصحيحه، فكأنه في حلقة الدرس وقد شرع في مسألة خلافية ويحرم هذا النظم على غير الشيخ تقي الدين." (١)

"وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادلية، وتخرج به جماعة، وكان نظم الشعر عليه سهلا رجزه وطويله وبسيطه، وصنف كتاب تسهيل الفوائد، قال الصفدي (١) : ومدحه سعد الدين محمد بن عربي بأبيات مليحة إلى الغاية، وهي:

إن الإمام جمال الدين جمله ... رب العلا ولنشر العلم أهله
أملى كتابا له يسمى " الفوائد " لم ... يزل مفيدا لذي لب تأمله
وكل مسألة في النحو يجمعها ... إن الفوائد جمع لا نظير له قال: وفي هذه الأبيات مع حسن التورية فيها ما لا يخلو من إيراد ذكرته في كتابي " فض الختام (٢) "، انتهى.

قلت: أجاب العجيسي عن ذلك بأن الأبيات ليست في التسهيل، وإنما هي في كتاب له يسمى " الفوائد " وهو الذي لخصه في " التسهيل "، فقوله في اسم التسهيل تسهيل الفوائد معناه تسهيل هذا الكتاب، وذكر أيضا أنه مثل التسهيل في القدر على ما ذكره من وقف عليه، وقال: وإليه يشير سعد الدين محمد بن عربي بقوله إن الإمام – إلى آخره وسعد الدين ابن الشيخ محيي الدين صاحب الفصوص وغيرها.

ثم قال العجيسي: وذكر غير واحد من أصحابنا أن له كتابا آخر سماه بالمقاصد، وضمنها تسهيله، فسماه لذلك تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد فعلى هذا لا يصح قول الصفدي: إن المدح المذكور في التسهيل، إلا بارتكاب ضرب من التأويل، انتهى كلام العجيسي.

قلت: وذكر غيره أن قوله في الألفية " مقاصد النحو بها محوية " إشارة لكتاب المقاصد، وتعقب بقوله

---

(١) الكشكول البهاء العاملي ٣١٧/١

محوية فإنه لو كان كما ذكر لقال محوي،

---

(١) الوافي: ٣٦٠.

(٢) في الأصول ودوزي: فص الخاتم؛ والمراد كتابه " فض الختام عن التورية **والاستخدام** ".." (١)

"وأجاب بعضهم بأنه من باب **الاستخدام**، وفيه تعسف.

رجع - من تصانيف ابن مالك " الموصل في نظم المفصل " وقد حل هذا النظم فسماه " سبك المنظوم وفك المختوم " ومن قال " إن اسمه فك المنظوم وسبك المختوم " فقد خالف النقل والعقل، ومن كتب ابن مالك كتاب " الكافية الشافية " ثلاثة آلاف بيت، وشرحها، و " الخلاصة " وهي مختصر الشافية، و " إكمال الإعلام بمثلث الكلام " وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم، و " لامية الأفعال " وشرحها، و " فعل وأفعل "، و " المقدمة الأسدية " وضعها باسم ولده الأسد، و " عدة اللافظ وعمدة الحافظ "، و " النظم الأوجز فيما يهمز "، و " الاعتضاد في الظاء والضاد " مجلد، وإعراب مشكل البخاري، و " تحفة المودود في المقصور والممدود " وغير ذلك كشرح التسهيل، وروى عنه ولده بدر الدين محمد، وشمس الدين بن جعوان، وشمس الدين بن أبي الفتح، وابن العطار، وزين الدين أبو بكر المزي، والشيخ أبو الحسين اليونيني، وأبو عبد الله الصيرفي، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وشهاب الدين محمود، وشهاب الدين بن غانم، وناصر الدين بن شافع، وخلق كثير سواهم.

ومن نظمه في الحلبة:

خيل السباق المجلي يقتفيه مص ... ل والمسلي وتعال قبل مرتاح

وعاطف وحظي والمؤمل وال ... لطيم والفسكل السكيت يا صاح وله من هذه الضوابط شيء كثير.

وكان يقول عن الشيخ ابن الحاجب: إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل، وصاحب المفصل نحوه صغيرات، وناهيك بمن يقول هذا في حق الزمخشري.

وكان الشيخ ركن الدين بن القوبع يقول: إن ابن مالك ما خلى للنحو حرمة.

وحكي عنه أنه كان يوما في الحمام وقد اعتزل في مكان يستعمل فيه الموسى، فهجم عليه فتى فقال: ما تصنع فقال: أكنس لك الموضع للقعود، قال." (٢)

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٢٢٤/٢

(٢) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٢٢٥/٢

"وما أحسن قول لسان الدين – رحمه الله تعالى – بعدما عرف بنفسه وسلفه: وكأني بالحي ممن ذكر قد التحق بالميت، وبالقبر قد استبدل من البيت.

وقال رحمه الله تعالى بعد إيراد جملة من نظمه ما صورته: وقلت والبقاء لله وحده، وبه يختم الهذر (١) :

عد عن كيت وكيت ... ما عليها غير ميت

كيف ترج حالة البق ... يا لمصباح وزيت وسيأتي ذلك، ولقد صدق رحمه الله تعالى، ورقى درجته في الجنة.

[تحقيق في نسبة بيتين]

وأما البيتان الشائعان على ألسنة أهل المشرق والمغرب وأنهما قيلا في لسان الدين رحمه الله تعالى، وبعضهم ينسبهما له نفسه، فالصحيح خلاف ذلك كما سيأتي، وهما:

قف كي ترى مغرب شمس الضحى ... بين صلاة العصر والمغرب

واسترحم الله قتيلا بها ... كان إمام العصر في المغرب وشرح بعضهم البيتين فقال: إن قوله " قتيلا بها " من باب **الاستخدام**: أي قتيلا بشمس الضحى التي هي المتغزل فيها.

وقد رأيت وأنا بالمغرب بخط الشيخ الأغصاوي أنهما لم يعن بهما قائلهما لسان الدين ابن الخطيب، وإنما هما مقولان في غيره، ونسبهما، ونسيت الآن ذلك لطول العهد، والله أعلم.

ويدل على ذلك أنه – رحمه الله تعالى – لم يقتل بين صلاة العصر والمغرب

---

(١) أزهار الرياض ١: ٣١٣.." (١)

"بحركاته وعدده؛ انتهى تفسيره.

وقال وقد لبس منصورية من النوع الذي يقال له قلب حجر، والمنصورية: نوع لبس معروف بالمغرب استخرجه السلطان المذكور وأضافه إلى اسمه:

وصفوا اشتياقي للحبيب وسرهم ... قول الحبيب أنا أنا فيه

قلبي له حجر، فقلت مغالطا ... للعاذل المؤذي أنا فيه قال: وفي هذين البيتين عدة من المحسنات غير التعمية: منها جناس التركيب المسمى بالملفق، وحده: بأن يكون كل من الركنين مركبا من كلمتين، وهذا هو الفرق بين الملفق وبين المركب، وقل من فرق بينهما، ومنها الانسجام، ومنها **الاستخدام**. وعهدي

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمسانى ١٦٨/٥

بالفقيه علي بن منصور الشيظمي تعرض إلى شرحهما بكراسة. والتعمية في هذين البيتين بالعمل (١) الحسابي وهو كثير، إلا أن هذا العمل أحسبني أبا عذرته إذ لم أره لغيري، ومادة التعمية فيه أنا أنافيه، قلبي له حجر فقولي أنا أنافيه معناه أن تضرب أنا في هـ، وقولي في هـ نص في الضرب، ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف هيماني وحقك، وقولي قلبي له حجر بعمل القلب يصير رجح فصار المجموع " هيماني وحقك يرجح "، وفيه التورية، وهيماني وحقك الخارج من هذا الضرب فيه تهكم بالواشي، فهو من المحسنات أيضا، أعني قوله وحقك، ويصلح أن تسمى هذه التعمية بالافتنان، لأن الافتنان عندهم: أن يفتن الشاعر فيأتي بفنين متضادين من فنون الشعر في بيت واحد، وهذا وقع التضاد فيه في كلمة واحدة، فظاهر " أنا أنافيه " يضاد " هيماني " وحقك يرجح الذي يخرج بطريق الحساب، فافهمه، ويمكن استخراج تعمية أخرى من قولي للعاذل المؤذي " أنا فيه "؛ انتهى.

---

(١) الروضة: بالعد.." [١]

"**والاستخدام** الذي أشار إليه هو في قوله أنا فيه أي في هذا الثوب المسمى بقلب حجر، كما دلت عليه الحكاية، وأما المعنى الثاني لقوله أنا فيه فظاهر.

وقال وقد قطف وردة من روض المسرة في زمن النرجس:

وافى بها البستان صنوك وردة ... يقضي بها لما مطلت وعودا

أهدى البهار مخاجرا وأتى بها ... في وقته كيما تكون خدودا

فبعثتها مرتادة بنسيمها ... تثني من الروض النضير قدودا وقال:

لي حبيب يأتي بكل غريب ... هو عندي منكر ومعرف

لست أشكو لصيرفي ونحوي ... أنه بي نحا وفي تصرف

فعله في لازم متعد ... ومزيد مجرد ومضعف وقال:

لا وطيف علم السيف فقد ... في قوام كقنا الخط نهد

ووميض لاح لما بسمت ... فأرتنا منه درا أو برد

ما هلال الأفق إلا حاسد ... منه حسنا وعلاء وغيد

ولذا عاش قليلا ناحلا ... كيف لا يفنى نحولا من حسد وقد ضمن قوله " ما هلال الأفق " أديب زمانه

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٧/٧٩

الشيخ إمام الدين الخليلي الوافد على حضرته من بيت المقدس فقال:

قسما بالبيت والركن الذي ... طاب حجا واستلاما للأبد

ما هلال الأفق إلا حاسد ... منه حسنا وعلاء وغيد وقد اتفق لإمام الدين هذا أنه اجتمع بالحضرة المنصورية، هو والعقاد المكي." [١]

"في الإحاطة (١) : نشأ على عفاف وطهارة، وبر وصيانة، وبلغ الغاية في جودة الخط، وارتسم في كتاب الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، مع حسن سمت، وجودة أدب وخط، وظهور كفاية، يقيد ولا يفتر (٢) ، ويروي الحديث مع الطهارة والنزاهة، مليح الدعابة، طيب الفكاهة، شرق وحج وتطوف وقيد واستكثر ودون رحلة سفره، وناهيك بها طرفة، وقفل لإفريقية، وخدم بعض ملوكها، وكتب ببجاية، ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن، ثم كتب عن صاحب بجاية، ثم تنزه عن الخدمة، وانقطع بتربة الشيخ أبي مدين مؤثر الخمول، ذاهبا مذهب العكوف بباب الله تعالى، حجة على أهل الحرص والتهافت، ثم جبر على الخدمة عند أبي عنان، ثم أفلت عند موته فلحق بالأندلس، وتلقي ببر وتنويه وعناية، وولي القضاء بقرب الحضرة، وهو الآن من صدور القطر وأعيانه، متوسط الاكتهال، روى عن مشيخة بلده واستكثر، وأخذ في رحلته عن ناس شتى، وألف تواليف منها إيقاظ الكرام بأخبار المنام وجزء في بيان الاسم الأعظم كثير الفائدة، ونزهة الحدق في ذكر الفرق وكتاب اللباس والصحبة في جمع طرق المتصوفة المدعي أنه لم يجمع مثله، وجزء في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت بالمشرق، وجزء في الأحكام الشرعية سماه بالفصول المقتضبة في الأحكام المنتخبة ورجز في الجدل، ورجز صغير في الحجب والسلاح، ورجز صغير سماه بمثالث القوانين في التورية **والاستخدام** والتضمين، مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، وامتحن بالأسر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية وستين، ثم فكه الله تعالى؛ انتهى ملخصا.

وأخذ عنه جماعة كالقاضي أبي بكر ابن عاصم صاحب التحفة وغيره، وهو من الأدباء المكثرين، وكان عندي بالمغرب مجلد من رحلته التي بخطه،

---

(١) الإحاطة ١: ١٩٣ والمقري ينقل ملخصا.

(٢) الإحاطة: وهو في أثناء هذه الحال يقيد ولا يفتر.." [٢]

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٨٠/٧

(٢) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحس ا ن عباس المقري التلمساني ١٠٩/٧

"لو أن الورى كانوا كلاما وأحرفا ... لكان نعم منهم وباقي الأنام لا

وقول الآخر:

أمير كله كرم سعدنا ... بأخذ المجد منه واقتباسه

يحاكي النيل حين يروم نيلا ... ويحكي باسلا في وقت باسه

وقول الآخر:

يا من تدل بمقلة ... وأنامل من عندم

كفي جعلت لك الفدا=ألحاظ عينك عن دم وقول الآخر:

لا خير في العلم إذا لم يكن ... حظ من المال أو الجاه لي

والعلم إن لم أك ذا ثروة ... أنزلني منزلة الجاهل

وقول الآخر:

يا من يقول الشعر غير مهذب ... ويسومني التكليف في تهذيبه

لو أن كل الخلق فيك مساعدي ... لعجزت عن تهذيب ما تهذي به

وقول الباخرزي:

أصبحت عبدا لشمس ... ولست من عبد شمس

إني لأعشق ستي ... وحق من شق خمس

هيفاء تترك يومي ... بالهجر حاسد أمسي

ولا تبالي جفاء ... أسر قلبي أم سي

النوع الثالث: الجناس المرفو، وهو ما كان أحد ركنيه مستقلا، والآخر مرفو من كلمة أخرى. ولم ينظمه الصفي أيضا. ومثاله قول الحريري:

ولا تله عن تذكار ذنبك وأبكه ... بدمع يحاكي المزن حال مصابه

ومثل لعينيك الحمام ووقعه ... وروعة ملقاه ومطعم صابه

وقوله أيضا:

وإن قصارى مسكن الحي حفرة ... سينزلها مستنزلا عن قبابه

فواها لعبد ساءه سوء فعله ... وأبدي التلافي قبل إغلاقه بابه

وقول الآخر:

كف عن الناس إذا شئت أن ... تسلم من قول جهول سفيه
من قذف الناس بما فيهم ... يقذفه الناس بما ليس فيه
وقول آخر:
هتف الصبح بالدجى فاسقنيها ... خمرة تترك الحليم سفيها
لست أدري من رقة وصفاء ... هي في كأسها أم الكأس فيها
وقولي:
إذا أصبحت ذا طرب ولهو ... تعاقر راحة أو شرب راح
فقل لي كيف ترجوا الرشيد يوميا ... وما لك عن ضلالك من براح
وقول بعضهم:
دعوني ورسمي في العفاف فإنني ... جعلت عفافي في حياتي ديدني
وأعظم من قطع اليدين على الفتى ... صنيعة بر نالها من يدي دني
وقول أبي الحسن الباخرزي:
أنا القادم بأرضك رحله ... فإن زرته بدلت بالخاء قافه
أحبك قبل الالتقاء فإن يذب ... أخو صبوة شوقا إلى الملتقى فهو
انتهى الكلام على الجناس المركب وأقسامه. قال ابن الحجة: وهنا بحث لطيف وهو أنه قد تقرر أن ركني الجناس يتفقان في اللفظ، ويختلفان في المعنى، لأنه نوع لفظي لا معنوي، وهو نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع. والتورية من أعز أنواعه وأعلاها رتبة. فإذا جعلت الجناس تورية انحصر المعنيان في ركن واحد، وخلصت من عقادة الجناس. وأنا أذكر المثالين، قال صاحب الجناس المركب:
اعن العقيق سألت برقا أومضا ... أأقام حاد بالركائب أومضا
وقال صاحب التورية:
وإذا تبسم ضاحكا لم ألتفت ... أن عاد برقا في الدياجي أومضا
وقال في الجناس التام: وإذا راجعت النظر في كلامهم وجدت غالب ما نظموه من التورية جناسا تاما. فمن ذلك قول الشيخ صدر الدين الوكيل في الدوبيت:
كم قال معاطفي حكتها الأسل ... والبيض سرقن م، حكتها المقل
والآن أوامري عليهم حكمت ... البيض تحد والقنا تعتقل

ففي تحد وتعتقل، جناسان تامان، إذا أبطلت الاشتراك وأبرزت كلا من الركنين في موضعه على طريق من له رغبة في الجناس. انتهى.

وأنا أقول: إن هذا الكلام الذي قرره لا يختص بالتورية، بل يجير في **الاستخدام** على طريقة ابن مالك أيضا كقول المعري:

تلك ماذية وما لذباب الصيف والسيف عندها من نصيب

وهذا خروج من الاصطلاح، وقول بالاقتراح. لأن الجناس لا بد فيه من أن يكون ركناه المتفقان في اللفظ، المختلفان في المعنى، موجودين في اللفظ، وإلا لم يسم جناسا عندهم كما هو صريح حدهم له، وكلام ابن حجة ليس بحجة. فإن هذا الذي ذكره شيء لا يعرفه أرباب البديع ولا نص عليه أحد منهم، فلا يلتفت إليه.." (١)

"بواطئ فوق خد الصبح مشتهر ... وطائر تحت ذيل الليل مكتتم

والمقابلة في هذا بين خمسة أيضا.

وبيت عز الدين الموصلي قوله:

ليل الشباب وحسن الوصل قابله ... صبح المشيب وقبح الهجر واندمي

المقابلة في هذا البيت بين أربعة. قال ابن حجة: وأتى بلفظة قابلة اضطرارا لتسمية النوع، وأما قوله: واندمي، فقافية مستدعاة أجنبية من المقابلة، فإنه لم يؤهلها لمقابلة ضده، ولا لغيره بل تركها بمنزلة الأجانب. انتهى.

وبيت بديعية ابن حجة قوله:

قابلتهم بالرضا والسلم منشرحا ... ولوا غضابا فوا حزني لغيظهم

هذا البيت فيه المقابلة بي أربعة أيضا، وهي ظاهرة، وقافيته متمكنة غير أنه فصل بين الجملتين، والوصل فيهما متعين لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى، ووجود الجامع بينهما وهو التضاد، فكان حقه أن يقول: فولوا غضابا، ولا يخفى ما في البيت من الغلق وعدم الانسجام بسبب هذا الفصل.

وبيت الطبري قوله:

وحسن وصل وسلم القرب قابله ... بقبح هجر وحرب البعد للتهم

لفظة (قابله) هنا مثلها في بيت الموصلي.

وبيت بديعيتي قولي:

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم الحسني ص/١٨

ولوا بسخط وعنف نازحين وقد ... قابلتهم بالرضا والرفق من أمم

المقابلة فيه بين أربعة، وجميعها أضداد كما لا يخفى.

وبيت بديعية إسماعيل المقري قوله:

قد بكى الجفن حزنا بعد بعدهم ... كضحك ثغري سرورا عند قربهم

المقابلة فيه بين خمسة لكنها بالأضداد وغيرها.

وإن هم استخدموا عيني لرعيهم=أو حاولوا بذلها فالسعد من خدمي **الاستخدام** في اللغة، استفعال من الخدمة، وأما اصطلاحا فلهم فيه عبارتان: إحداهما أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مرادا به أحد معانيه، ثم يؤتى بضمير مرادا به المعنى الآخر، أو بضميرين مرادا بأحدهما أحد المعاني وبالآخر المعنى الآخر.

فالأول كقول جرير -: -

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

أرد بالسماء: الغيث، وبالضمير الراجع من رعيناه: النبت.

والثاني كقول البحتري:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم ... شبوه بين جوانح وقلوب

فالغضا أرض لبني كلاب، وواد بنجد، وشجر معروف، فأراد بأحد الضميرين الراجعين إلى الغضا وهو المجرور في الساكنية: أحد المكانين، وبالآخر وهو المنصوب في شبوه: الشجر، أي أوقدوا نارا الغضا بين جوانح وقلوب. وهذه طريقة الخطيب في الإيضاح والتلخيص، ومن تبعه، وعليها مشى أكثر الناس وأصحاب البديعيات.

الثانية – أن يؤتى بلفظ مشترك بين معنيين، ثم بلفظين يخدم كل واحد منهما معنى من ذينك المعنيين، وهذه طريقة بدر الدين بن مالك في المصباح، ومشى عليها زكي الدين بن أبي الإصبع، ومثل له بقوله تعالى: (لكل أجل كتاب. يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) فلفظ كتاب يحتمل الأجل المحتوم، والكتاب المكتوب وقد توسط بين لفظي أجل ويمحو، فلفظة أجل تخدم المعنى الأول ويمحو يخدم الثاني.

قال الحافظ السيوطي في الإتقان: قيل: ولم يقع في القرآن على طريقة صاحب الإيضاح شيء من **الاستخدام**. وقد استخرجت بفكري آيات على طريقته، منها وهي أظهرها قوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان

في سلالة من طين) فإن المراد به آدم، ثم أعاد الضمير عليه مرادا به ولده، فقال (ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) ومنها قوله تعالى: (لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم) ثم قال (قد سألهاش قوم من قبلكم) أي أشياء أخر، لأن الأولين لم يسألوا عن الأشياء التي سأل عنها الصحابة فنهوا عن سؤالها. انتهى.

قال بن حجة والطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد، وهو استعمال المعنيين بضمير وبغير ضمير، وهذا هو الفرق بين التورية **والاستخدام**، فإن المراد في التورية أحد المعنيين، وفي **الاستخدام** كل منهما مراد. انتهى.

وهذان نوعان أعني التورية **والاستخدام** أشرف أنواع البديع وهما سيان عند بعضهم، وفضل بعضهم **الاستخدام** عليها فقال: إنه أعلى رتبة وأحلى موقعا في الأذواق السليمة.." (١)

"قال الشيخ صفي الدين في شرح بديعيته: وهذا – يعني **الاستخدام** – نوع عزيز الوقوع معتاص على الناظم شديد الالتباس بالتورية، قلما تكلفه بليغ وصح معه بشروطه لصعوبته وقلة انقياده وميله إلى جانب التورية، ولذلك لم يرد منه في أمثلة كتب المؤلفين سوى بيتين، وفي كل منهما نظر.

أحدهما قول البحتري:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم ... شبوه بين جوانح وقلوب

والنظر في اشتراك لفظة الغضا، فإن علماء البديع اشترطوا أن يكون اشتراك لفظة **الاستخدام** اشتراكا أصليا، والاشتراك في لفظة ألغضا ليس بأصلي، ولكن أحد المعنيين منقول من الآخر، لأن الغضا في الحقيقة هو الشجر، وسمي وادي الغضا لكثرة نبته فيه، وسمي جمر الغضا لقوة ناره فكلاهما منقول من أصل واحد.

وأما البيت الآخر فقول المعري:

وفقيه ألفاظه شدن للنعما ... ن ما لم يشده شعر زياد

وهذا بيت من مرثية له في فقيه حنفي والنعمان اسم أبي حنيفة، وزياد هو النابغة وكان يمدح النعمان بن المنذر، فالمراد بالبيت أن ألفاظ هذا الفقيه شادت لأبي حنيفة من حسن الذكر ما لم يشده شعر زياد للنعمان بن المنذر. والنظر الذي فيه من حيث أن من شروط الضمير في **الاستخدام** أن يكون عائدا إلى اللفظة المشتركة ليستخدم به معناها الآخر، كما قال البحتري: شبوه والضمير عائد إلى الغضا، وهذا جعل الضمير في يشده عائدا إلى لفظة ما، وهي نكرة موصوفة، فيبقى طيب الذكر الذي لم يشده شعر زياد لا يعلم لمن هو، لأن الضمير لا يعود إلى النعمان، ويمكن الاعتذار له على تأويل النجاة وهو بعيد. انتهى كلام الصفي.

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم الحسني ص/٦٠

وأراد بالتأويل أن يقال: إن التقدير، ما لم يشده له، فيعود الضمير على النعمان بهذا التقدير، ووجه بعده عدم وجود هذا الضمير في اللفظ وفي كل من هذين النظرين اللذين أوردهما على البيتين بحث.

أما نظره الأول في بيت البحتري فإنما يتوجه أن لو أراد الناظم بالغضا وادي الغضا فحذف المضاف واكتفى بالمضاف إليه، وليس كذلك، بل لفظتا الغضا وحدهما اسم لمكانين. قال في القاموس: والغضا أرض لبني كلاب وواد بنجد، فيكون الغضا علما لكل من هذين المكانين، ولو كان الاسم وادي الغضا لقال: وادي الغضا بأرض بني كلاب وواد بنجد، فصح أن الغضا مشترك بين الشجر وبين كونه علما لكل واحد من هذين المكانين اشتراكا أصليا. لا يقال: لعله إنما سمي هذان المكانان بالغضا لكثرة نبت الغضا فيهما مبالغة، لأنا نقول: هذا يحتاج إلى إثبات أن الواضع إنما سمي هذين المكانين بهذا الاسم لهذا السبب ودون ذلك خرط القتاد، ولغة العرب وسيعة، والألفاظ المشتركة فيها كثيرة، فمن أين لنا القطع بذلك واللغة لا تثبت بالعقل؟ وأما النظر الثاني الذي أورده على بيت المعري فإنما يتوجه على كونه من **الاستخدام** الذي هو طريقة صاحب الإيضاح.

وأما إذا جعلناه على طريقة صاحب المصباح فلا، لأنه لم يشترط عود الضمير على لفظة **الاستخدام**، فيكون لفظة فقيه في البيت يخدم لفظة النعمان الذي هو أبو حنيفة، وشعر زياد يخدم النعمان الذي هو ممدوحه وهو النعمان بن المنذر. فصح كونه استخداما على هذه الطريقة دون الأولى فاعلم ذلك والله أعلم.

وقد استخدم كثير من الشعراء لفظة الغضا، فقال ابن أبي حصينة:

أما والذي حج الملبون بيته ... فمن ساجد الله فيه وراكع

لقد جرعتني كأس بين مريرة ... من البعد سلمى بين تلك الأرجاع

وحلت بأكناف الغضا فكأنما ... حشت ناره بين الحشا والأضالع

وعدوا منه قول ابن قلاقس:

حلت مطاياهم بملتف الغضا ... فكأنما شبوه في الأكباد

وقول البدر بن لؤلؤ الذهبي:

أحمامة الوادي بشرقي الغضا ... إن كنت مسعدة الكئيب فرجعي

فلقد تقاسمنا الغضا فغصونه ... في راحتيك وجمره في أضلعي

وعند أن النظر الذي أورده الصفي على بيت البحتري يرد على هذين **الاستخدامين**.

ومن استخدام البديع قول ابن الوردي:

وربَ غزالة طلعت ... بقلبي وهو مرعاها

نصبت لها شباكا من ... نضار ثم صدناها

وقالت لي وقد صرنا ... إلى عين قصدناها

بذلت العين فأكحلها ... بطلعتها ومجراها." (١)

"ففي البيت الأول استخدام، وفي البيت الرابع أربعة استخدامات، ومعناها بذلت الذهب فأكحل عينك بطلعة عين الشمس، ومجرى العين من الماء، لأنه وطأ لهذه المعاني في الأبيات المتقدمة، وأتى بالبيت الرابع فتنزل جملة على ما تفصل.

قال الصفدي: وهذا أبلغ ما سمعته في **الاستخدام**. وما عرفت لغيره هذه العدة في هذا الوزن القصير، وهذا يدل على الفكر الصحيح والتخيل التام.

قلت: وقد جمع ابن مليك الحموي أيضا أربع استخدامات في العين.

فقال في بيت واحد من مديح نبوي:

فكم رد من عين وجاد بنيلها ... ولولاه ما ضاءت ولم تك تعذب

وقال أيضا في مثل ذلك:

كم رد من عين وجاد بها وكم ... ضاءت به وشفى بها من صاد

وبديع قول الصفي الحلي:

إذا لم أبرقع بالحيا وجه عفتي ... فلا أشبهته راحتي في التكرم

ولا كنت ممن يكسر الجفن في الوغى ... إذا أنا لم أغضضه عن غير محرم

وقول بعض المتأخرين:

وللغزالة شيء من تلفته ... ونورها من ضيا خديه مكتسب

وقول ابن نباتة المصري:

إذا لم تفض عيني العقيق فلا رأت ... منازله بالقرب تبهى وتبهر

وإن لم تواصل غادة السفح مقلتي ... فلا عادها عيش بمغناه أخضر.

وأخذ هذين **الاستخدامين** الشيخ عبد الرحيم العباسي صاحب معاهد التنصيص على شواهد التلخيص أخذا مجحفا وأضافهما إلى استخدام البحتري فقال:

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم الحسني ص/٦١

تمر الصبا عفوا على ساكني الغضا ... وفي أضلعي نيرانه تتسعر

فتذكرني عهد العقيق وأدمعي ... تساقطه والشيء بالشيء يذكر

وتورث عيني السفح حتى ترى به ... معالم للأحباب تزها وتزهر

وله أيضا:

وإني للثغر المخوف لكاليء ... نعم وله من كل غيداء راشف

وهذا أيضا مأخوذ من قول عبد الله بن طاهر ذي اليمينين: وإني للثغر المخوف لكاليء=وللثغر يجري ظلمه لرشوف وهذه الأمثلة كلها جارية على طريقة صاحب الإيضاح في **الاستخدام**.

وأما الأمثلة على طريقة بدر الدين بن مالك، فمنها قول أبي العلاء يصف درعا:

نثـرة من ضمانها للقنا الخط ... ي عند اللقاء نثر الكعوب

مثل وشي الوليد لانت وإن كا ... نت من الصنع مثل وشي حبيب

تلك ماذية وما لذباب الص ... يف والسيف عندها من نصيب

فالذباب مشترك بين طرف السيف وبين الطائر المعروف، فلفظ السيف يخدم المعنى الأول، لفظ الصيف يخدم المعنى الثاني.

وقول السراج الوراق:

دع الهوينا وانتصب واكتسب ... واكدح فنفس المرء كداحه

وكن عن الراحة في معزل=فالصفع موجود مع الراحه فالراحة تطلق على الاستراحة وعلى الكف، وقد تقدمها من القرائن ما يخدم المعنيين، فالانتصاب والكدح يخدم المعنى الأول، والصفح يخدم المعنى الثاني، ولا يخفى أن الطريقة الأولى أحسن موقعا وألطف موردا من هذه الطريقة، وقد تقدم أن أصحاب البديعيات إنما جروا على تلك الطريقة دون هذه.

فبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته قوله:

من كل أبلج واري يوم قرى ... مشمر عنه يوم الحرب مصطلم

أراد بالزند: الـزناد، بقرينه الواري يوم القرى، وبالضمير الراجع من (عنه) العضو الذي تحت العضد، بقرينة مشمر عنه يوم الحرب.

وبيت ابن جابر الأندلسي قوله:

إن الغضا لست أنسى أهله فهم ... شبوه بين ضلوعي يوم بينهم

قال ابن حجة: لو عاش البحتري ما صبر لابن جابر على هذه السرقة، فإنه أخذ لفظة ومعناه وضميره، وما اختشى من الجرح ولا سلم من النقد.

وبيت عز الدين الموصلي قوله:

والعين قرت بهم لما بها سمحوا ... واستخدموا من الأعدا فلم تنم

قال ابن حجة: قوله: والعين قرت بهم لما بها سمحوا، في غاية الحسن فإنه أتى **بالاستخدام** وعود الضمير في شطر البيت مع الانسجام والرقة، واستخدم العين الناظرة، وعين المال. وأما قوله في الشطر الثاني: واستخدموها من الأعدا فلم تنم، ما أعلم ما المراد به، فإن **الاستخدام** في العين التي هي الجارحة قد تقدم، والذي يظهر لي أن اضطراره إلى تسمية النوع الجأه إلى ذلك. انتهى.." [١]

"قال أبو الفتح: هذا ظاهره أن من رآك أفاد منك كسب المعالي. وباطنه أن من رآك على ما بك من النقص وقد صرت إلى الملك ضاق صدره أن يقصر عما بلغته وأن لا يتجاوز ذلك إلى كسب المكارم، وكذلك إذا رآك راجل لا يستكثر لنفسه أن يرجع واليا على العراقيين.

ومثل هذا البيت قوله أيضا فيه:

يضيق على من راءه العذر أن يرى ... ضعيف المساعي أو قليل التكرم

فإن ظاهره أن من رآه لم يكن له عذر أن يكون ضعيف المسعاة قليل التكرم، يعني منه يتعلم هذه الأشياء، فمن رآه ولم يتعلم منه فهو غير معذور. وباطنه أن مثله في خسته ولؤم أصله إذا كانت مسعاة وتكرم فلا عذر لأحد بعده في تركه.

كما قال الآخر:

لا تيأسن من الإمارة بعدما ... خفق اللواء على عمامة جرول

هذا كلام ابن جني والحق ما قاله ابن أبي الحديد: أن المتنبي لم يكن يقصد شيئا من ذلك قط ولا خطر له أصلا، كيف ولو كان كذلك لناقض كلامه بعضه بعضا، لأن له في كافور من المدح ما لا يشوبه شيء من هذه التأويلات الباردة، والله أعلم بحقائق الأمور.

ومن لطيف الإبهام في النثر، قول القاضي تاج الدين المالكي، غمام المالكية بالمسجد الحرام، في تقريظ له على تصدير وتعجيز للشيخ تقي الدين السنجاري لقصيدة أبي الطيب المتنبي التي مطلعها (أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل) . ولم يكن الشيخ تقي الدين المذكور ممن له قدم في الأدب ولا قدم في الحسب،

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم الحسني ص/٦٢

وهو: وقفت على هذا التصدير والتعجيز فإذا منشئه قد أجاد في النظم والإنشاء، وما كل من أخذ القلم ومشى، ووقف بعجيب تصرفه بين معوج المعاني وطابق.

وكأنه قصد الرد على الطغرائي في قوله: وهل يطابق معوج بمعتدل. ومنه: فقصد أن يسبك درر الأسلاك، ويتصرف فيها تصرف الملاك، أو المنجم الماهر في دراري الأفلاك، فانتبذت خشية منه مكانا قصيا وقالت لعلمها بقدرته على تصرفه كيف شاء "إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا". انتهى.

انظر ما أحسن هذا الإبهام الذي تعقد عليه الخناصر.

وبيت بديعية الشيخ صفي الدين الحلي في هذا النوع قوله:

ليت المنية حالت دون نصحك لي ... فيستريح كلانا من أذى التهم.

هذا البيت كما قال ابن حجة ليس له نظير في أبيات البديعيات، فإنه اشتمل على الرقة والسهولة والانسجام، وما زاده حسنا إلا تقويته ب (ليت) التي استعان بها الشاعر في إبهام بيته على زيد الخياط.

فإن الشيخ صفي الدين لما قال لعاذلته (ليت المنية حالت دون نصحك لي) حسن إبهامه بقوله (فيستريح كلانا من أذى التهم) ، فصار الأمر مبهما بينه وبين العاذل.

وبيت عز الدين الموصلي قوله:

أبهمت نصحي مشيرا بالأصابع لي ... ليت الوجود رمى الإبهام بالعدم.

قال ابن حجة وهذا الإبهام هنا يشار إليه بالأصابع، فإنه أجاد فيه إلى الغاية ولم يتفق له في نظم بديعيته بيت نظيره، فإنه جمع بين الانسجام والتصدير والتورية البارزة في أحسن القوالب بتسمية النوع ونوع الإبهام الذي هو المقصود. ولعمري انه بالغ في عطف القلوب بهذا السحر الحلال. انتهى.

وأنا أقول: الذي أراه أن هذا البيت ليس من الإبهام الاصطلاحي في شيء، بل هو من **الاستخدام** على طريقة ابن مالك. لأن الإبهام كما تقدم، أن يقول المتكلم كلاما محتملا لمعنيين متضادين لا يتميز أحدهما عن الآخر، ولذلك سماه بعضهم محتمل الضدين، ولا تضاد هنا بين إرادة الإبهام الذي هو مصدر أبهم الأمر، وبين الإبهام الذي هو أكبر الأصابع.

قال العلامة التفتازاني في مختصر المطول عند قول الماتن في تعريف هذا النوع: هو إيراد الكلام محتملا لمعنيين مختلفين أي متباينين متضادين ولا يكفي مجرد احتمال معنيين مختلفين. انتهى.

وهذا يدل صريحا على أن هذا البيت ليس من الإبهام بشيء، وإنما قلنا إنه من **الاستخدام** على طريقة ابن مالك، لأنه داخل في حده، وذلك أن **الاستخدام** على طريقته كما مر أن يؤتى بلفظ مشترك بين معنيين

ثم بلفظين يخدم كل واحد منهما معنى من دينك المعنيين، وهذا البيت كذلك فإن لفظ الإبهام يطلق على المعنيين المذكورين، ولفظ أبهمت يخدم الإبهام بمعنى المصدر، ولفظ الأصابع يخدم الإبهام الذي هو أكبر الأصابع.

وهذا الكلام بعينه يجري في بديعية ابن حجة:

وزاد إبهام عذلي عاذلي ودجا ... ليلي فهل من بهيم يشتفي ألمي.." (١)

"فإنه لا تضاد فيه بين إرادة البهيم بمعنى بهيم الليل وبين العاذل، بل هو من **الاستخدام** على الطريقة المذكورة، فلفظ الليل يخدم البهيم بمعنى الأسود، ولفظ إبهام عذلي يخدم البهيم بمعنى العاذل. فلا يغرنك قوله في شرحه: أن الإبهام هنا بين بهيم الليل وبين العاذل، فإن اشتراك البهيم صالح لهما ولكن لم يحصل التميز لأحدهما عن الآخر كما وقع عليه الشرط بل الأمر بينهما مبهم لا يعلم من هو المقصود منهما. انتهى.

فإن هذا الإبهام الذي ذكره لغوي لا اصطلاحي، إذ اشترط تضاد المعنيين في حد الإبهام الاصطلاحي لم يختلف في كتاب من كتب البديع وأمثلتهم له كلها جارية على ذلك، والله أعلم.

والطبري جمع بين الإبهام والتهكم في بيت واحد فقال: أذقت إبهام ما يرضى الفؤاد فسد=تهكما أنت ذو عز وذو عظم.

الإبهام في قوله: يرضي الفؤاد، فإنه إن قيل: فؤاد العاشق، صح، أو العاذل، صح.

وبيت بديعيتي:

قالوا وقد أبهموا ، إذ بان مكتتمي ... في حبهم بان لكن أي مكتتم.

الإبهام في هذا البيت على حده في بيت ابن حازم المتعلق بزواج المأمون من بوران بنت الحسن المقدم ذكره وهو:

يا بن هارون قد ظفر ... ت ولكن ببنت من.

فإنه لا يعلم بما أراد ببنت من، في الحقارة، أو في الرفعة؟. وهنا كذلك، فإن قولهم: بان لكن أي مكتتم، لا يعلم ما أرادوا به، هل هو إعجاب به؛ أو احتقار له؟ فالأمر مبهم بين هذين المعنيين المتضادين محتمل لكل منهما على السواء، لا يتميز أحدهما عن الآخر.

وبيت الشيخ شرف الدين المقري من هذا القبيل أيضا وهو:

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم الحسني ص/٨٨

ما مثلهم في العلى هيهات أين هم ... وأين منصبهم في القدر والعظم.
قال ناظمه في شرحه: ما مثلهم في العلى محتمل، إنه أراد: لا نظير لهم في علوهم ومجدهم؛ ويحتمل أنه أراد: أن مثلهم لا يكون في العلى.
وكذلك قوله: هيهات أين هم وأين منصبهم في القدر والعظم، يحتمل أن سؤاله سؤال تفخيم وتعظيم، ويحتمل أنه أراد: الاحتقار والإعلام أنهم بحيث يفتش عليهم فلا يوجدون والله أعلم.
وابن جابر الأندلسي لم ينظم نوع الإبهام في بديعيته.

الطباق.
إن أدن ينأوا وما قلبي كقلبهم ... وهل يطابق مصدوع بملتئم
الطباق ويسمى المطابقة والتطبيق والتضاد والتكافؤ- وهو الجمع بين معنيين متضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة، قالوا: ولا مناسبة بين معنى المطابقة لغة، ومعناها اصطلاحا، فإنها في اللغة الموافقة، يقال: طابقت بين الشيئين: إذا جعلت أحدهما على حذو الآخر، وطابق الفرس في جريه: إذا وضع رجليه مكان يديه، والجمع بين الضدين ليس موافقة.
قال ابن الأثير في المثل السائر: ولا أعلم من أي شيء اشتقوا هذا الاسم، ولا وجه للمناسبة بينه وبين مسماه، ولعلهم قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن. انتهى.
واغرب ابن أبي الحديد في قوله: الطبق في التحريك في اللغة، هو المشقة، قال الله سبحانه وتعالى "لتركبن طبقا عن طبق" أي مشقة بعد مشقة، فلما كان الجمع بين الضدين على الحقيقة شاقا بل متعذرا، ومن عادتهم أن تعطى الألفاظ حكم الحقائق في أنفسها توسعا، سموا كل كلام جمع فيه الضدين مطابقة وطباقا. انتهى.
وقال السعد التفتازاني في شرح المفتاح: إنما سمي هذا النوع مطابقة لأن في ذكر المعنيين المتضادين معا توفيقا، وإيقاع توافق بين ما هو في غاية التخالف كذكر الأحياء مع الإماتة، والإبكاء مع الضحك ونحو ذلك. انتهى.
وكأن ابن الأثير ظهر له وجه المناسبة فيما بعد فقال في كفاية الطالب: المطابقة هي عند الجمهور: الجمع بين المعنى وضده، ومعناها أن يأتلف في اللفظ ما يضاد في المعنى، وكأن كل واحد منهما وافق الكلام فسمي طباقا.
قال: وذكر الأصمعي المطابقة في الشعر فقال: أصلها وضع الرجل موضع اليد في مشي ذوات الأربع

وأنشد:

وخيل تطابقن بالدراعين ... طباق الكلاب يطأن الهراشا

الهراش كحطام الشوك، ولذلك خص الوطأ فيه، لأن الكلب إذا مشى فيه رأى أين يضع يده فيضع رجله موضعها، وفي ذوات الأربع ما لم تجاوز رجله موضع يده، وقد يطابق من ثقل يحمله، أو شيء يتقيه، وقد يطابق بعضها على كل حال.

قال: وأحسن بيت قيل في ذلك لزهير:

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ... ما كذب الليث عن أقرانه صدقا.." (١)

"وهي في الاصطلاح أن يذكر لفظ له معنيان، أما بالاشتراك، أو التواطيء، أو الحقيقة والمجاز. أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيقصد المتكلم المعنى البعيد، ويوري عنه بالقريب، فيتوهم السامع أنه يريد القريب من أول وهلة، ولهذا سمي أبهاما.

قال العلامة الزمخشري: لا ترى بابا في البيان أدق ولا ألطف من التورية، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات من كلام الله تعالى وكلام الأنبياء عليهم السلام.

قال شيخ الأدب صلاح الدين الصفدي في ديباجة كتابه المسمى بفض الختام عن التورية **والاستخدام**: ومن البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية **والاستخدام**، فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرامي المرام.

نوع يشق على الغبي وجوده ... من أي باب جاء يعدو مقفلا

لا يفرع هضبته فارع، ولا يقرع بابه قارع، إلا من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب، ويجري ريحها بأمره رخاء حيث أصاب. انتهى.

وإذا عرفت معنى التورية فاعلم أنها تنقسم إلى أربعة أنواع: مجردة، ومرشحة، ومبينة، ومهيأة.

فالنوع الأول وهي المجرد.

هي التي تنجرد عما يلائم كلا من المعنيين، أعني الموری به والموری عنه. قالوا: فأعظم أمثلة هذا النوع قوله تعالى "الرحمن على العرش استوى" فإن الاستواء يطلق على معنيين، فالتورية لم يجامع شيئا مما يلائم الموری به ولا الموری عنه. واعترض بعض المحققين: بان فيه ما يلائم الموری به وهو العرش، لأنه ملائم

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم الحسني ص/٨٩

للاستقرار، فهي إذن مرشحة لا مجردة. ومنه قوله صلى الله عليه وآله سلم في خروجه إلى بدر، وقد قيل له: من أنتم؟ فلم يرد أن يعلم السائل فقال: من ماء، أراد أنا مخلوق من ماء فورى عنه بقبيلته من العرب.
وقول صاحبه في خروجهما إلى المدينة من الغار وقد سئل عنه صلى الله عليه وآله وسلم، فقيل له: يا أبا بكر من هذا؟ فق ا ل: هاد يهديني السبيل. أراد سبيل الخير فورى عنه بهادي الطريق.
وفي النهاية لابن الأثير: لقيهما في الهجرة رجل بكراع الغميم فقال من أنتم؟ فقال أبو بكر: باغ وهاد. عرض ببغاء الإبل، أي طلبها، وهداية الطريق، وهو يريد الطلب، والهداية من الضلالة.
وعد الصلاح الصفدي من هذا النوع _وتبعه ابن حجة_ قول القاضي عياض:
كأن كانون أهدى من ملابسه ... لشهر تموز أنواعا من الحلل
أو الغزالة من طول المدى خرفت ... فما تفرق بين الجدي والحمل
يعني كأن الشمس من كبرها وطول مدتها صارت خرفة قليلة العقل فنزلت في برج الجدي في أوان الحلول ببرج الحمل. والشاهد في الغزالة، فإنه لم يذكر معها شيء من لوازم الغزالة الوحشية، وهو المورى به كطول العنق، وحسن الالتفات، وسرعة النفور، وسواد العين. ولا شيء من لوازم الغزالة الشمسية، كالإشراق؛ والطلوع، والأفول.
قال: وليس القائل أن يقول: إن الغزالة قد ترشحت بالجدي والحمل، وهي مرشحة لهما، لأنا نشترط في لوازم التورية أن لا يكون لفظا مشتركا، والغزالة هنا مشتركة، وكذا الجدي والحمل فإنهما يطلقان على الحيوان المعروف، وعلى بعض البروج. انتهى بالمعنى.
والذي مشى عليه الخطيب في الإيضاح، والعلامة التفتازاني في المطول أنها من المرشحة.
قال في المطول: أراد بالغزالة معناها البعيد، أعني الشمس، وقد قرن بها ما يلائم المعنى القريب الذي ليس بمراد، أعني الرشأ، حيث ذكر الخرافة وكذا ذكر الجدي والحمل. انتهى.
وقد يقال: أنه فسر الخرافة بقلة العقل وهي لا تناسب الرشأ، لأنه لا عقل له، ويجاب بأن المراد به قلة الإدراك. لا يقال: الغزالة بالتاء مخصوصة بالشمس، ولا يقال لأنثى الغزال: غزالة، بل ظبية، كما نص عليه اللغويون فلا تصح التورية فيها. لأنا نقول: لم يثبت إجماع اللغويين على ذلك، بل حكى بعض الثقات منهم أنه يقال لأنثى الغزال: غزالة. قال أبو حاتم وه‍و أعلم اللغويين وأضبطهم بلا خلف: ولد الظبية أو ما يولد

فهو طلا، ثم هو غزال والأنثى غزالة. وقال ابن السيد: الغزال: ابن الظبي إلى أن يقوى ويطلع قرناه، والجمع غزلة وغزلان، مثل غلمة وغلمان، والأنثى غزالة.." (١)

"قال في شرحه: أردت أن أجانس فيه بين العلو والغلو فلم يطع فيها الوزن، فعدلت إلى لفظة (جانسه) فحصل الجناس المعنوي بإشارة ردفه إليه. فهذا البيت مشتمل على الطاعة والعصيان حقيقة. انتهى.

وأنا أقول: لو أردنا أن نورد عليه مثل ما "أورده هو على بيتي الصفي والموصلي أمكننا أن نقول: أنه لو قال:

طاعاتهم تقهر العصيان قدرهم ... له غلو علة بارتفاعهم.

لحصل له ما أراد من جناس التصحيف بين العلو والغلو، فلم يكن بيته مشتملا على الطاعة والعصيان حقيقة كما ادعاه.

وبيت بديعية المقري قوله:

مكرم الأب سامي الجد عم ندى ... يوفي العقود وكم قد حلها وكم.

قال في شرحه: أراد أن يقول: يوفي العقود، وكم قد حل العقود، ليحصل له التجنيس التام فعصاه ولم يقم الوزن، فعدل إلى قوله: وكم قد حلها، فأطاعه **الاستخدام**. انتهى. وإذا أوردنا عليه إيراد ابن حجة قلنا أنه لو قال (يوفي العقود وكم حل العقود كم) لحصل له ما أراد فلم يعصه تجنيس ولا وزن.

وبيت بديعية العلوي قوله:

تلقاه مبتسما في موقف ضنك ... وكل قرن له وجه من الظلم.

أراد أن يقول: وكل قرن له عابس، ليقابل بينه وبين المبتسم فلم يطعه الوزن، فعدل عنه إلى قوله: له وجه من الظلم، فحصل له الكناية.

وبيت بديعيتي قولي:

أطعهم واحذر العصيان تنج إذا ... بيض الوجوه غدت في النار كالفحم.

أراد أن يقول بيض الوجوه غدت في النار سودا، ليحصل له المطابقة بين البيض والسود فلم يطعه فعدل إلى قوله: كالفحم، فحصل له التشبيه ومراعاة النظير بين النار والفحم. فقد عصاه نوع من البديع وهو الطباق، وأطاعه نوعان وهما التشبيه ومراعاة النظير، والله أعلم.

البسط.

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم الحسني ص/٣٥٨

بسط الكف يرون الجود مغنمة ... لا يعرفون لهم لفظا سوى نعم.

البسط هو الإطناب، وهو خلاف الإيجاز، ومنهم من خصه بالإطناب بتكثير الجمل، فقسم الإطناب إلى قسمين: بسط، وزيادة. فالأول الإطناب بالجمل، و الثاني الإطناب بغيرها والبديعيون لا يعرفون ذلك.

وأعلم أن الإيجاز والإطناب من أعظم أنواع البلاغة، حتى نقل صاحب سر الفصاحة عن بعضهم، أنه قال: البلاغة هي الإيجاز والإطناب.

قال الزمخشري: كما أنه يجب على البليغ قي مظان الإجمال أن يجمل ويوجز، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل أن يفصل ويشبع.

أنشد الجاحظ:

يرمون بالخطب الطوال وتارة ... وحي الملاحظ خيفة الرقباء.

واختلفوا في تفسير الإيجاز والإطناب، فقال السكاكي وجماعة: الإيجاز هو أداة المقصود من الكلام بأقل من عبارة المتعارف من الأوساط الذين ليس لهم فصاحة وبلاغة، ولاعي وفهاهة، أي كلامهم في مجرى عرفهم في تأدية المعاني عند المعاملات والمحاورات. والإطناب أداؤه بأكثر منها، لكون المقام خليقا بذلك. وعلى هذا التفسير فيكون بين الإيجاز والإطناب واسطة وهي المساواة، وسيأتي الكلام عليها في بابها مبسوطا إن شاء الله تعالى.

وتعقب الخطيب القزويني تفسير السكاكي المذكور للنوعين، بأنه رد إلى الجهالة، لأنه لا يعرف كمية متعارف الأوساط وكيفيتها لاختلاف طبقاتهم حتى يقاس عليه ويحكم بأن المذكور أقل منه أو أكثر.

وأجيب بأن الألفاظ قوالب المعاني، والقدرة على تأدية المعاني بعبارات مختلفة في الطول والقصر والتصرف في ذلك بحسب مناسبة المقام، إنما هي من أدب البلغاء. وأما المتوسطون بين الجهال والبلغاء، فلهم في تفهيم المعاني حد معلوم من الكلام يجري فيما بينهم في الحوادث اليومية، يدل بحسب الوضع على المعاني المقصودة، وهذا معلوم للبلغاء وغيرهم، فالبناء على المتعارف واضح بالنسبة إليهما جميعا، فلا رد إلى الجهالة.

ولما لم يرفض القزويني تفسير السكاكي قال: الأقرب أن يقال: إن المقبول من طرق التعبير عن المعنى هو تأدية أصل المراد، وهو إما بلفظ مساو له، أو ناقص عنه واف، أو زائد عليه لفائدة. الأول: المساواة، الثاني: الإيجاز، والثالث: الإطناب. واحترز بقوله: واف، عن الإخلال، وبقوله: لفائدة، عن الحشو والتطويل، فأثبت المساواة التي هي الواسطة أيضا.

وقال ابن الأثير وجماعة: الإيجاز: التعبير عن المراد بلفظ غير زائد، والإطناب بلفظ أزيد لفائدة، فلم يثبتوا واسطة.." (١)

"إليك لولاك لم أصعد نشوز ربى ... ولم أواصل سرى الادلاج بالبكر.

كم نعمة لك لا تحصى مآثرها ... نفعا أنافت على الهطالة الهمر.

وكم لي اليوم من جدواك من أمل ... أثقلت فيه قرا المهرية الصغر.

كم فيك من نعم ترجى ومن نقم ... تخشي العداة من نفع ومن ضرر.

أنت الذي خلقت للتاج هامته ... وكفه لطوال السمر والبتر.

ووقفة لك فلت كل منصلت ... والسمر ما بين منآد ومنكر.

سررت كل صديق في مواقفها ... ما كاد يسأل حتى سر بالخبر.

وليلة من عجاج النقع حالكة ... جلوتها منك بالأوضاح والغرر.

ما إن قدحت زنادا يوم ملحمة ... إلا وأتبعت فيه القدح بالشرر.

شهدت فيك سجايا قد سمعت بها ... ففزت منك بملء السمع والبصر.

وأنعم بعيدك في عز وفي دعة ... والدهر يفتر عن أيامك الزهر.

وخذ إليك عروسا طالما حجبت ... زفت إليك وقد صيغت من الدرر

واسلم على رتب العلياء مرتقيا ... مؤيد العزم في بدو وفي حضر.

ولم ينظم السيوطي ولا الطبري هذا النوع من بديعيتهما والله أعلم.

الترشيح.

إذا أتيت بترشيح لمدحتهم ... حلى لساني وجيدي فضل ذكرهم.

الترشيح في اللغة بمعنى التربية، يقال: رشح الندى النبت ترشيحا: رباه فترشحن وفلان يرشح للملك: يربى ويؤهل له.

وفي الاصطلاح، هو أن يأتي المتكلم بلفظة تؤهل غيرها لضرب من المحاسن البديعية: أما التورية كقول التهامي:

وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار.

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم الحسني ص/٤٤١

فذكر الشفير يرشح الرجاء للتورية برجاء البئر، وهو ناحيتها، ولولا ذكره لما كان فيه تورية، ولكان من رجوت بمعنى ضد اليأس فقط، لقوله أولا: وإذا رجوت المستحيل.

أو الطباق كقول أبي الطيب:

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه ... يا جنتي لرأيت فيه جهنما.

فقوله: يا جنتي، رشحت لفظة جهنم للمطابقة.

أو **الاستخدام** كقول أبي العلاء في صفة الدرع:

تلك مأذية وما لذباب الصي ... ف والسيف عندها من نصيب.

فإن ذكر السيف رشح الذباب لاستخدامه، بمعنى طرف السيف، ولولاه لا نحصر في معنى الطائر المعروف.

أو تحقيق المبالغة في التشبيه وذلك في الاستعارة والمرشحة، وهي التي قرنت بما يلائم المستعار.

كقوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم) فإنه استعار الاشتراء للاستبدال والاختيار، ثم رشحه بما يلائم الاشتراء من الربح والتجارة، فذكر الربح والتجارة يرشح حقوق المبالغة في التشبيه. وبيان ذلك: إن في الاستعارة مبالغة في التشبيه، فترشيحها بما يلائم المستعار تحقيق لذلك وتقوية.

فظهر أن الترشيح لا يختص بنوع من البديع، فمن زعم أنه ضرب من التورية فلا معنى لجعله نوعا برأسه، فقد توهم.

وبيت بديعية الصفي قوله:

أن حل أرض الناس شد أزرهم ... بما أتاح لهم من حط وزرهم.

فقوله (سد) رشح لفظة (حل) للمطابقة، ولولاه لبقيت على عنى الحلول وفاتت المطابقة.

ولم ينظم ابن جابر هذا النوع في مطابقته.

وبيت بديعية الموصلي قوله:

في الفتح ضم من لأنصار شملهم ... جبرا لكسر بترشيح من الرحم.

رشح الفتح للتورية بذكر الصم، ورشح الضم للتورية بذكر الكسر.

وبيت بديعية ابن حجة قوله:

يس زادت على لقمان حكمته ... وبأن ترشيحه في نون والقلم.

فذكر لقمان رشح يس للتورية، وذكر نون والقلم رشح لقمان للتورية.

وبيت بديعية المقري قوله:

كم صاف في رمضي صيف وحر ظما ... من سامه رمضان الفطر لم يلم.

قال في شرحه: رمضان تثنية رمض، والمعنى (من كلفه رمض أن يفطر لم يلم) لأن رمضان هنا تثنية رمض، وقد شرحه لرمضان الذي هو شهر الصوم والفطر معه. وفي معنى البيت غرة. انتهى.

وبيت بديهية السيوطي قوله:

وكلما نسجوا حوكا بوشيهم ... عنى لهم رشحوه باختراعهم.

فذكر النسيج والحوك رشح الوشي للتورية بمعنى رقم الثوب ونقشه، ولولاه لبقي على معنى السعاية والنميمة.

وبيت بديعية العلوي قوله:

تراه أسود من لبس الدروع له ... بياض وجه يضي للوفد من الظلم.

وبيت بديعية الطبري قوله:." (١)

"وتضطرب حتى تجتمع، فإذا غربت الشمس افترقت الأحجار. وأما الأيام والأجرام والبروج والكواكب والأجسام والدوائر فمتطابقة التأليف، متوافقة التكييف، قد تربعت جهة وريحا وأقطابا وطبعا، وتشعبت قوى وجوانب ونقصا وزيادة إلى غير ذلك، فمثالها في الإنسان اثني عشر مخرجا، عينان وأذنان، وفم ومنخران، وسرة وثديان وسبيلان، قد قيست بالبرج، ونفس بالشمس، إذ لا تزيد ولا تنقص، وعقل بالقمر في قبول الحالتين، والخمس الحواس بالخمس البواقي، وهكذا إلى درج في العروق ومفاصل بالجو زهرات، والكل خدمة بلسان الشرع ملائكة، ولسان الحكمة نفوس وعقول مجردة، وفرع أهل الرياضة والروحانيات والأرصاد على ذلك **الاستخدام** واستنزال الكواكب وتكليمها والطيران إليها وتحريك الجمادات، إلى غير ذلك مما يليق بهذا المحل، وهل ذلك إلا قوة عاشقية؟ فليعتبر أولو الأبصار، وليتذكر أولو الألباب، فسبحان من أوجد ذلك واستغنى عنه، وأثر فيه ومنه، ولا تفنيه الأوقات، ولا يعجزه اختلاف الأكوان. والأصل في المحاسن، والمطلوب عند العقلاء في كل مواطن، إنما هو إصلاح السرائر، وتهذيب البواطن لا الظواهر، وإنما ضم إصلاح

الظاهر إلى ما ذكر طلبا لتحصيل الكمال، ودلالة في الأغلب على الاعتدال، ويتم الأول بتحسين المقاصد، وإصلاح العقائد، وقصر القلب على عتبات الحق الثابت من الكتاب والسنة في تلك المواقف، مستمدا بالمراصد، مستعدا للأوامر الإلهية، وتلقى ما في تلك الصحائف،." (٢)

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ابن معصوم الحسني ص/٤٧٥

(٢) نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان صديق حسن خان ص/٩٩

"واصطلاحا – هي أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان، أحدهما قريب غير مقصود ودلالة الفظ عليه ظارهة، والآخر بعيد مقصود، ودلالة اللفظ عليه خفية، فيتوهم السامع: أنه يريد المعنى القريب، وهو إنما يريد المعنى البعيد بقرينة تشير إليه ولا تظهره، وتستره عن غير المتيقظ الفطن، كقوله تعالى (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) أراد بقوله جرحتم معناه البعيد، وهو ارتكاب الذنوب، ولأجل هذا سميت التورية «إبهاما وتخييلا» وكقول سراج الدين الوراق:

أصون أديم وجهي عن أناس لقاء الموت عندهم الأديب

ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافى به لهم «حبيب»

وكقوله – أبيات شعرك كالقصور ولا قصور بها يعوق

ومن العجائب لفظها حر ومعناها «رقيق»

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسى وأنت يماني (١)

(٢) **الاستخدام**

الاستخدام: هو ذكر لفظ مشترك بين معنيين، يراد به أحدهما ثم يعاد عليه ضمير، أو إشارة، بمعناه الآخر، أو يعاد عليه ضميران يراد بثانيهما غير ما يراد بأولهما

فالأول – كقوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أريد أولا بالشهر (الهلال) ثم أعيد عليه الضمير أخيرا بمعنى أيام رمضان.

وكقول معاوية بن مالك.

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

أراد بالسماء (المطر) وبضميره في «رعيناه» (النبات) (٢)

وكلاهما معنى مجازي

---

(١) يريد أن كف (شبيب وسيفه متنافران، لا يجتمعان، لأن شيبا كان قيسيا، والسيف يقال له (يماني) فوري به عن الرجل المنسوب إلى اليمين، ومعلوم ما بين قيس واليمن من التنافر، فظاهر قوله (يماني) أنه رجل منسوب إلى اليمين، ومراده البعيد الدلالة على السيف، لأن كلمة يماني من أسمائه.

(٢) ملخص **الاستخدام**: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان، فيراد به أحدهما، ثم يراد بضميره المعنى الآخر –

كقول الشاعر.

... وللغزالة شيء من تلفته ونورها من ضيا خديه مكتسب

أراد الشاعر: بالغزالة الحيوان المعروف، وبضمير (نورها) الغزالة بمعنى الشمس

وكقوله رأى العقيق فأجرى ذاك ناظره متيم لج في الاشواق خاطره

وكقوله إذا لم أبرقع بالحيا وجه عفتي فلا أشبهته راحتي بالتكرم

ولا كنت ممن يكسر الجفن بالوغى إذا أنا لم أغضضه عن رأى محرم

وقال الآخر في الدعاء، أقر الله عين الأمير وكفاه شرها، وأجرى له عذبها، وأكثر لديه تبرها – وكقول الشاعر:

رحلتم بالغداة فبت شوقا أسائل عنكم في كل ناد

أراعي النجم في سيرى إليكم ويرعاه من البيدا جوادي." (١)

---

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع أحمد الهاشمي ص/٣٠١